

الجمال

فضله - حقيقته - أقسامه

تأليف

**شيخ الاسلام أحمد بن عبدالحليم بن تيمية الحراني
وتلميذه العلامة ابن قيم الجوزية**

دراسة وتحقيق

إبراهيم بن عبدالله الحازمي

عفا الله عنه وسدد خطاه

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٣هـ

دار الشريف للنشر والتوزيع

ص.ب ٥٢٤٧٩ - تلفون ٤٧٧٩٤٩١

القسم الأول الدراسة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين القائل في كتابه الكريم: ﴿الذي أحسن كل شيء خلقه﴾ . [سورة السجدة، الآية : ٧] .

والقائل: ﴿صنع الله الذي أتقن كل شيء﴾ . [سورة النحل، الآية : ٨٨] .
والصلاة والسلام على قائد الغر المحجلين، سيد الأولين والآخرين، ورسول رب العالمين، المهداة رحمة للعالمين . الذي وصفه ربه بقوله: ﴿وإنَّكَ لَعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ﴾ . فكان أحسن الناس خَلْقًا وَخُلُقًا صلى الله عليه وعلى آله وسلم .
وبعد: فالإحساس بالجمال أمر فطري، أصيل في جبهة الإنسان، فالإعجاب به دائم، والميل إليه طبيعة في النفس، تهفو إليه حيث وجد، وتشتاقه إذا غاب وفقد. إن الجمال عنصر مقصود في هذا الكون، وإن صنعة الصانع فيه بديعة التكوين جميلة التنسيق، وإن الجمال فيه فطرة عميقة لا عرض سطحي . ونظرة في السماء كافية لرؤية هذه الحقيقة وهذه الزينة .

قال الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله: «والطباع السليمة قاضية باستلذاذ النظر إلى الأنوار الأزهار والأطيوار المليحة الألوان الحسنة النقش، المتناسبة الشكل . . . ولا أحد ينكر كون الجمال محبوباً بالطبع^(١) .

وقال العلامة ابن القيم رحمه الله في صدر حديثه عن الجمال: « . . . والقلوب كالمنبوذة على محبته، كما هي مفطورة على استحسانه .

* وكل شيء في هذا الكون الفسيح الجميل الرائع . من الذرة الصغيرة إلى أكبر الأجرام، ومن الخلية الساذجة إلى أعقد الأجسام، كلها يتجلى فيها الإسحان والإتقان .

(١) احياء علوم الدين (٤/٢٩٨) .

كل شيء... هذه السمكة، هذا الطائر... ثم هذا الإنسان... وهذا الكوكب السَّيَّار وهذا النجم الثابت وهذه الأفلاك والعوالم كل شيء... كل شيء حينما امتد البصر متقن الصنع، بديع التكوين... يتجلى فيه الإحسان والإتقان^(١).

فكأنني بل أخي القاريء تقول: هلاً عرفت لنا الجمال فما أحوجنا إليه وإلى تعريفه.
فنقول وبالله التوفيق.

تعريف الجمال والحسن لغة واصطلاحاً:

الجمال: مصدر الجميل، والفعل: جَمَلَ.
قال ابن سيده: الجمال: الحسن يكون في الفعل والخلق.
وقال الرازي في مختار الصحاح^(٢): **والجمال**: الحُسْن وقد (جَمَلَ) الرجل بالضم (جمالاً) فهو (جميل) والمرأة (جميلة) و(جملاء) أيضاً بالفتح والمد.
وقال ابن الأثير: والجمال يقع على الصورة والمعان. ومنه حديث: «إن الله جميل يحب الجمال» أي حَسَن الأفعال كامل الأوصاف. الحسن: ضد القبح ونقيضه.
حسنت الشيء: زينته.
والحسنة: ضد الشيئة. والإحسان: ضد الإساءة.
و﴿أحسن كل شيء خلقه﴾. يعني حَسَّن. يقول: حَسَّن خلق كل شيء.
ويأتي الحُسْن بمعنى الجمال.
* الفرق بين الحُسْن والجمال.
«الحسن في الأصل للصورة، ثم استعمل في الأفعال والأخلاق».

(١) انظر في ظلال القرآن: تفسير سورة السجدة - للأستاذ سيد قطب.

(٢) (ص: ١١١) وانظر لسان العرب لابن منظور، والصحاح للجوهري.

«والجمال في الأصل للأفعال والأخلاق والأحوال الظاهرة ثم استعمل في الصورة».

فالجمال هو: ما يشتهر ويرتفع به الإنسان من الأفعال والأخلاق ومن كثرة المال والجسم، وليس هو من الحسن في شيء، ألا ترى أنه يقال لك: في هذا الأمر جمال، ولا يقال لك فيه حسن، وفي القرآن.

﴿ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون﴾.

والقرآن الكريم استعمل لفظ «الجمال» في نطاق ضيق لم يتجاوز ثماني مرات. واحدة منها بصيغة المصدر، والباقي كانت صفة. وكلها في مجال الأخلاق عدا قوله تعالى: ﴿ولكم فيها جمال...﴾. الآية. يعني الخيل والإبل. أما لفظ «الحسن» فقد ورد في القرآن الكريم كثيراً، صيغته المختلفة. وقد استعمل في الصور كما استعمل في المعاني^(١).

(١) انظر فيما تقدم الفروق في اللغة لأبي الحسن العسكري ص: ٨٠ - ٨١.

الألفاظ الجمالية

استعملت اللغة العربية الكثير من الكلمات للتعبير عن الجمال، بعضها في المجال العام، وبعضها الآخر في مجالات خاصة.

ففي كتاب «فقه اللغة» للثعالبي نجد فصلاً تحت عنوان: في تقسيم الحسن. حدد فيه لكل كلمة مجال استعمالها، فقال: الصباحة في الوجه، الوضاعة في البشرة، والجمال في الأنف، والحلاوة في العينين والملاحاة في الفم، والظرف في اللسان، والرشاقة في القد، واللباقة في الشرائل، وكمال الحسن في الشعر اهـ. واستعمل القرآن الكريم الكثير من الألفاظ للتعبير عن الجمال ومن ذلك. الجمال والحسن، والبهجة، والزينة. كما أشار إلى بعض وسائل التجميل كالحلية والريش والزخرف كما استعمل ألفاظاً أخرى للتعبير عن آثار الجمال منها: السرور والعجب ولذة الأعين..

قال تعالى: ﴿... إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين﴾. فالسرور أثر من آثار رؤية الجمال.

وقال تعالى في صدر الحديث عن الجنة: ﴿... وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين﴾. ولذة العين أثر من آثار رؤية الجمال.

* والجمال سمة واضحة مقصودة في الصنعة الإلهية، فحيثما اتجهت ببصرك فثمة هناك ما يجذبك بلونه الأخاذ، أو بصنعتة المحكمة ودقته المتناهية أو بتناسق أبعاده وتوازنها. أو بتألف الألوان وتداخلها.

تأملات

- تأمل أخي المسلم : في ليلك الهاديء ، في صفاء السماء وتلاؤ النجوم ، واسبح بفكرك وراء تلك المسافات الشاسعة التي لم تعد تقاس بالأميال بل بالضوء . .
- وتذكّر قول الله تعالى : ﴿إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ . [سورة آل عمران ، الآية] .
- * تأمل البحر وسكونه ومافيه من عجائب خلق الله ، ثم تأمله هائجاً مغوراً تتلاطم الأمواج فوقه . .
- * تأمل القمر وقد أطلّ من علياء سمائه يبدد بنوره ظلمة الليل الحالك . فإذا بالأرض يغمرها ضياء فضي ينساب في كل جنباتها يطغى عليها الحب والحنان . .
- * ومع إشراقة الشمس حيث تلامس خيوطها الذهبية تلك اللآليء البراقة اللامعة من الندى ، وقد توجّت أوراق الشجر وبراعم الورد يحكي جمال قصة . .
- وتلك الفراشة . . وذلك الطائر . . تعانقت فيهم الألوان تعبيراً عن إتقان الصانع .
- * وتلك النبتة وقد تسلقت ذلك الجدار وألقت بنفسها عليه فإذا به وقد اكتسى غلالة سندسية من أوراقها تدفع عنه برد الشتاء .

ما ورد في حسنه الباهر ﷺ (*)

- ١ - عن البراء بن عازب قال: كان النبي ﷺ أحسن الناس وجهًا، وأحسنهم خلقًا، ليس بالطويل البائن، ولا بالقصير.
- ٢ - وعنه رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ مَرْتُوْعًا بَعِيدَ مَا بَيْنَ الْمُنْكَبَيْنِ، لَهُ شَعْرٌ يَبْلُغُ شَحْمَةَ أُذُنَيْهِ، رَأَيْتُهُ فِي حُلَّةٍ حُمْرَاءَ لَمْ أَرِ شَيْئًا قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهُ.
- ٣ - وعنه رضي الله عنه قال: ما رأيتُ من ذي لَمَةٍ فِي حُلَّةٍ حُمْرَاءَ أَحْسَنَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، لَهُ شَعْرٌ يَضْرِبُ مَنْكَبَيْهِ، بُعِيدَ مَا بَيْنَ الْمُنْكَبَيْنِ، لَمْ يَكُنْ بِالْقَصِيرِ وَلَا بِالطَوِيلِ.
- ٤ - وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ في ليلة إَضْحِيَانٍ (٥)، وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ حُمْرَاءَ، فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ إِلَيْهِ وَإِلَى الْقَمَرِ، فَلَهُوَ عِنْدِي أَحْسَنُ مِنَ الْقَمَرِ.
- ٥ - وعن أبي إسحاق السبيعي قال: سأل رجل البراء بن عازب: أكان وجهُ رسول الله ﷺ مثل السيف؟ قال: لا، بل مثل القمر.

-
- (١) رواه البخاري (٥٦٤/٦) في المناقب: باب صفة النبي ﷺ.
 - (٢) رواه البخاري (٥٦٥/٦) في المناقب: باب صفة النبي ﷺ رقم (٢٣٣٧).
 - (٣) رواه مسلم رقم (٢٣٣٧) (٩٢).
 - (٤) رواه الترمذي في الشمائل رقم (٨) وفي السنن رقم (٢٨١٢) وفيه سوار بن الأشعث فيه ضعف.
 - ولكن الحديث صحيح فقد رواه الدارمي وأبو الشيخ ص: ١٠٧ والحاكم (١٨٦/٤) وصححه ووافقه الذهبي والطبراني في الكبير ١٨٤٢.
 - (٥) رواه البخاري (٥٦٥/٦) والترمذي في الشمائل والسنن (الجامع) وأحمد (٢٨١/٤).
 - (٥) أي مضئة مقمرة.
 - (*) هذا فصل من كتابنا: «الرسول ﷺ كأنك تراه».

- ٦ - وعن عبدالرحمن بن عبدالله بن كعب بن مالك عن أبيه عن جده قال - في حديث التوبة المشهور:
لما سلمت على رسول الله ﷺ وهو يبرق وجهه وكان إذا سُرَّ استنار وجهه كأنه قطعة قمر.
- ٧ - وعن الزهري عن عروة عن عائشة قالت: دخل النبي ﷺ عليها يوماً مسروراً وأسارير وجهه تبرق.
- ٨ - وعن أبي اسحاق الهمداني عن امرأة من همدان سماها قالت: حججت مع النبي ﷺ فرأيتَه على بعير له يطوف بالكعبة بيده محجن، فقلت لها شبيهه، قالت: كالقمر ليلة البدر لم أر قبله ولا بعده مثله.
- ٩ - وعن جابر بن سمرة قال له رجل: أكان وجه النبي ﷺ مثل السيف؟ قال. لا. بل مثل الشمس والقمر مستديراً.
- ١٠ - وعن الجريري، عن أبي الطفيل قال: قُلْتُ له: رأيت رسول الله ﷺ؟ قال: نَعَمْ. كان أبيض، مليح الوجه. وفي رواية: أبيض مليحاً مُقَصِّداً(*).
- ١١ - وعن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر قال: قلت للربيع بنت معوذ: صف لي رسول الله ﷺ قالت: «يابني لو رأيته رأيت الشمس طالعة». وفي رواية البيهقي «لو رأيته لقلت الشمس طالعة».

(٦) رواه البخاري (٥٦٥/٦) وانظر كتابنا «الفرج بعد الشدة والضيق».

(٧) رواه البخاري (٥٦٥/٦).

(٨) رواه يعقوب بن سفيان الفسوي وإسناده حسن إن شاء الله.

(٩) رواه أحمد والبيهقي في الدلائل وإسناده صحيح.

(١٠) رواه مسلم (١٨٢٠/٤) (٢٣٤٠).

(١١) رواه يعقوب بن سفيان وإسناده لا بأس به إن شاء الله ورواه البيهقي في دلائل النبوة.

(*) أي ليس بجسيم ولا نحيف ولا قصير ولا طويل بل حسن الجسم.

١٢ - وعن أم معبد أنها وصفت رسول الله ﷺ فقالت : رأيتُ رجلاً ظاهراً
الوضاءة، أبلغ الوجه، [و] كان أحلى الناس وأجمله من بعيد، وأجهر
الناس وأحسنه من قريب.

١٣ - وعن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً وأنورهم
لوناً، لم يصفه واصف قط بمعنى صفته إلا شبه وجهه بالقمر ليلة
البدر، يقول هو أحسن في أعين الناس من القمر، أزهر، يتلألؤ
وجهه ﷺ تلالؤ القمر.

(١٢) رواه الحاكم في المستدرک (١٠، ٩/٣) وصححه ووافقه الذهبي . ورواه البغوي في شرح السنة
(٢٦١/١٣) وابن مندة والبيهقي وغيرهم وهو حديث حسن إن شاء الله وسيأتي .
(١٣) رواه أبو نعيم الأصبهاني في الدلائل ص : ٥٦٣ ، والبيهقي في الدلائل (٢٩٨/١) وابن أبي
خيثمة في تاريخه وابن عساكر، وأشار إليه الحافظ في الفتح وسكت عنه . وماسكت عنه فهو
حسن وفيه صبيح بن عبدالله أبو محمد الفرغاني . فيه مقال . انظر ميزان الاعتدال (٣٠٧/٢)
رقم ٣٨٥٥ . وباقي رجاله ثقات . قال الحازمي عفا الله عنه : الحديث لا بأس به له شواهد
كثيرة ومتعددة في وصفه ﷺ بذلك . . والله أعلم .

أمور تزيد من الجمال الظاهري والباطني

- ١ - التنظف والتزين .
- ٢ - التسوك بالسواك .
- ٣ - استخدام العطور فقد كان للنبي ﷺ سُكَّة (قارورة) يتطيب بها .
- ٤ - تسريح الشعر وتنظيفه لقوله ﷺ في الحديث الصحيح : «من كان له شعر فليكرمه» .
- ٥ - التحلل بالإئتمد عند النوم فقد قال ﷺ : «عليكن بالإئتمد فإنه يجلو البصر وينبت الشعر» . حديث صحيح .
- ٦ - صفاء الباطن وصلاح الظاهر .
- ٧ - الصدقة فإنها تزيد في السعادة وهذا أمر مجرب .
- ٨ - الابتعاد عن الحسد فإنه يولد براكين داخلية تبدو آثارها للمتفرسين الصادقين .
- ٩ - الحرص الشديد على الدنيا فإنه يتعب قلبه وهلك جسده .
- ١٠ - الابتعاد عن الهم والغم فإنها سم قاتل للبدن - نسأل الله العافية والسلامة - .
- ١١ - الصدق فهو منجاة دنيا وأخرى .
- ١٢ - الإحسان إلى الآخرين وبذل المعروف .
- ١٣ - الجود والكرم .
- ١٤ - محبة المؤمنين والصحابة فمن سبهم صيره الله إلى القبح في آخر عمره .
- ١٥ - الابتعاد عن الغيبة والنميمة .
- ١٦ - المحافظة على أوامر الله وأوامر رسوله .

- ١٧ - محبة الله ومحبة رسوله .
- ١٨ - قراءة القرآن بتدبر .
- ١٩ - صلاح القلب فهو ملك الأعضاء .
- ٢٠ - الإكثار من صلاة الليل . فمن كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار - وهذا أمر مشاهد ومحسوس .
- ٢١ - الزوجة الصالحة تزيد الإنسان بهاء وراحة وهي جنة من جنات الدنيا - نسأل الله من فضله - .
- ٢٢ - انشراح الصدر .
- ٢٣ - الذكاء والفطنة .
- ٢٤ - الجار الصالح فهو يجعلك مطمئن النفس إليه وإلى أهلكت .
- ٢٥ - العافية والسلامة .
- ٢٦ - المركب الحسن فهو من أسباب السعادة - والسعادة تعطي النفس طمأنينة وهدوء .
- ٢٧ - الإكثار من التبعيد لله . . وطلب الدعاء منه أن يعطيك جمالاً باطناً وظاهراً .

الجمال المعنوي: مكارم الأخلاق

أما بالنسبة للجمال المعنوي، فقد جاءت رسالة الإسلام تتم مكارم الأخلاق وتدعو الناس إلى المسابقة في الخير والمسارة إلى البر، وإلى تحقيق: «التي هي أحسن» لا القنوع بفعل الحسن فحسب، وإثارة: «الفضل» لا الوقوف عند حد العدل، والسعي إلى «المندوب». والأحسن والأكمل وتجاوز الواجب والفرص: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبَ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾. [البقرة: ٢٣٧]، ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا، أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾. [النور: ٢٢]، ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٍ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾. [البقرة: ١٧٨]، ﴿فَإِمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُ بِإِحْسَانٍ﴾. [البقرة: ٢٢٩]، ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. [البقرة: ٢٨٠]، ﴿وَإِذَا حُيْتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنِ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾. [النساء: ٨٦]، ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾. [الأنعام: ١٥٢]، ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾. [النحل: ١٢٥]، ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾. [فصلت: ٣٤].

* * *

التذوق الجمالي

تعني رسالة الإسلام بتربية الذوق الجمالي وتؤكد أن الاستمتاع بالجمال والسعي المقبول سمة الإنسان السوي، المرفه الحس العميق الإدراك، اللماح لروعة الخلق وعظمة الخالق وجليل نعمائه: ﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، قل هي للذي آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة﴾. [الأعراف: ٣٢].

والقرآن يوجه النظر إلى: «الجمال» في خلق الله إلى جانب «المنفعة»: ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج. والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج. تبصرة وذكرى لكل عبد منيب. ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد. والنخل باسقات لها طلع نضيد. رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتا، كذلك الخروج﴾. [ق: ١١/٦]. ﴿... فأنبتنا به حدائق ذا بهجة ماكان لكم أن تنبتوا شجرها﴾. [النمل: ٦٠]، ﴿زينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا، ذلك تقدير العزيز العليم﴾. [فصلت: ١٢]، ﴿والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون... والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة، ويخلق ما لاتعلمون﴾ [النحل: ٦-٨]، ﴿وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه﴾. [النحل: ١٤]، ﴿إننا جعلنا ماعلى الأرض زينة لها لتبلوهم أيهم أحسن عملاً﴾. [الكهف: ٧].

وخلق الإنسان نفسه يحقق الفعالية الوظيفية لكن لا يغفل عن الجمال: ﴿لقد

خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴿التين: ٤﴾. ﴿الذي خلقك فسواك فعدلك﴾. [الانفطار: ٧].

والمسلم مأمور باتخاذ الزينة عند الخروج إلى الجماعة: ﴿يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾. [الأعراف: ٣١]. وهو مدعو لتجنب مامن شأنه خروج رائحة كريهة من فمه وهو ملتحم مع الجماعة في صفوف الصلاة، مندوب إلى السواك في كل صلاة فضلاً عن الطهارة السابعة الشاملة للجسم والثوب والمكان. وقد أخبر رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام أنه قد حجب إليه الطيب، وفي الصحيح أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد تطيَّب قبل إحرامه لحجته بأطيب الطيب: «ورؤي وبصص الطيب في مفارق رأسه»^(١) وروى ابن اسحاق أن عبدالله بن زيد بن ثعلبة حين أخبر رسول الله صلوات عليه برؤياه في شأن الأذان قال له ﷺ: «إنها لرؤيا حق إن شاء الله، فقم مع بلال فألقها عليه فليؤذن بها فإنه أندى صوتاً»^(٢).

ويصور القرآن الجنة في جمال وجلال ينفعل بها أصحاب الحس المرهف ويشيع بين المؤمنين تذوق الجمال: ﴿وجوه يومئذ ناعمة. لسعياها راضية. في جنة عالية. لاتسمع فيها لاغية. فيها عينٌ جارية. فيها سررٌ مرفوعة. وأكوابٌ موضوعة. ونمارقٌ مصفوفة. وزرابي مبثوثة﴾. [الغاشية: ٨ - ١٦]. ويعرض القرآن صورة جمالية رفيعة لنور الله تأخذ بالألباب: ﴿الله نور السموات والأرض، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب دري، يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، نور على نور، يهدي الله لنوره من يشاء، ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل

(١) الحديث في الصحيح.

(٢) سيرة ابن هشام: بتحقيق السقا والأبياري وشليبي ط٢ مكتبة مصطفى الحلبي بالقاهرة - القسم الأول ص ٥٠٨ - ٥٠٩.

شيء عليم . في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ﴿ . [النور: ٣٥ - ٣٦] . وقد تأتي الصناعة بصور من الجمال الباهر في حياتنا الدنيا تتحدث بنعمة الله وتستخدم في طاعته كما ورد عن صرح سليمان الذي دخلته ملكة سبأ: ﴿ فلما رآته حسبته لجة وكشفت عن ساقها ، قال إنه صرح ممرد من قوارير ، قالت رب إنني ظلمت نفسي وأسلمت نفسي مع سليمان لله رب العالمين ﴿ [النمل: ٤٤] .

* * *

الجمال جزاء العمل الصالح

إن واضع المنهج الإلهي هو خالق الإنسان، ولذا كان التناسق كاملاً بين المنهج وبين تلك الفطرة التي فطر الإنسان عليها.

وبما أن للحسن أثره البالغ على النفس، فقد جعله الله بعض الجزاء على العمل الصالح، ونتيجة للاستقامة في هذه الحياة، وبهذا يكون الجمال هو العنصر البارز في الثواب الذي أعدّه الله لعباده المتقين. وقد لفت القرآن الكريم النظر إلى ذلك في الكثير الكثير من آياته، حيث جاء التركيز على حاسة البصر أكثر من غيرها. وحاسة البصر هي الوسيلة لاستشعار هذا اللون من النعيم.

ولنستمع إلى بعض هذه الآيات الكريمة:

﴿وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم﴾^(١).
﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إِنَّا لا ننضِيع أجر من أحسن عملاً. أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار ويحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثياباً خضراً من سندس واستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفعاً﴾^(٢).

﴿إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير، وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد﴾^(٣).

(١) سورة التوبة. الآية ٧٢.

(٢) سورة الكهف، الآيتان ٣٠، ٣١.

(٣) سورة الحج، الآيتان ٢٣، ٢٤.

وتنتقل العين عبر هذه المشاهد من جمال إلى جمال.. الجنات التي التفت أشجارها بعضها على بعض، وتلاقت أغصانها.. والماء الجاري منساب رقراق.. والحلية.. تتعاقب فيها الألوان من ذهب أصفر إلى لؤلؤ أبيض.. والثياب.. السندس والاستبرق والحرير متناسبة الألوان في خضرتها مع الجو العام.. إنها مشاهد تحار العين على أيها تستقر!

وفي مشهد آخر، حيث تقل الكلمات، وتُلغى آفاق المسافات، ويسرح الفكر والنظر.. ويتساقط العموم الذي تعنيه «ما» في قوله تعالى: ﴿وفيها ما تشتهي الأنفس﴾. مع الخلود الذي يعني العموم الزمني.. فإذا جمال النص جزء من جمال الحقيقة..

﴿ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون. يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون﴾^(١).

وتأخذ «لذة الأعين» مكانها، في إشارة خاصة بها من بين كل ما تشتهي الأنفس.. ولذا فالصحاف، لا يشار إلا إلى ما فيها ولكن يشار إلى مادتها، فهي وحدها المناسبة لذلك الجو من الحبور والسرور حيث يتوفر كل ما تشتهي الأنفس، وتمناه وترغبه.

كانت تلك مشاهد إجمالية لذلك الجزء، أبرزت فيها الخطوط العريضة والمعالم الكبيرة.

ونحب أن نعيش مع واحد من النصوص التي تناولت الأمر بشيء من التفصيل: ﴿... فوqاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً. وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً. متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً. ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً. ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريراً. قواريراً من فضة قدروها تقديراً. ويسقون فيها كأساً

(١) سورة الزخرف الآيتان ٧٠ - ٧١.

كان مزاجها زنجبيلًا. عيناً فيها تسمى سلسبيلًا. ويطوف عليهم ولدان مخلصون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً. وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً. عاليهم ثياب سندس خضر واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهوراً. إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً ﴿١﴾.

إنه مشهد يشع الجمال من كل أرجائه، ويبدو كذلك في كل جزئية من جزئياته. وهو مع ذلك يؤدي دوره في أداء المتاع حقه من الوصف والإيضاح وهكذا يلتقي المتاع والجمال. وهي سمة واضحة في كل نعيم الآخرة. إن كلمة «الجنة» بمقدار ماتعني من النعيم، فهي ترسم لوحة الجمال الطبيعي حيث تلتفت الأشجار يعانق بعضها بعضاً. فتبدوا أقواساً منتظمة أو غير منتظمة وكل يؤدي دوره في إتمام اللوحة. . .

وفي «الأرائك». . . إنها ليست مجرد سرر يأخذ الإنسان راحته عليها، بل هي التي أحيطت منها بالستائر والحجالات. لا لتغيب من فيها عن النظر، وإنما لتؤدي دورها في جمال المنظر. . .

و «الظلال» ليست ظلالاً تقي حر الشمس، فهم ﴿لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً﴾. ولكنها لأداء الجمالي. وللظلال حيثما وجدت دورها الجمالي الكبير. و «دنو» الظلال يعطي المشهد جمال الحركة وحيويتها.

و «الآنية» ليست مجرد أوعية لتؤدي الغرض فيما أعدت له، ولكنها جمالية من الجماليات، وما زال الناس في دنياهم قديماً وحديثاً يُعنون بجماليات هذه الأواني، فصلتهم بها يومية. . .

إنها من الفضة، والفضة ترسم في المخيلة ذلك اللون الرائع مع لمعان ليس بالشديد، يوحى بالصفاء. . . والأكواب من نفس المادة، ولكنها في تركيب آخر يؤدي مهمة الكوب من حيث الاستعمال ويؤدي التناسق مع بقية الآنية من حيث

(١) سورة الإنسان الآيات ١١ - ٢٢.

اللون والمادة . . إنها قدرت تقديرًا محكمًا، حيث رقت ودقت صفحتها، فأصبحت شفافة، فهي في مادتها فضية، وفي شفافيتها زجاجية . . إنه الجمال .

وأما الولدان الذين يؤدون الخدمة فهم اللؤؤ وكفى به وصفًا إلهيًا من التحرير بأنواعه . . السندس والاستبرق في لون ينساب مع اللون العام فلا يحدث النافر في الألوان . . بل التكامل والتناسق . . وكذا الحلي .

وفي قوله تعالى : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ . . ﴾ . تأكيد على أهمية حاسة البصر وأن جزءًا كبيرًا من ذلك النعيم يحصل عن طريقها .

ولا تغفل النصوص الكريمة الجانب النفسي للإنسان، وماله من أثر على طلاقة وجهه وإشراقته، وهو يعيش في ذلك النعيم . فهو الصفحة التي تعكس كل ما يحيط بها في بلاغه وإيجار . وقد وردت الإشارة إلى ذلك في آيات كثير منها ماورد في النص السابق : ﴿ولقاهم نضرة وسرورًا﴾ . ومنها قوله تعالى : ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾^(١) .

إن آثار النعيم بكل أبعاده - والجمال يبدو منها جميعًا - ستشرق في وجوه أولئك الذين كتب الله لهم الفوز برضوانه، يعرف ذلك ويحس به كل من رآهم .
﴿إن الأبرار لفي نعيم، على الأرائك ينظرون، تعرف في وجوههم نضرة النعيم﴾^(٢) .

إنها صورة الإنسان الذي يتناسب مع الجو السابق المذكور . فالوجوه الكالحة المظلمة، لاتصلح له وتسبب تنافرًا في اللوحة الكبرى . .

مما تقدم مدى اهتمام النصوص بعرض الجمال، وماذاك - كما قلنا - إلا لما له من أثر عميق في النفس، فكان هذا الوصف بيانًا للجزاء من جهة، وإغراء بالعمل الصالح وحثًا عليه من جهة أخرى .

(١) سورة القيامة الآيتان ٢٢، ٢٣ .

(٢) سورة المطففين الآيات ٢٢ - ٢٤ .

وبهذا نتبين مدى الدقة في المنهج الإسلامي وهو يتعامل مع النفس الإنسانية فهو يلبي كل حاجاتها من خلال الفطرة في تغطية شاملة لك متطلباتها من حاجات وأسواق.

من الآثار الجمالية لحضارة الاسلام

من آثار حضارة الإسلام المعروفة إنشاء الحمامات والمغاسل وموارد المياه العامة استجابة لأوامر الإسلام في الطهارة والوضوء والغسل . وكان في الجانب الشرقي من بغداد وحده في القرن الثالث الهجري خمسة آلاف حمام ، وروى الخطيب البغدادي أنه كان في بغداد في عهد المقتدر العباسي ٢٧ ألف حمام وصلت في عهد أخرى إلى ٦٠ ألفاً . ويذكر المقرئزي إنه كان بالفسطاط ألف ومائة وسبعون حماماً . ويذكر المقرئزي إنه كان بالفسطاط ألف ومائة وسبعون حماماً . وكان الحمام متعدد الحجرات وقد رصفت أرضه بالفسيفساء وبطنت جدرانه بالرخام ، وقد أحاطت حجرات الحمام بقاعة وسطى واسعة تتوجها قبة تتخللها كوات صغيرة عليها زجاج ينفذ خلاله الضوء ، وكانت هذه القاعة تدفأ بالبخار المتصاعد من نافورة ماء في وسط الحوض ، وتهيأ حجرات للاسترخاء وتناول المشروبات الدافئة المهدئة .

وقد تجاوب الفن مع تعاليم الإسلام في تحريم تصوير الأحياء أو تجسيمهم ، فأبدع الخزاف المتميزة المستمدة من النباتات والأشكال الهندسية والتي عرفت بالزخرفة العربية (arabesque) فضلاً عن إبداع الصور الرائعة من الخط العربي واستخدامه في الزخرفة . كما بهرت الأنظار نقوش المسلمين الزخرفية على الثياب والسجاد والخزف القيشاني (أو الزليج) وتقدمت صناعة الميناء والزجاج وتذهيبه وتلوينه وتطعيم الخزف والنقش على النحاس وبرز ذلك في كنوز الآثار الباقية وما اشتملت عليه من كؤوس وأون للزهور وثريرات ، وازدهرت صناعة العطور والحلي^(١) .

(١) آدم متر: الحضارة الإسلامية ج٢ ص ١٦٢ - ١٦٣ ، ٢٥٩ ، ٢٦٤ - ٦ . حتى : تاريخ العرب ترجمة نافع ج٢ ص ٤٢١ - ٤٢٢ ، ٤٣٢ - ٤٣٨ ، ٤٤٢ - ٤٤٣ ، ٥٢٣٥ - ٥٣٨ .

باب من كان يضرب به المثل من الصحابة في الجمال

جرير بن عبدالله البجلي كان كامل الجمال حتى قال فيه عمر هو يوسف هذه الأمة وكان المصطفى يحبه ويكرمه لذلك قاله المناوي في فيض القدير وقول عمر المذكور فيه أخرجه ابن سعد والخرائطي في اعتلال القلوب وقال فيه المصطفى لما ورد عليه سيدخل عليكم من هذا الفخ أو من هذا الباب من خير دي يمن على وجهه مسحة ملك أخرجه ابن أبي شيبة والطبراني وأبو نعيم وأخرجه الطبراني عنه قال كان إذا قدمت على رسول الله ﷺ الوفود دعاني فباهاهم بي وأخرج الطبراني في الكبير والحكيم من طريق صابر بن سالم بن حميد بن يزيد بن عبدالله بن ضمرة بن مالك البجلي عن أبيه عن سالم عن أبيه حميد عن أبيه يزيد قال حدثتني أختي أم القصاب عن أبيها عبدالله بن ضمرة أنه كان قاعدًا عند النبي ﷺ فطلع جرير فبسط له رداءه وفي صحيح البخاري وشمال الترمذي عن جرير قال ماحجني رسول الله ﷺ منذ أسلمت ولا رأيي إلا ضحك قال المناوي ماحجني منعي من الدخول عليه مع خواصه وخدمه وقال ابن سلطان ولعل وجه التبسم له كل مرة في رؤيته أنه رآه مطهر الجمال فإنه كان له صورة حسنة على وجه الكمال هـ وأخرج الترمذي في الشمائل أيضًا عن جرير قال عرضت بين يدي عمر فألقى جرير رداءه ومشى في إزار فقال خذ رداءك فقال عمر للقوم مارأيت رجلاً أحسن من جرير إلا مابلغنا من صورة يوسف عليه السلام ومن طريق إبراهيم بن إسماعيل الكهيلي قال كان طول جرير ستة أذرع وقال عبدالملك بن عمر رأيت جرير بن عبدالله وكان وجهه شقة قمر وكان نعله ذراعًا فيه هـ أنظر جميعه في حاشية العلقمي على الجامع الصغير على حديث إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه ونقل ابن سلطان على الشمائل عن أبي عثمان مولى عمرو بن حرث عن عبدالملك بن عمير قال رأيت

جرير بن عبد الله وكان وجهه شقة قمر ومن كان يضرب به المثل في حسن الصورة
دحية الكلبي وكان جبريل ينزل على صورته وروى العجلي في التاريخ عن عوانة
بن الحكم قال أجمل الناس من كان جبريل ينزل على صورته وقال ابن عباس وكان
دحية إذا قدم المدينة لم تبق مخدرة إلا خرجت تنظر إليه ذكره ابن قتيبة في الغريب
وقد سبق عن الفتوحات المكية أنه بلغ من أثر جمال دحية في الخلق أنه لما قدم
المدينة واستقبله الناس مارأته امرأة حامل إلا ألقت ما في بطنها وعن العمدة للعيني
أن دحية هذا كان يمشي مثلثًا خشية أن تفتتن به النساء .

الجمال عنصر مقصود

وإذا كان الجمال هو السمة التي يهمنها الحديث عنها، فلنستمع قول تفسير الظلال في بعض شرحه للآية الكريمة: ﴿الذي أحسن كل شيء خلقه﴾ . قال مؤلفه رحمه الله تعالى: «اللهم إن هذا هو الحق الذي تراه الفطرة وتراه العين ويراه القلب ويراه العقل، الحق المتمثل في أشكال الأشياء ووظائفها. وفي طبيعتها منفردة وفي تناسقها مجتمعة، وفي هيئتها وأحوالها ونشاطها وحركاتها، وفي كل مايتعلق بوصل الحسن والإحسان من قريب أو بعيد» .

«سبحانه . . . كل شيء مقدر، لايزيد عن حد التناسق الجميل الدقيق ولا ينقص . ولايتقدم عن موعده ولا يتأخر، ولايتجاوز مداه ولايقصر . كل شيء من الذرة الصغيرة إلى أكبر الأجرام، ومن الخلية الساذجة إلى أعقد الأجسام . كلها يتجلى فيها الإحسان والإتقان . . . » .

كل شيء هذه السمكة هذا الطائر ثم هذا الإنسان وهذا الكوكب السيار وهذا النجم الثابت وهذه الأفلاك والعوالم كل شيء حيثما امتد البصر متقن الصنع بديع التكوين يتجلى فيه الإحسان والإتقان .

«والعين المفتوحة والحس المتوفر والقلب البصير، ترى الحسن والإحسان في هذا الوجود بتجمعه، وتراه في كل أجزائه وأفراده، والتأمل في خلق الله حيثما اتجه النظر أو القلب أو الذهن، يمنح الإنسان رصيذاً ضخماً من ذخائر الحسن والجمال ومن إيقاعات التناسق والكمال، تجمع السعادة من أطرافها بأحلى ما في ثمارها من مذاق وتسكبها في القلب البشري، وهو يعيش في هذا المهرجان الإلهي الجميل البديع المتقن . يتملى آيات الإحسان والإتقان في كل مايراه ومايسمعه ومايدركه

في رحلته على هذا الكوكب . ويتصل من وراء أشكال هذا العالم الفانية بالجمال
الباقى المنبثق من جمال الصنعة الإلهية الأصيلة» .
«إن هذا الوجود جميل ، وإن جماله لا ينفد ، وإن الإنسان ليرتقى في إدراك هذا
الجمال والاستمتاع به إلى غير ماحدود ، قدر ما يريد ، وفق ما يريده له مبدع
الوجود» .

إن عنصر الجمال المقصود قصداً في هذا الوجود

وإذا كانت المشاهدة هي البرهان فيما يُنظر، فإن هنالك من العوالم مالا يقع تحت بصرننا، إما لأن آلية إبصارنا غير معدة لرؤيته أصلاً، وإما لأنه من الدقة بحيث لم تهيأ الوسائل بعد الإمكانية بعد لإمكانية رؤيته . وسواء أكان ماغاب عنا من هذا الصنف أم من ذاك فإن عنصر الجمال أصيل فيه أصاله عنصر الجمال فيما يقع تحت حواسنا .

انظر إلى ذرة من الثلج تحت المجهر، تر بناءً هندسياً هو الجمال بعينه . إن عيننا المجردة لم تكن قادرة على التعرف على هذا الجمال قبل وجود الوسيلة . ولكن الوسيلة ليست هي التي أوجدت الجمال، إنه موجود قبلها ووجوده في أصل التكوين إن الإنسان ليمتلكه خشوع شديد وهو يسمع قوله تعالى : ﴿فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون﴾^(١) . إنه جلال القسم ورهبته . والمقسم هو الله تعالى . . . إن ما نبصر وما لا نبصر كلاهما من صنع الله وإذن فالصنعة واحدة والأسلوب واحد . وهكذا تكون آية القسم هذه تأكيداً آخر لقوله تعالى : ﴿كل شيء﴾ في الآية السابقة .

الجمال في الكون:

﴿... ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم، الذي أحسن كل شيء خلقه﴾ .

كانت الآية الكريمة موضوع حديثنا ونحن نتكلم عن قاعدة كلية في نظام الخلق، وهي إدخال عنصر الجمال في إنشاء كل شيء، هذه القاعدة التي لا يُذكر لها استثناء . والآية إذ تقرر ذلك - البان والإيضاح لحقيقة من حقائق الوجود -

(١) سورة الحاقة : ٣٩ .

فإنها في الوقت نفسه تلفت النظر إلى أهمية هذا العنصر من بين العناصر الأخرى .
وإن أهميته تبدو أكثر وأكثر من خلال التأكيد عليه مرات ومرات .
وفي هذه الفقرة نتحدث عن الجمال في الكون . حيث نتناول بعض كبريات
الأشياء ، التي تستطيع العين إبصارها ، وحيث يمكن أن يلمح ذلك الجمال فيها
كل إنسان ، سواء قلَّت ثقافته أم عظمت . . فكل يغرف من ذلك المعين بحسب
ما أتيح له من إدراك .
ونقف عند عالم السماء .

هذا العالم الذي كثيراً ماتحدث القرآن عنه ولفت النظر إليه .
إن من أوليات الجمال - وقيل الحديث عن مظاهره - أن يكون الشيء خلواً من
العيوب ، بعيداً عن الخلل والتنافر . فإذا سلم من ذلك كانت تلك الخطوة الأولى
في تصنيفه الجمالي .

والقرآن الكريم وهو يتحدث عن السماء ، لا ينفي الخلل عنها وحسب ، وإنما
يتحدى الناظرين ، أن يكرروا النظر في محاولة لرؤية شيء من ذلك إن وجد؟ ! ثم
زيادة في التحدي يعطي النتيجة سلفاً . . ولنستمع إلى الآيات الكريمة :
﴿الذي خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾^(١) فارجع
البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو
حسير ﴿ . [سورة الملك الآية : ٣ - ٤] .

(١) نذكر معاني الكلمات في الآية الكريمة نقلاً عن تفسير ابن كثير رحمه الله . قال : (ما ترى في خلق
الرحمن من تفاوت) . . ليس فيه اختلاف ولا تنافر ولا نقص ولا عيب ولا خلل .
(هل ترى من فطور) قال ابن عباس ومجاهد والضحاك والثوري وغيرهم : أي شقوق وعن
السدي : أي خروق . وقال قتادة : هل ترى خللاً؟
(خاسئاً) قال ابن عباس : دابلاً . وقال مجاهد وقتادة : صاغراً .
(وهو حسير) قال ابن عباس : يعني كليل . وقال مجاهد وقتادة والسدي . الحسير: المنقطع من
الإعياء .

إن البصر سيرجع بعد رحلته وقد أصابه الإعياء، ولم يجد عيباً فلا فروج ولا خروق ولا فطور. . وكذلك لاتفاوت فلا خلل ولا تناقض ولا تنافر في خلق الرب سبحانه .

والدعوة إلى النظر ثم تكراره مرة بعد مرة. . ذلك لتأكيد الحقيقة التي لاشك فيها. هذه الحقيقة التي أكدتها مرة أخرى سورة ق: ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج﴾ .

ويستوقفنا في الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿ماترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾ . فلم تقل الآية: ماترى في خلقها من تفاوت. إذ الحديث عن السماوات، ولكن الآية تقرر مبدأ عاماً هو سمة لخلق الله تعالى، فليس ذلك خاصاً بالسماء. إن الخلل والتناقض منفي أصلاً عن صنع الله الذي أتقن كل شيء .

وإذا كانت الآيات الكريمة قد نفت عن السماء والخلل والعيب، فذلك في حد ذاته جمال لا يدانيه جمال. إذ هو الإتقان، ولكنها لاتقف عند هذا الحد بل تسير شوطاً آخر لتسجيل عملية التزيين الإلهية فتقول:

﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين﴾ .

والزينة مقصودة - هنا - يوحى بها كل مافي الآية الكريمة. يوحى بها الحرف «قد» الذي يعني التحقيق. والتأكيد بـ «اللام» قبله الفعل إلى ضمير المتكلم «نا» الذي هو الله تعالى بقوله «زينا» كما يوحى به نسبه ولقد تكرر هذا التأكيد على قصد تزيين السماء في آيات أخرى منها:

﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج﴾ .

﴿ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للناظرين﴾ .

إن غاية الزينة هي استمتاع العين برؤيتها، وتنص الآية على ذلك صراحة: ﴿وزيناها للناظرين﴾ .

إن القصد الجمالي لا يحتاج إلى إيضاح أو تأكيد أكثر من هذا . ومع ذلك تأتي آيات سورة فصلت لتروي لنا جانباً من قصة الخلق : ﴿ . . ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ .

الجمال في الانسان:

الإنسان . . .

ذلك المخلوق الذي سواه الله تعالى بيده، ونفخ فيه من روحه . . . وأسجد له ملائكته . . .

إنه عالم من العوالم، وكون من الأكوان . . . مازال العلم يبحث في أرجائه المادية فلم يصل إلى غاية ففي كل يوم كشف جديد، ومعلومات جديدة وكلما تقدم العلم في هذا كشفت له جوانب لم يكن يعلمها . . . وأما أرجاؤه النفسية فذلك عالم لم يزل العلم على عتبة لم يلج الباب . . .

وفي هذه الفقرة، لن نتحدث عن الإنسان تفصيلاً . . . وأنى لنا بذلك؟ فهذا يحتاج إلى الكثير الكثير. ولكننا ضمن إطار البحث نقف عند إثبات قصد الجمال في خلق الإنسان . . . وندع الجوانب الأخرى في الحديث عنه إلى أبوابها . . . إن النظرة السريعة في هذا المخلوق - فضلاً عن النظرة الفاحصة - لتقرر جمال هذا المخلوق دون تحفظ .

هذا القوام الفريد، هذا التناسق بين الأعضاء، هذه المرونة في حركة كل عضو . . . المرونة والتكيف في حركة الأعضاء بعضها مع بعض . . . هذا التناسق في العمل بين العقل والجسد . . . والروح . . . إنها مؤكدات لا تنتهي . . . والقرآن الكريم يتناول الحديث بشأن جمال الإنسان من أكثر من جانب، وما ذاك إلا للدلالة على أهمية هذا المخلوق وللتنويه بتكريمه .

والمرحلة الأولى التي ينطلق منها الجمال هي التسوية التامة للشيء، فعدم الخلل وعدم النقص هو الحد الأدنى في الجمال . ويلفت القرآن النظر إلى هذا بلغة هادئة توقظ الحس وتحفز المشاعر ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ

فسواك فعدلك»^(١). قال ابن كثير - رحمه الله - : «أي جعلك سوياً مستقيماً معتدلاً القامة منتصباً على أحسن الهيئات والأشكال» .

والتسوية : الوصول بالشيء إلى مرحلة الكمال . ومنه قوله تعالى : ﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾^(٢) أي أكملت خلقه . ومنه قوله تعالى : ﴿الذي خلق فسوى﴾^(٣) . قال في صفوة التفسير : أي خلق المخلوقات جميعها فأنقن خلقها وأبدع صنعها في أجمل الأشكال وأحسن الهيئات .

وإذا كانت هذه التسوية من قِبَل الله فلا بد أن تصل إلى الجمال . . . على أن القرآن لا يقف عند هذا الحد في تقرير جمال الإنسان بل يصرح بذلك بما لا يدع مجالاً للريب . وهو هنا - عند الحديث عن الإنسان - لا يكتفي باستعمال لفظ الزينة وما كان في مستواه ، كما جرى ذلك إبان الحديث عن جمال السماء . . . بل يستعمل اللفظ الذي استعمله في القاعدة الكلية^(٤) «أحسن» ويستعمله في تعبيرين مختلفين :

﴿خلق السماوات والأرض بالحق* وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير﴾^(٥) .

﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾^(٦) .
ونقف عند التعبير الأول : ﴿صوركم فأحسن صوركم﴾ :
ذهب كثير من المفسرين^(٧) إلى أن الصورة هي الشكل . قال ابن كثير - رحمه

(١) سورة الانفطار : ٦ - ٧ .

(٢) سورة الحجر : ٢٩ .

(٣) سورة الأعلى : ٢ .

(٤) المقصود بها قوله تعالى : ﴿الذي أحسن كل شيء خلقه﴾ .

(٥) سورة التغابن : ٣ .

(٦) سورة التين : ٤ .

(٧) ذهب سيد قطب رحمه الله إلى توسيع كلمة صوركم حتى شملت الجانب المعنوي فقال : =

الله :- أي : أحسن أشكالكم . وقال القرطبي - رحمه الله :- خلقكم في أحسن صورة وقال في تفسير سورة الحشر ؛ ومعنى التصوير : التخطيط والتشكيل . خلق الله الإنسان في أرحام الأمهات ثلاث خلق ، جعله علقة ثم مضغة ثم جعلة صورة ، وهو التشكيل الذي يكون به صورة وهيئة يعرف بها ويتميز عن غيره بسمتها . ١ هـ .

نلاحظ من هذا أن الآية تهتم بالشكل الظاهر وهو ما نعبر عنه بالجمال الحسي الذي تكون العين حاسة الإدراك له .

ونلاحظ أيضاً أن الفعل «صوّر» لم يستعمل في القرآن الكريم إلا في صد الحديث عن الإنسان ، وبأسلوب الخطاب له ، من باب المنّ عليه في هذا الجانب المهم من حياته ، في شؤون نفسه وفي تعامله مع ما يحيط به ، وهذا مما يؤيد أهمية «الجمال» الذي أحسنه الله في صورة هذا الإنسان ولا أدل على ذلك من تخصيص الله تعالى لهذا الإنسان بأسلوب من الخلق وهو «التصوير»^(١) .

وأما التعبير الثاني وهو قوله تعالى : ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ فإن آراء المفسرين لم تتفق على مفهوم التقويم في الآية . على الرغم من عدم

= (وصوركم . .) تشعر الإنسان بكرامته على الله ، ويفضل الله عليه في تحسين صورته : صورته الخلقية وصورته الشعورية «الظلال ص ٣٥٨٥ سورة التغابن .

(١) كل ماورد في القرآن الكريم في مادة «صور» هو : كلمة (المصور) اسماً من أسماؤه تعالى : ﴿هو الله الخالق الباري المصور . .﴾ . سورة الحشر [٢٤] .

ووردت خطاباً للإنسان في الآيات التالية كما ألمحت إليه أعلاه .

﴿الله الذي جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناءً وصوركم فأحسن صوركم﴾ . غافر ٦٤ .

﴿خلق السموات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير﴾ . التغابن ٣ .

﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم . .﴾ . الأعراف ١١ .

﴿هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء﴾ آل عمران ٦ .

﴿في أي صورة ماشاء ركبك﴾ الانفطار ٨ .

وهكذا لم تستعمل كلمة «التصوير» في حق أي مخلوق آخر في آيات القرآن الكريم .

الاختلاف في معناها اللغوي: فالتقويم: التعديل والتثقيف^(١). ولكن هذا التعديل والتثقيف متعلق بظاهر الإنسان أم بباطنه؟

قال القرطبي - رحمه الله - : ﴿في أحسن تقويم﴾ في اعتداله واستواء شبابه كذا قال عامة المفسرين . ا. هـ .

وهكذا يذهب في تفسير الآية الكريمة إلى الحسن الظاهر الذي يتناول قوام الإنسان وشكله الظاهر.

ويؤيده في هذا الاتجاه ابن كثير - رحمه الله - حيث قال : «وهو أنه تعالى خلقه الإنسان في أحسن صورة وشكل منتصب القامة سوي الأعضاء حسنها» .

وقال مجاهد - رحمه الله - : ﴿أحسن تقويم﴾ : أحسن صورة وأبدع خلق^(٢) .

وذهب آخرون إلى أن حسن التقويم هنا يتعلق بالجانب المعنوي للإنسان : وينقل القرطبي بعض هذه الأقوال :

«وقال أبو بكر بن طاهر: مزيناً بالعقل مؤدياً للأمر مهدياً بالتمييز. . . [وقال] ابن عربي: ليس لله تعالى خلق أحسن من الإنسان. فإن الله خلقه حياً عالماً، قادراً مريداً متكليماً سميعاً بصيراً مديراً حكيماً، وهذه صفات الرب سبحانه. . .» .

وإلى هذا المنحى ذهب سيد قطب رحمه الله حين قال : ﴿في أحسن تقويم﴾ فطرة واستعداداً .

وذهب فريق ثالث من المفسرين إلى الجمع بين الاتجاهين السابقين . جاء في تفسير الثعالبي : «وحسن التقويم يشمل جميع محاسن الإنسان الظاهرة والباطنة من حسن صورته وانتصاب قامته وكمال عقله وحسن تمييزه» .

(١) انظر معجم الألفاظ والأعلام القرآنية . محمد إسماعيل إبراهيم .

(٢) عن تفسير الطبري .

وإلى هذا الاتجاه ذهب المتأخرون من المفسرين :
جاء في تفسير القاسمي : « في أحسن تعديل خلقاً وشكلاً وصورة ومعنى » وفي
صفوة التفاسير : « أي لقد خلقنا جنس الإنسان في أحسن شكل ، متصفاً بأجمل
وأكمل الصفات ، من حسن الصورة وانتصاب القامة وتناسب الأعضاء ، مزيئاً
بالعلم والفهم والعقل والتمييز ، والمنطق والأدب » .
نلاحظ مما سبق من أقوال المفسرين في الآيتين الكريمتين ، أن معنى الحسن
والجمال مقصود في خلق هذا الإنسان ، في ظاهره وباطنه ، وإن كانت الأولى أقرب
إلى الحديث عن الظاهر ، والثانية يتسع فيها جانب الحديث عن المعنى .
وإذا كان القرآن قد نص على جمال التصوير وجمال الخلق وجمال التقويم فيه
فقد كانت التعاليم الواردة في هذا القرآن هي الوسيلة لإنجاز جمال السلوك فيه ،
وبهذا يصل الإنسان إلى المستوى الكريم المقصود من وجوده حيث يتناسق الجمال
فيه بكل معانيه في جانبه الخلقى وجانبه الإرادي^(١) .

(١) الظاهرة الجمالية في الإسلام للأستاذ الشامي ص : ١٤٠ - ١٤٤ .

وسائل جمالية:

إن الله تعالى خلق الكون، والجمال عنصر أصيل في تكوينه، وكذلك كان الأمر بالنسبة للإنسان، فقد أبدع الله صورته وأحسنها كما أحسن فطرته واستعداداته فجعلها، محبةً للجمال مبالغةً إليه وحريصة عليه، كما جعلها قابلةً مستعدة لتقدير الجمال، وكذلك لإنتاجه.

وإذا كان هذا الاستعداد من صنع الله تعالى، في فطرة الإنسان، فإنه هياً له من الوسائل ما يجمّل به حياته الخاصة، وهذه الوسائل من الكثرة بحيث لا يمكن إحصائها والقرآن الكريم يتحدث عن بعضها على سبيل ضرب المثل.

والزينة مطلوبة من هذا الإنسان.

وهو إذ يسعى إلى ذلك فإنما يلبي نداء الفطرة ونداء الدين معاً. . .

ولعل من التكريم للزينة - وهي وسيلة التجميل - أن ينسبها الله إليه ﴿زينة الله﴾ فالإضافة هنا للتشريف أي الزينة التي هي من صنع الله تعالى.

وهذه الزينة معدة ليستفيد منها «عباد الله» بتجميل أنفسهم أو بتجميل بيوتهم وكل ما يتصل بهم.

ولنستمع إلى القرآن الكريم مبيناً موقفه منها منكرًا على الذين وقفوا منها موقفًا سلبيًا:

﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق...﴾^(١).

وبهذا يتقرر أن الزينة واتخاذ الوسائل لصنع الجمال في هذه الحياة أمر مطلوب ومرغوب فيه، وصهيء الله تعالى لنا من الأشياء ما يساعدنا به على إنجاز هذه

(١) سورة الأعراف: ٣٢.

المهمة . . . فيسخر لنا البحر - في جملة ما سخره لنا - لنستخرج من الحلية اللازمة لهذه المهمة :

﴿وهو الذي سخر لكم البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً﴾ وتستخرجوا منه حلية تلبسونها . . . ﴿^(١)

وهكذا يلفت القرآن النظر إلى إعداد هذه الحلية ويدلنا على أماكن وجودها، مساعدةً منه في إنتاج الجمال .

ولا نريد الحديث هنا عن كل الوسائل، فالذهب والفضة وسيلة وأي وسيلة في عمليات التجميل والزينة . ولكن أنيطت بهما مهمة أخرى، وهي كونها يؤديان دور النقد في إطار التعامل المالي بين الناس . . .

إنما مقصودنا ذكر الأشياء التي مهمتها الأصيلة هي كونها وسائل جمالية فهي مصادر إشعاع للحسن حيث وجدت . . .

إنها : اللؤلؤ والمرجان والياقوت والرياش . . .

فالله تعالى يمنّ على عباده بهذه الأشياء، قال تعالى : ﴿مرج البحرين يلتقيان﴾ بينهما برزخ لا يبغيان ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴿^(٢)

(١) سورة النحل : ١٤ .

(٢) سورة الرحمن : ١٩ - ٢٣ .

«الظاهر والباطن» والجمال

إن الجمال ليس شيئاً قائماً بذاته ، وإنما هو أمر قوامه بغيره ، فنحن نستطيع أن نراه أو نحس به في الإنسان ، وفي سلوكه . . . وفي عمله . . . وفي الأشياء . . . وبما أنه كذلك فإن تلك القواعد العامة التي ذكرناها قبل قليل تشملها على اعتبارها قواعد عامة في المنهج .

فالجمال لا يكون له وجود حقيقي إلا حينما يكون سمة للظاهر والباطن في آن واحد ، ويكون التناسق تاماً بين هذين الركنين .

أما إذا كان سمة للظاهر فحسب ، فهو جمال تافه ، من خلفه باطن فارغ ، ويضع القرآن الكريم بين أيدينا صورة غاية في الدقة لهذه الحالة الكريهة ، محذراً منها ، وذلك حيث وصف المنافقين فقال :

﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم﴾ وإن يقولوا تسمع لقولهم * كأنهم خشب مسندة . . . ﴿^(١) .

﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم﴾ إن أشكالهم حسنة ، وهندامهم جميل ورواءهم معجب . . .

﴿وإن يقولوا تسمع لقولهم﴾ وإن يتكلموا تصغ لقولهم ، فهم ذوو فصاحة وذلاقة لسان ، يحسنون تنميق الحديث . . .

ولكن ذلك الظاهر من خلف خواء ، خواء في معناهم ، وكذلك في معنى كلامهم . . . فاستحقوا ذلك التشبيه الدقيق . . . ﴿كأنهم خشب مسندة﴾ إنها أخشاب جامدة لا حيوية بها بل لا حياة فيها ، مسلوبة الإرادة فهي ليست

(١) سورة المنافقون : ٤ .

مستندة، ولكنها مسندة.

وفي مقام آخر ردّ الله على قریش حينما تفاخرت بوضعها الاجتماعي، وذلك فيما نقله القرآن من شأنهم إذ قال: ﴿وَإِذَا تَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيِ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا...﴾^(١).
إنهم يفاخرون بمكانتهم الاجتماعية وبأنديتهم الحسنة وبمنازلهم الرفيعة..
إنها مظاهر.. من الزينة والطلاء.

فرد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَانًا وَرِئِيًّا﴾^(٢). كثيرة تلك الأمم التي أهلكها الله ودمرها، كانت أكثر متاعًا وأحسن أثانًا، وأجمل صورة وأبهى منظرًا... ومع ذلك لم يغن عنهم ذلك شيئًا... إن فساد الباطن غلب حسن الظاهر، فكان الهلاك.

فالواجب على الإنسان المسلم أن تكون سريره خير مع علانيته، وقلبه خير من لسانه. والله المستعان

(١) سورة مريم: ٧٣.

(٢) سورة مريم: ٧٤.

المنهج وخاصة «الظاهر والباطن»

قبل الحديث عن «الظاهر والباطن» وأثرهما في الظاهرة الجمالية لابد من بيان مقتضب عنهما باعتبارهما خاصية أصيلة من خصائص المنهج الإسلامي .

نلاحظها في المنهج ذاته، كما نلاحظها في معالجته للقضايا التي يتناولها، وقد تناول كل القضايا . . في حياة هذا الإنسان .

والإنسان له ظاهر، وهو ما يرى به، ويُميز بواسطته من صورة ولون، وله باطن، وهو ما يستقر في داخله من عقيدة وأفكار وقيم .

وعمله - الذي يصدر عنه كذلك - له ظاهر: وهو ما يراه الناس، وله باطن، وهو المعنى أو الباعث أو النية .

والظاهر والباطن سوف يكونان وحدة متكاملة نتيجة لتطبيق المنهج، فتكون حقيقة العمل التي تبدو من ظاهره، هي حقيقته الكامنة فيه، ذلك أن المنهج الذي يضبط الظاهر، هو نفسه الذي يضبط الباطن .

وإذا عرفنا أن هذا المنهج يتناول كل قضايا الإنسان في كلياتها وجزئياتها، تبين لنا أن هذه الخاصية أصيلة في المنهج الرباني، وليست مجرد بحث نتناوله في صدد الحديث عن الظاهرة الجمالية .

فالإنسان الذي خلقه الله وصوره، لا يكون إنساناً حقاً، إلا حينما يستقر في نفسه المنهج الذي وضعه الله له، وحينئذٍ تلتقي الصورة الظاهرة مع معناها الحقيقي المناسب، أو يلتقي الظاهر الذي هو من صنع الله، مع الباطن الذي تمثل منهج الله فإذا الظاهر والباطن وحدة تامة الانسجام . . وعندها تكمل إنسانية الإنسان، صورة ومعنى، ظاهراً وباطناً .

الاحساس بالجمال وأثره في النفس

وقد تحدّث الأئمة من علماء المسلمين عن هذه الفطرية في النفس الإنسانية بكلمات مجمّلة ولكنها واضحة، وماذا لك إلا لأنها مسلّمات لا تحتاج إلى البراهين والأدلة.

قال الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله: «والطباع السليمة قاضية باستلذاذ النظر إلى الأنوار والأزهار والأطيّار المليحة الألوان الحسنة النقش المتناسبة الشكل . . . ولا أحد ينكر كون الجمال محبوباً بالطبع»^(١)

وهكذا فهي عنده مسلّمة لا أحد ينكرها . . . ووجودها لدى الإنسان دلالة على سلامة طبعه وصحة نفسه .

وقال الإمام ابن تيمية رحمه الله: « . . . إذ الإنسان مجبول على محبة الحسن وبغض السيئ، فالحسن الجميل محبوب مراد، والسيئ القبيح مكروه مبغض»^(٢). وقد جاء من بعده تلميذه ابن القيم رحمه الله ليؤكد قوله، وذلك في صدد حديثه عن الجمال الظاهر، حيث قال: « . . . والقلوب كالمطبوعة على محبته، كما هي مفعورة على استحسانه».

إنها آراء صريحة لأئمة أعلام، تؤكّد أن الإحساس بالجمال أمر فطري في جيلة الإنسان. وأن استحسانه وحبه كذلك مما طبعت عليه النفوس.

وإذا عدنا - بعد هذا إلى زمننا الحاضر، نتعرف آراء العصر الذي نعيشه، لاحظنا قلة الباحثين في هذا الميدان ممن يحملون العقيدة الإسلامية ويعيشون

(١) إحياء علوم الدين ٢٩٨/٤ . طبعة دار المعرفة بيروت .

(٢) الاستقامة لابن تيمية ٣٦٧/١ تحقيق د. محمد رشاد سالم ط ١٤٠٣ هـ.

التصور الإسلامي ، ومع ذلك فالآراء واضحة جلية .

يرى الأستاذ محمد قطب - في صدد حديثه عن القيم العليا - أن الإحساس بالجمال أمر فطري ، وأن القضية في نظره أضحت مسلمة لا تحتاج إلى دليل ، ولذا يكتفى بالكلمات التالية «وهو إحساس فطري ، والدلالة واضحة . .»^(١) .

وأما مؤلف «الظلال» رحمه الله فإنه ينتقل بنا نقلةً بعيدة . فهو لا يراه فطرة في الإنسان فحسب ، بل يراه فطرة الوجود كله قال رحمه الله : «ونظرة إلى السماء كافية لرؤية هذه الزينة . ولإدراك أن الجمال عنصر مقصود في بناء هذا الكون ، وأن صنعة الصانع فيه بديعة التكوين جميلة التنسيق ، وأن الجمال فيه فطرة عميقة لا عرض سطحي . .»^(٢) .

إن هذه الحقيقة - فطرية الإحساس بالجمال - التي عرفها المسلمون على امتداد عصورهم وكانت نتاجاً طبيعياً للتصور الإسلامي الشامل ، حتى بانت مسلمة من المسلمين لم تكن كذلك لدى غيرهم . .

وفي العصر الحديث قليل أولئك الذين توصلوا إليها أو قالوا بها . . فكل أولئك الذين جعلوا من الفنان إنساناً آخر فوق البشر وغير البشر لم يروا ذلك . وكذلك الذين نادوا باستبعاد الفن والجمال . . لأنهما يعرقلان مسير ثورتهم لم يروا ذلك . وكل الذين قامت فلسفاتهم على العبث . . والتمرد لم يهتموا بذلك . .

على أننا لانعدم مفكرين نظروا من خلال فطرتهم لا من خلال الفلسفات التي أحاطت بهم فتوصلوا إلى الحقيقة أو قريباً منها .

نستطيع أن نلمح هذا من خلال رأي «كانت» وهو يتحدث عن إدراك الجمال حيث يرى «إن إدراك الجمال في الأشياء يعتبر إدراكاً مباشراً مستقلاً عن تصورنا لما

(١) دراسات في النفس الإنسانية . فصل «القيم العليا» .

(٢) في ظلال القرآن . تفسير سورة الصافات الآية ٦ .

هو «جميل». وكذلك فنحن لاجاجة بنا إلى برهان للتدليل على جمال الأشياء .
وإنما تتبدى في الشيء سمة الجمال التي ندركها فيه دون حاجة إلى تصور نموذج أو
مثال للجمال نقيس بمقتضاه جمال الأشياء»^(١) .

ويرى «رسكن»^(٢) أن الشعور الجمالي غريزي في الإنسان، أي أنه سابق على
التجربة . . (٣) .

ويعبر «الكسيس كاريل» عن هذه الحقيقة بأسلوب آخر فيقول: «إن
الإحساس بالجمال موجود في الإنسان البدائي مثلما هو موجود في أكثر الناس
تمدناً . . .»^(٤) .

وهذا يعني استقرار هذه الحقيقة في فطرة الإنسان بغض النظر عن بيئته وعصره
وثقافته . .

خلاصة لما سبق نستطيع أن نقول:

إن عمق الرصيد الذي يملكه الجمال في فطرة الإنسان، جعل تأثيره على
النفس عظيمًا، الأمر الذي سجله القرآن الكريم، وهو موضوعنا في الفقرة
التالية:

أثر الجمال في النفس:

يعرض القرآن الكريم من خلال قصصه تأثير الجمال على النفس الإنسانية،
الجمال الذي يبدوا تارة من خلال الزينة . . وتارة من خلال الفن الهندسي
المعماري . . وتارة من خلال الإنسان ذاته، صورة ومعنى . .

كما يستعرض النفس الموضوعة تحت هذا التأثير في حالاتها المختلفة، فتارة

(١) فلسفة الجمال. أبوريان ص ٣٦.

(٢) جون رسكن (١٨١٩ - ١٩٠٠) كاتب انكليزي، وناقد فني واجتماعي، قرن النقد الجمالي
بالوعظ الأخلاقي .

(٣) المصدر السابق ص ٥١.

(٤) الإنسان ذلك المجهول ص ١٥٤.

تكون نفساً عادية تمثل نفوس عامة الناس ، وتارة تكون نفس واحد من علية القوم . وتارة تكون في صفة الذكورة وتارة في صفة الأنوثة .

وهكذا نكون أمام تنوع في أشكال المؤثرات ، وتنوع آخر في النفوس المتلقية لتلك المؤثرات . . وتبقى القضية واحدة . وهي أثر الجمال في النفس الإنسانية ، فالجمال هو الجمال ، والنفس هي النفس .

ولنقف على نماذج من هذه المشاهد :

* هذا مشهد تبدو فيه الزينة والجمال من خلال الثراء والرفاهية والإعجاب بالنفس . . إنه قارون ، الذي كان من قوم موسى ، والذي أوتي من الكنوز ما إن مفاثحه لتنوء بالعصبة أولي القوة ، وقد اتخذ من مظاهر الزينة والرياش والزخارف ما يتناسب مع هذا الغنى . . ويخرج « ذات يوم على قومه في زينة عظيمة وتحمل باهر من مراكب وملابس عليه وعلى حشمه وخدمه . . »^(١) فإذا الناس من قومه أمام هذا المشهد فريقان :

فريق أخذ المشهد بمجامع قلوبهم ، فإذا بآثار ذلك تخرج من أفواههم تمنياً ورغبةً أن يكونوا مثله ، وأن يكون لهم ماله . .

وفريق آخر ، لم يؤثر فيهم المشهد ، لا لأنه غير مؤثر ، وإنما لسبب آخر ، هو وجود الإيمان الذي يجعل الإنسان لا يقف عند ظواهر الأمور بل ينفذ إلى جوهرها ، إن عدم تأثر هذا الفريق يرجع إلى علمه بأن هناك ما هو أعلى قدرًا وأسمى مكانة . . وهو ثواب الله . .

فالمشهد مؤثر في النفس ولكن وجود الإيمان هو العامل المضاد في النفوس المؤمنة ، ولنستمع إلى النص القرآني الكريم الذي قص علينا ذلك :

﴿ فخرج على قومه في زينته ، قال الذين يريدون الحياة الدنيا : يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون ، إنه لذو حظ عظيم . . وقال الذين أوتوا العلم : ويلكم ثواب الله

(١) تفسير ابن كثير.

خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون^(١).

إن الجمال من الأشياء التي تحب لذاتها لا شيء آخر وراءها، فمنفعة الإنسان من الجمال هي متعة نظره أو سماعه أو شممه أو عقله، وليس هناك شيء آخر. وأي شيء أكثر نفعاً من أن تُلبي حاجة من حاجات النفس الفطرية، ف رؤية الجمال تلبية لحاجة النفس في هذا الجانب. وإذن ف منفعة الإنسان من الجمال حاصلة في الجمال ذاته.

ويفرق الإمام الغزالي تفريقاً دقيقاً بين لذة الجمال ذاته ولذة المنفعة الحاصلة من ورائه إن وجدت، وهنا يكون الإنسان أمام لذتين. . فيقول: «إن كل جمال محبوب عند مدرك الجمال، وذلك لعين الجمال، لأن إدراك الجمال فيه عين اللذة. . . ولا ننظن أن حب الصور الجميلة لا يتصور إلا لأجل قضاء الشهوة فإن قضاء الشهوة لذة أخرى قد تحب الصور الجميلة لأجلها وإدراك نفس الجمال أيضاً لذيد، فيجوز أن يكون محبوباً لذاته، وكيف ينكر ذلك والخضرة والماء الجاري محبوب لاليشرب الماء وتؤكل الخضرة أو ينال منها حظ سوى نفس الرؤية. . . حتى إن الإنسان لتتفرج عنه الغموم والهموم بالنظر إليها لا لطلب حظ وراء النظر^(٢)». . .

وواضح من هذا أن للجمال استقلاله الكامل عن المنفعة، إذ منفعة فيه ذاته، وهذا لا يعني أن الجمال لا وجود له حيث توجد المنفعة، وإنما المقصود أن له اعتباره الخاص، فقد يلتقي معها تارة ويتعد عنها أخرى^(٣). .

مكانة الجمال:

نستطيع التعرف على مكانة الجمال من خلال التعرف على منزلته ضمن

(١) سورة القصص: ٧٩ - ٨٠.

(٢) إحياء علوم الدين ٤/ ٢٩٨.

(٣) الظاهرة الجمالية في الإسلام (مرجع سابق)

اهتمامات الناس، كما نستطيع معرفة ذلك من أوامر الشريعة التي جاءت لحفظ مصالح الخلق ورعايتها، وتضيف هذه الأوامر وترتيبها بحسب أهميتها ومعرفة موقع مايتعلق بالجمال منها وقد كفانا علماء الأصول مؤنة البحث حيث قاموا بعمليات استقرائية استطاعوا بعدها أن يضعوا النقاط على الحروف.

وقد قرر هؤلاء العلماء: أن الشريعة جاءت لحفظ مقاصد بها قوام الخلق وتحقيق مصالحهم. وتنقسم هذه المقاصد إلى ثلاثة أقسام مرتبة الأهم فالمهم:

الضروريات.

الحاجيات.

التحسينات.

ويعدُّ كل قسم فيها كاملاً والمتمم لما سبقه^(١).

ونتساءل بالنسبة «للجمال» أين مكانه؟ وإلى أي قسم ينتمي؟.

ولنترك الكلام للإمام الغزالي يحدد لنا ذلك، بأسلوبه البليغ إذ اعتمد على

(١) فضل الإمام الشاطبي (المتوفى ٧٩٠هـ) هذا البحث في كتابه «الموافقات» ج ٢ ص ٣ وما بعدها.

ونلخص الخطوط العريضة بإيجاز:

قال - رحمه الله - : «تكاليف الشريعة ترجع إلى حفظ مقاصدها في الخلق، وهذه المقاصد لاتعدو ثلاثة أقسام، أحدها: أن تكون ضرورية، والثاني: أن تكون حاجية، والثالث: أن تكون تحسينية.

فأما الضرورية: فمعناها أنها لا بد منها في قيام مصالح الدين والدنيا، بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة. . وفي الأخرى فوت النجاة.

ومجموع الضروريات خمسة هي: حفظ الدين والنفس والنسل والمال والعقل.

وأما الحاجيات فمعناها أنها مفتقر إليها من حيث التوسعة ورفع الضيق المؤدي في الغالب إلى الحرج والمشقة. . وهي جارية في العبادات والعادات والمعاملات.

وأما التحسينات فمعناها الأخذ بما يليق من محاسن العادات وتجنب الأحوال المدنسات التي تأنفها العقول الراجحات. . . وهي جارية فيما جرت فيه الأوليات من العبادات والعادات والمعاملات. . .».

الأمثلة باعتبارها أكثر بياناً من القواعد. فقال :
«ومثال الضروري من الأعضاء : الرأس والقلب الكبد .
ومثال المحتاج إليه : العين واليد والرجل .
ومثال الزينة : استقواس الجاجبين وحمرة الشفتين وتلون العينين إلى غير ذلك
مما لو فات لم تنخرم به حاجة ولا ضرورة .
ومثال الضروري من النعم - الخارجة عن بدن الإنسان - : الماء والغذاء .
ومثال الحاجة : الدواء واللحم والفواكه .
ومثال المزايا والزوائد : خضرة الأشجار وحسن أشكال الأنوار والأزهار ولذائد
الفواكه والأطعمة التي لا تنخرم بعدمها حاجة ولا ضرورة^(١) .»

(١) إحياء علوم الدين ٤/ ٣٠٣ .

ما قيل من الشعر والنثر في الجمال وحسن الوجوه

يعتبر الشعر ديوان العرب ، وفخر حياتهم ، ورمز شجونهم وهو الذي ترتاح له القلوب بعد القرآن والحديث الشريف وتجذل به النفوس ، وتصغي إليه الأسماع ، وتشحن به الأذهان ، وتحفظ به الآثار وتقيد به الأخبار واللسان هو المخبر عن الفؤاد .

وإذا ترك الإنسان القول ماتت خواطره . .

فإليك ، ما ورد عن العرب في هذا الباب :

* قال الفرزدق : [البحر الكامل] .

إن المهالبة الكرام تحملوا دفع المكاره عن ذوي المكروه زانوا قديمهم بحسن دريتهم وكريم أخلاق بحسن وجوه^(١) .

* وقال عمر بن بي [البحر البسيط] .

آل المهلب قوم خولوا شرفاً ماناله عربي لها ولها كادا
لو قيل للمجد جدّ عنهم وحلّهم بما احتكمت من الدنيا لما حادا
إن المكارم أرواح يكون لها آل المهلب دون الناس أجساداً
إن العرانيين تلقاها محسدة ولا ترى للناس حساداً^(٢)

* وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه يوم السقيفة للأنصار :

نحن المهاجرون أول الناس إسلاماً ، أوسطهم داراً ، وأكرمهم أحساباً ،

(١) انظر ديوان الفرزدق وعيون الأخبار ٣٤٢/١ والمهالبة : جمع مهلي نسبة إلى القائد المهلب بن

أبي صفرة وكان من أشجع الناس وهو الذي حمى البصرة من الخوارج .

(٢) انظر الأمايلي للقالبي ص : ٤١ .

أحسنهم وجوهاً، وأمسهم برسول الله ﷺ رحماً. أسلمنا قبلكم وقُدمنا في القرآن عليكم^(١).

* وقال محرز الضبي [من البحر الطويل]:

كأن دنا نيراً على قسائمهم وإن كان قد شَفَّ الوجوه لقاء
وجوه لو أن المعتنفين^(٢) سَرَوْا بها صد عن الدُّجى حتى يُرى الليل يُنجلي

* وقال أبو الطحان القيني: [البحر الطويل]:

فكم فيهم من سيد وابن سيّد وفي بعقد الخارجين نُفارقُهُ
يكاد الغمام الغريرُ غُدُّ أن رأى وُجُوه بني لام^(٣) ونَهَلْ بارقُهُ
* وقال أيضاً:

فإني من القوم الذين هُم هُم إذا مات منهم سيّد قام صاحبه
كواكبٌ مجد كلما غار كوكبٌ بدا كوكب تأوي إليه كواكبه
أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم دُجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه
وما زال منهم حيث كان مَسَوْدُ تسير المنايا حيث سار تائبه^(٤)
* وقال الخريمي [البحر الطويل]:

إذا قمر منها تغوّر أو خبأ بدأ قمرٌ في جانب الأفق يلمع
* وقال الحارث بن دوس الأيادي [البحر الرمل]:

ورجالٌ حُسْنٌ أَوْجُهُهُم من إياد بن نزار بن معد
* وقال منصور النمري:

إن المكارم والمعروف أودية أدلك الله منها حيث تجتمعُ

(١) انظر تاريخ الأمم والملوك للطبري ٢٠١/٣ - ٢٠٥، والبيان للجاحظ ٢٩٧/٣.

(٢) طالبوا المعروف.

(٣) بنو لام: من عمرو بن طريق من طيء.

(٤) انظر: أمالي المرتضى (١٨٦/١) الأغاني (١٣٢/١١) وعيون الأخبار (٢٤/٤) وفي معاني العسكري أنه أمدح بيت قالته العرب.

* وقال الأعشى [البحر الخفيف]:

فيهم الخصبُ والساحاة والنجم
وأبيون لايسامون ضيماً
وترى مجلساً يغضُّ به المحرابُ
وقال أيضاً: [البحر الكامل]:

جلسوا مجلسهم على أحلامهم
وإذا اللقاح تروحت بعشيها
وترى القدر كأنها حبشية
حبسوا على أضيافهم فشووا لهم
والدهر نميرٌ ذلك يابنة مالكٍ
* كان يقال: أربعة تزيد في البصر:

النظر إلى الوجه الحسن [المباح] وإلى الخضرة، وإلى الماء الجاري، والنظر في المصحف.

* دخل الشعبي سوق الرقيق، فقليل له: هل من حاجة؟ فقال: حاجتي صورة حسنة يتنعم فيها طرُفي، ويلتذُّ بها قلبي، وتعيني على عبادة ربي.
* أدام إبراهيم النظام النظر إلى جارية حسناء، فقال مولاها:
أراك تديم النظر إليها، فقال: مالي لا أتأمل منها ما أحل الله، وفيه دليل على كلمة صنعة الله، ومعه اشتياق إلى ما وعد الله.

* وقال الحسن البصري: ينبغي للوجه الحسن ألا يشين وجهه بقبیح فعله، وينبغي لقبیح الوجه ألا يجمع بين قبيحين قال الشاعر:

إنَّ حُسْنَ الوجه يحتاجُ إلى حُسْنِ فِعَالٍ
حاجة الصادي من الماء إلى العذب الزلال

* وقال عبدالله بن سليمان النحوي الأزدي السجستاني المكفوف :
 تقول من للعمى بالحسن قلتُ لها كفى عن الله في تحقيقه الخبر
 القلبُ يُدرك ما لا عين تدركُهُ والحسنُ ما استحسنته النفس بالبصر
 وما العيون التي تعمى إذا نظرت بل القلوبُ التي يعمى بها النظرُ
 * قال عقيل بن علفة : لأن ينظر إلى ابنتي مائة رجل خيرٌ من أن تنظر هي إلى رجل واحد .

* وقال محمود الوراق :
 من أطلق الطَّرفَ اجتتنى شهوةً وحارسُ الشهوة غض البصر
 والطرف للقلب لسانٌ فإن أرادَ نطقاً فليكرَّ النَّظر
 يُفهم بالعين عن العين ما في الـ قلب من مكنون خير وشر
 يطوي لسان المرء أخباره والطرف لا يملك طي الخبر
 * وقال النابغة يمدح بعض الملوك :
 بأنك شمسُ والملوك كواكب إذا طَلَعَتْ لم يَدُ منهمْ كوكبُ
 * وقال آخر :

لا تَكْتَرَنَّ تأملاً
 فلرُبَّما أرسلته
 * ومن أمثال العرب في الجمال :
 - وهل يخفى القمر؟ .

* وقال ذو الرُّمة :
 وقد بهرت فما تخفى على أحدٍ إلى على أحدٍ لا يعرف القمر
 * ليس الجمال في الثياب^(١) .

(١) مجمع الأمثال للميداني (٢/٢٥٧) .

* وقال الشاعر معدي كرب :

ليس الجمال بمئزر فاعلم وإن رُدِيت بُرداً
إن الجمال معادن ومناقب أورثن حمداً
* أرين حسناً أركه سميناً .

يقولون : قال رجل لرجل : أرني حسناً ، فقال : أريكه سميناً ، يعني أن الحسن في السمن ، وهذا كقولهم : قيل للشحم : أين تذهب ؟ قال : أقوم المعوج .
* الرقيقُ جمال وليس بهال .

وهذا كما قالوا : اشتر الموتان . ولا تشتري الحيوان .

* جمالكَ . أي ألزم مايورثُكَ الجمال ، يعني أجمل ولا تفعل مايشينك .
* أجمل من ذي العمامة : هذا مثل من أمثال أهل مكة ، وذو العمامة : سعيد بن العاص بن أمية ، وكان في الجاهلية إذا لبس عمامة لا يلبس فرشي عمامة على لونها ، وإذا خرج لم تبق امرأة إلا برزت للنظر إليه من جماله .
* أجمل من البدن .

* أجمل من رعاية الذمام .

* أحسن من بدر الدجى .

* لن تعدم الحسناء ذاماً .

* من ينكح الحسناء يُعْط مهرها .

* الحُسْنُ أحمر . والمعنى إن الحُسْنَ في الحُمْرَة . وقال الأزهري : الأحمر الأبيض ، والعرب تُسمي الموالي من عجم الفرس والروم «الحمر» لغلبة البياض على ألوانهم ، وكانت عائشة رضي الله عنها تُسمى «الحمراء» لغلبة البياض على لونها .
* إن من الحُسْن شِقْوَة ، وذلك أن الرجل ينظر إلى حسنه ، فيختال فيعدوا طوره ، فيشقيه ذلك ، ويبغضه إلى الناس .
* التحسُّن خير من الحُسْن .

- * البياض نصف الحُسْنِ .
- * عليه من الله إصْبِعَ حَسَن . أي أثر حسن .
- * أَحْسَن من الدر .
- * أَحْسَن من الدنيا المقبلة .
- * أَحْسَن من الطَّائِيس ، ومن سوق العروس ، ومن زمن البرامكة ، ومن الدنيا المقبلة ، ومن الشمس والقمر ، ومن الدُّر والديك .
- * أْحَار من حياة مُعَادَة ، ومن نيل المُنى ، ومن النشب ، ومن الولد ، ومن العسل .
- * أَحْسَنُ من بَيْضِه في رَوْضَة . العرب تستحسن نقاء البيضة في نضارة خُضْرَة الروضة(*) .

(*) انظر في هذه الأمثال : مجمع الأمثال للميداني ، كتاب الأمثال للقاسم بن سلام ، وكتاب الدرّة الفاخرة لحمزة الأصفهاني وكتاب جمرة الأمثال للعسكري .

ما قيل من الخاطر العاطر في الجمال :

* الجمال والفضيلة :

* الجمال الذي لافضيلة معه كالزهر الذي لارائحة، فيه .

* حسن الخُلُق يستر كثيراً من السيئات . كما أن سوء الخلق يغطي كثيراً من الحسنات .

* جمال الحياة :

من عرف ربه رأى كل مافي الحياة جميلاً .

* ثلاث هنّ من خلق المؤمن :

١ - الإغضاء عن الزلة .

٢ - والعفو عند المقدرة .

٣ - نجدة الصديق مع ضيق ذات اليد .

* من أوتي حسن الخُلُق لاعليه مافاته من الدنيا .

* الحُسْن مرحوم .

* جمال الصورة وجمال النفس . لا يأسرني جمال الصورة كما يأسرني جمال النفس

في الإنسان ، ولا يستهويني جمال اللون كما يستهويني جمال العبير في النبات وتؤنسني وداعة الحيوان ، وتعجبني قوته .

* أنواع الجمال :

جمال الروح يهوّن عليك المصائب ، وجمال النفس يسهّل عليك المطالب ،

وجمال العقل يحقق لك المكاسب ، وجمال الشكل يسبّب لك المتاعب .

* مسابقات ملكات الجمال :

من أبرز مظاهر مكر الحضارة الغربية بالمرأة ابتداعها مسابقات ملكات

الجمال، وملكات الأناقة، وملكات الإغراء، وملكات لانهاية للمالكهن الوهمية .
* هل في ذلك إلا دليل على رغبة الرجل الغربي في الاستمتاع بأنوثة المرأة فقط،
ودليل على أن المرأة عندهم لا تهمها كرامتها بقدر ما يهتمها لفت الأنظار إلى جمالها
وأنوثتها .

* هذه المسابقة مصيدة .

* مسابقات ملكات الجمال مناسبة لاستمتاع رجال التحكيم والمتفرجين بأجسام
الفتيات المتسابقات تحت ستار مشروع في رأي هذه الحضارة الزائفة كما هو مناسبة
لاصطياد الأزواج للفتيات يخشين أن يصبحن كاسدات .

* مسابقات ملكات الجمال رقية الساحر الماكر لاستخراج الفتيات من بيوت
آبائهن إلى حيث يصبحن تحت سلطته وتصرفه .

* ألتقت فتاة جميلة عاقلة، مع فتاة جميلة دخلت مسابقة ملكات الجمال فقالت
هذه لتلك بغيرور ساذج: لقد صرت مشهورة تنشر الصحف صوري وتنقل
وكالات الأنباء أخباري .

فقالت الأخرى: إن اللوحة الفنية التي لم تلمسها الأيدي أغلى ثمنًا وأبلغ لفتًا
للأنظار من التي لمستها الأيدي حتى غيّرت روعة ألوانها الطبيعية .

* ملكات الجمال ينسين بعد أيام، ولكن العلامات والعفيفات والمخترعات
والأمهات اللاتي ولدن عظماء التاريخ، سيظل يذكرهن التاريخ مابقي إنسان يقرأ
التاريخ .

* جمال الحياة: أن ترضى عما أنت فيه، ويرضى العقلاء عما أنت عليه .

* بم يحلو الجمال . لا يحلو الجمال إلا بثلاث :

١ - صيانة عن الابتذال .

٢ - ومودة للأطهار .

٣ - وعفة مع الفجار^(١).

* عن مسلم ابن صبيح الكوفي قال : سمعت أبي يقول : خطب المغيرة بن شعبة وفتى من العرب امرأة ، وكان الفتى طريراً جميلاً ، فأرسلت إليهما المرأة فقالت : إنكما خطبتماي ولست أجيب أحد منكما دون أن أراه وأسمع كلامه ، فأحضرا إن شئتما ، فحضرا فأجلستهما بحيث تراهما وتسمع كلامهما ، فلما رآه المغيرة ونظر إلى جماله وشبابه وهيبته يثس منها ، وعلم أنها لن تؤثره عليه ، فأقبل على الفتى فقال له : لقد أوتيت جمالاً وحسناً وبيانا ، فهل عندك سوى ذلك ؟ قال : نعم . فعدد محاسنه ثم سكت ، فقال له المغيرة : كيف حسابك ؟ قال مايسقط عليّ منه شيء وإني لأستدرك منه أدق من الخردلة . فقال له المغيرة : لكنني أضع البدرة في زاوية البيت فينفقها أهلي على مايريدون فما أعلم بنفادها حتى يسألوني غيرها ، فقالت المرأة : والله لهذا الشيخ الذي لا يحاسبني أحب إليّ من هذا الذي يحصي عليّ مثل صغير الخردل ، فتزوجت المغيرة .

حقيقة الجمال:

هل للجمال حقيقة قائمة موجودة؟ أم هو مجرد شعور نفسي تجاه شيء ما . وهذا الشيء لا يوصف بجمال ولا قبح ، وإنما شعورنا هو الذي جعله كذلك . وعلى هذا لا يوجد شيء جميل أو قبيح لذاته .

وماكانت القضية تحتاج كبير اهتمام لولا أن بعضهم ذهب إلى الرأي الثاني . الأمر الذي يفضي إلى عدم استقرار المفاهيم ، فما كان في نظرك حسناً ربما كان في نظر غيرك قبيحاً . ذلك أن الشيء أو الفعل - حسب رأيهم - ليس فيه قبح ولا حسن لذاته .

والقرآن الكريم رتب الآثار على رؤية الجمال وجعلها عامة ، فقال في وصف البقرة تسر الناظرين ﴿ . و «الناظرين» تشمل كل ناظر . فلو لم يكن الجمال قائماً

(١) انظر كتاب هكذا علمتني الحياة للدكتور/ مصطفى السباعي رحمه الله .

موجوداً فيها لما كان السرور عاماً يتناول كل من رآها .

وفي وصف الجنة : ﴿ وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ﴾ . جعل اللذة لكل عين يتاح لها الرؤية . . وهكذا فلو لم يكن الجمال مستقراً فيها لكانت هي وغيرها سواء ولكانت اللذة لبعض الأعين .

وقد تكلم الإمام الغزالي في هذه القضية ، ولم يستوقفه وجود الجمال في المحسوسات فتلك بدهية لا تحتاج إلى برهان ولكنه انصرف إلى تقرير وجود الجمال في غير المحسوسات أيضاً فقال : « فاعلم أن الحسن والجمال موجود في غير المحسوسات ، إذ يقال : هذا خلق حسن ، وهذا علم حسن ، وهذه سيرة حسنة وهذه أخلاق جميلة . . »^(١) .

ولنستمع إلى ابن القيم يدلي برأيه في هذه القضية : قال رحمه الله : « وهذا فصل في ذكر حقيقة الحسن والجمال ماهي ؟ وهذا أمر لا يدرك إلا بالوصف . . . وقيل : الحسن معنى لا تناله العبارة ولا يحيط به الوصف »^(٢) .
إنه يقرر وجود الحسن ، وهذا أمر لا شك فيه ، ولكنه يلفت النظر إلى وسيلة إدراكه . . وهذا الإدراك قد يكون الوصف وسيلة له ، وقد يدق بعض الأحيان فيستعصي على العبارة . . ولكنه موجود .

وقد اهتم علماء المسلمين في وقت مبكر بهذه المسألة ، والتي عرفت في علم أصول الفقه باسم « مسألة التحسين والتقبيح » ، ونحن هنا لسنا أمام آراء فردية وإنما أمام آراء مدرسية . ويحسن بنا أن نلخص هذه المسألة بقول موجز^(٣) .
والمسألة هنا تتعلق بالأفعال فقط ، ولا تتناول الأشياء ، ولكنها مع ذلك تناقش أصل المسألة وهي قضية الحسن الذاتي والقبح الذاتي .

(١) إحياء علوم الدين ٤ / ٢٩٩ .

(٢) روضة المحبين : ص ٢٣٢ .

(٣) نلخص هذا الموضوع من كتاب : « مدارج السالكين » لابن القيم رحمه الله . ١ / ٢٣٠ وما بعدها ، وشفاء العليل ص : ٣٩١ - ٤٣٤ .

ومحور المسألة هو:

هل الأفعال منقسمة في الأصل إلى : حسن وقبيح . أي أن الحسن والقبح ذاتي فيها؟ أم أنها غير منقسمة إلى حسن وقبيح ، وأن الحسن والقبح جاءها من الأمر والنهي الوارد بالشرع ، وفي الأصل هي سواء؟
ونستطيع أن نقول : هناك ثلاثة مذاهب .

* ذهب «القدرية» إلى أن الأفعال كلها سواء ، ولا أثر للعقل في التحسين والتقييح ومرجع ذلك إلى الشرع .

قال ابن القيم : «وقد بينا بطلان هذا المذهب من ستين وجهاً . فإن هذا المذهب ، بعد تصوره وتصور لوازمه ، يجزم العقل ببطلانه . وقد دل القرآن على فساده في غير موضع . والفطرة وصريح العقل» .
ونقتطف فقرة من كلامه في مناقشة هذا الرأي :

* «إن الله سبحانه فطر عباده على استحسان الصدق والعدل ، والعفة والإحسان ، ومقابلة النعم بالشكر ، وفطرهم على استقباح أصدادها ، ونسبة هذا إلى فطرهم وعقولهم كنسبة الحلو والحامض إلى أذواقهم ، وكنسبة رائحة المسك ورائحة التبن إلى مشامهم وكنسبة الصوت اللذيذ وضده إلى أسماعهم ، وكذلك كل ما يدركونه بمشاعرهم الظاهرة والباطنة ، فيفرقون بين طيبه وخبيثه ، ونافعه وضاره» .

* وذهب المعتزلة إلى أن قبح الأفعال والعقاب عليها ثابتان بالعقل .
وقد بين ابن القيم غلط المعتزلة في قولهم بتلازم الأمرين أي القبح والعقاب وبرهن على غلطهم بأدلة من القرآن الكريم منها قوله تعالى : ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾^(١) .

(١) سورة الإسراء : ١٥ .

* وذهب الكثير من الفقهاء من الطوائف الأربع^(١) إلى القول بأن حسن الأفعال وقبحها ثابت بالعقل ، والثواب والعقاب متوقف على ورود الشرع .

ويؤيد ابن القيم هذا القول ويبين حججه وأدلته . . .

ونخلص من هذا كله إلى أن الغالبية العظمى من أهل السنة وكذلك المعتزلة متفقون على أن الحسن والقبح يثبتان بالعقل . وهذا يعني أن الحسن حقيقة قائمة في ذات الشيء ، ولهذا استطاع العقل الاهتداء إليها .

وإذن فالجمال له حقيقة ، وهذه الحقيقة تظهر من خلال «موجود» تكون صفة له ، قد يكون هذا الموجود شيئاً وقد يكون فعلاً . وعلى هذا لن يختلف المشاهدون على وجود الجمال في أمر جميل ، وإن كانوا قد يختلفون تبعاً لشعورهم على درجة ذلك الجمال . فيكون استشعاره وقوة تأثيره لدى إنسان أكبر منها لدى إنسان آخر . قال الإمام ابن حزم : «إن الشيء يتضاعف حسنه في عين مستحسنيه»^(٢) . فأكد بذلك أن الشعور يرفع درجة الحسن ولكنه لا يوجد إذا كان معدوماً .

وإذا كان الجمال حقيقة ، فما هي وسيلة إدراك هذه الحقيقة؟ وكيف يمكننا التعرف عليها :

ونكتفي في إيضاح هذا الجانب بنقل رأي الإمام الغزالي حيث قال :

«والصورة ظاهرة وباطنة ، والحسن والجمال يشملهما .

وتدرك الصور الظاهرة بالبصر الظاهر .

والصور الباطنة بالبصيرة الباطنة»^(٣) .

ويعطينا أمثلة لمدرجات الحواس فيقول : «فلذة العين في الإبصار وإدراك

المبصرات الجميلة والصور المليحة الحسنة . . ، ولذة الأذن في النغمات الطيبة

(١) هم أتباع المذاهب الفقهية : المالكية ، والشافعية ، والحنفية والحنابلة .

(٢) نوادر الإمام ابن حزم . خرجها أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري . السفر الأول . ص ١٤٢ .

(٣) إحياء علوم الدين ٣٠٠ / ٤ .

الموزونة، ولذة الشم في الروائح الطيبة، ولذة الذوق في الطعوم ولذة اللمس في اللين والنعومة»^(١).

«وجمال المعاني المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للأبصار»^(٢).
وهكذا يبين أن إدراك المحسوسات بالحواس، وإدراك المعاني بالعقل.

(١) المصدر نفسه ٢٩٦/٤.

(٢) المصدر نفسه ٢٩٧/٤.

الجمال والقيم

الحق والخير والجمال، . . . إنها حقائق في هذا الوجود . . . وإنها قيم .
وهذا لا يعني أنها في لقاء دائم وأن بعضها لا يفارق بعضها الآخر . وإنما يعني بيان مستوى أهميتها في هذه الحياة .

فالجمال له شخصيته المستقلة في التصور الإسلامي . وهذا لا ينفي لقاءه مع الحق والخير، ولكنه أيضاً لا ينفي وجوده في مجالات لاحق فيها ولاخير .
وبناء على خاصية الشمول - التي سيأتي الحديث عنها - فإن الحق والخير هما من الميادين التي للجمال فيها كلمة ورأي .

فالخير خير، ولكنه إذا زين بالجمال كان أقرب إلى الكمال .
والحق حق ولكنه إذا زين بالجمال كان أدق في تحقيق العدل .
فالأمر بالمعروف خير، ولكنه إذا كان بأسلوب مهذب، بعيداً عن الفظاظ والغلظة، أي كان بالمعروف، . . . كان أقرب إلى تحقيق الجدوى . . . لأنه في هذه الحالة أجهل .

والصدقة على الفقير المحتاج خير ولكنها إذا كانت على طريقة علي زين العابدين^(١) رحمه الله كانت خيراً وجمالاً .

وقد يوجد الجمال حيث لا يوجد الخير وقد أشار القرآن الكريم إلى مثال على ذلك بقوله : ﴿وَلَأَمَّهُ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾^(٢)، فقد وجد الجمال هنا لدى المشركة ولكنه لم يوجد الخير .

وهكذا . . . فللجمال كيانه المستقل وصادقاته الحميمة . . .

(١) يروي عنه أنه كان يكرم السائل ويقول له : أهلاً بمن يحمل زادنا إلى الآخرة .

(٢) سورة البقرة : ٢٢١ .

ميادين جمالية أتى بها الاسلام

مما سبق يتبين لنا أن الظاهرة الجمالية قائمة في كيان التصور الإسلامي ، ولذا فهي عامة شاملة . ولا أدلّ على عمومها من أن القرآن الكريم أدخل الجمال إلى مجالات لا عهد للناس برؤيته في ميادينها ، وذلك إما لعدم التوافق بينه وبينها - فيما يبدو لأول وهلة - أو لاختلاف في طبيعة كل منها عن الآخر ، فيما يخيّل للمتأمل .

ويحسن بنا أن نمعن النظر في هذه المواطن :

(١) ميدان الصبر:

فقد جاء موصوفاً بالجمال ثلاث مرات في كتاب الله تعالى ، منها ثنتان في سورة يوسف ، وردتا في سياق النصين التاليين :

﴿ قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنّا له لناصحون . أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنّا له لحافظون . قال إني ليحزنني أن تذهبوا به ، وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون . قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنّنا إذا لخاسرون . فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب وأوحينا إليه لتنبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون . وجاؤوا أباهم عشاء يبكون . قالوا يا أبانا إنّنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنّا صادقين . وجاؤوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ﴾^(١) .

﴿ . . . يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين . واسأل القرية التي كنّا فيها والعرير التي أقبلنا فيها وإنّا لصادقون . قال بل سولت

(١) سورة يوسف : ١١ - ١٨ .

لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً إنه هو العليم الحكيم ﴿١﴾.

في النص الأول نجد الأب العطوف يفقد ابنه، الحبيب إلى قلبه، العزيز على نفسه، يفقده في حالة متعمدة، للغدر والخيانة دور كبير فيها، وهو غير قادر على أي تصرف أو قيام بعمل. فالأمر مدبر محبوك الأطراف. . فلجأ إلى الصبر. والصبر عمل نفسي محض^(٢)، لا يشارك فيه أحد أحداً، إنه تماسك يقوم داخل النفس حتى لا تنهار أمام المصيبة أو الكارثة، إنه انتقال من حال الجزع والضعف والخور إلى تماسك وتجلد، ومن حزن يفقد الإنسان صوابه إلى حزن مع الرضى بقضاء الله تعالى.

وهكذا كان الصبر في هذه الحال هو وسيلة التجميل، إذ به يكون الموقف الأحسن والأجدي.

وفي النص الثاني، نشاهد يعقوب عليه السلام، وقد فقد ولده الثاني، إنه في حال لا تقل كآبة عن الحال الأولى. إنه يشعر وكأن المرحلة الثانية من القصة متممة للأولى. . ولكن الثانية أعادت ذكريات الأولى. فاشتد الأمر وعادت الجروح تنزف من جديد. . ثم لا يجد ملاذاً غير الصبر، فهو الموقف «الجميل» من بين جميع المواقف المحتملة في هذا الموضع، إذ الهلع والذعر لن يرداً غائباً أو يسترجعا مفقوداً، ولكنها يضعفان القدرة على التحمل والثبات في مواجهة الصعاب.

ويستكمل الصبر جماله - في الموقفين - بعدم اليأس من رحمة الله تعالى وهو ماعبر عنه يعقوب بقوله: ﴿عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً﴾.

إن الجمال يدخل ميداناً جديداً. ولكنه في وضع يتناسب فيه مع الموقف،

(١) سورة يوسف: ٨١ - ٨٣.

(٢) هذا لا ينفي أن يكون له أثر مادي.

والانسجام والتوافق من سمات الجمال. «فالجمال البائس» جميل في مواطن الأسى والحزن، و«الجمال الضاحك» جميل في مواطن الفرح والسرور. ولو وضع الواحد منهما مكان الآخر لما كان جمالاً بل سهاجة وقبحاً.

وللصبر مجالات كثيرة متعددة، ولذا يضع القرآن الكريم أمامنا موقفاً آخر^(١) من مواقف الصبر الجميل، التي يكون فيها أكثر فاعليةً وأبعد أثراً.

إنه الصبر في مجال الدعوة إلى الله، حيث الحاجة إلى الكثير الكثير من التحمل والجلد والثبات والاستمرار، الحاجة إلى الحلم وسعة الصدر كما هي الحاجة إلى تحمل الإيذاء مادة ومعنى. وفي هذا الصدد ورد قوله تعالى خطاباً لرسوله ﷺ: ﴿فاصبر صبراً جميلاً﴾^(٢).

إن الصبر في الحالة الأولى - في قصة يعقوب - عمل سلبي يرأب الصدع الذي حصل ولكنه هنا دفعة من القوة النفسية تجعل للإنسان قدرة أكبر على مواصلة السير ومتابعة الطريق إنه عمل نفسي أيضاً ولكنه إيجابي^(٣) وكونه جميلاً يساعد على أن تكون النفس في وضع صحيح.

ونحن إذا نظرنا إلى الحياة، نظرة عملية، وجدنا أن المشاق تشغل مساحة غير صغيرة منها، وللتغلب على هذه المشاق وتحملها نحتاج إلى الصبر، وإنه وفقاً

(١) وهو ثالث المواطن التي وصف فيها الصبر بالجمال في القرآن الكريم.

(٢) سورة المعارج: ٥.

(٣) قال الإمام الغزالي في أنواع الصبر:

«اعلم أن الصبر ضربان:

أحدهما: ضرب بدني كتحمل المشاق بالبدن والثبات عليها. وهو إما بالفعل كتعاطي الأعمال الشاقة. وإما بالاحتمال كالصبر على الضرب الشديد والمرض العظيم والجرحات الهائلة. وذلك قد يكون محموداً إذا وافق الشرع.

ولكن المحمود التام، هو الضرب الآخر. وهو الصبر النفسي. . .» أ. هـ.

إحياء علوم الدين ٤/٦٦-٦٧ ط دار المعارف بيروت.

لعموم الظاهرة الجمالية، فإن تَرَكَ هذا الميدان يعني ترك مساحة كبيرة دون تغطية، والإسلام يحمل الخير والجمال لهذا الإنسان في كل حالاته، ولذا لم يترك هذا الجانب دون أن يزينه بجماله . . فكان الصبر الجميل .

٢ - ميدان الدعوة إلى الله :

قال تعالى : ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً﴾ . ومعنى الآية : أنه لا أحد أحسن قولاً ممن دعا إلى الله .

إنه تجلّد وأمل ، إنه اطمئنان نفسي . وصبر على أذى الناس .
فالدعوة إلى الله هي طريق الأنبياء والصالحين . وقد قال النبي ﷺ فيها أخرجه الإمام البخاري بصحيحه لعلي بن أبي طالب : لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم .

٣ - ميدان هجر العاصي..

فقد هجر النبي ﷺ الثلاثة الذين خُلِفُوا عن معركة تبوك .

٤ - ميدان التوكل على الله..

ميدان التوكل على الله . . وهو ميدان يفسح النفس ويقرب الأمل والرجاء : ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ .

٥ - ميدان الصبر على القضاء..

فمن لم يرض بالقضاء لم يهنأ له عيش .

٦ - ميدان الرحمة:

وهو ميدان يدخل في النفس الإنسانية الراحة والتواضع والاهتمام بالآخرين وقد قال الله تعالى عن نبيه محمد ﷺ . . . ﴿... بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ . سورة التوبة .

وقال ﷺ : «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء» . حديث صحيح رواه أصحاب الصحاح .

٧ - ميدان العدل:

الذي هو أساس الحب والسلام في الأرض كما قال تعالى: ﴿اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾ .

٨ - ميدان الاعتصام بالكتاب والسنة والابتعاد عن سفاسف الأمور.. وغيرها من الميادين الإسلامية .

ولا أريد أن أطيل في هذه المقدمة كثيراً . والله المستعان .

بسم الله الرحمن الرحيم

ترجمة موجزة لابن تيمية

(١) اسمه:

هو شيخ الإسلام أبو العباس : أحمد بن عبدالحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن محمد بن الخضر، بن علي بن عبد الله بن تيمية الحراني ثم الدمشقي . وتيمية هي والدته جده الأعلى (محمد) . وكانت واعظة راوية .

(٢) مولده ووفاته:

ولد يوم الاثنين العاشر من ربيع الأول، بحران سنة ٦٦١ هـ ولما بلغ من العمر سبع سنوات انتقل مع والده إلى دمشق، هرباً من وجه الغزاة التتار، وتوفي ليلة الإثنين العشرين من ذي القعدة سنة (٧٢٨) وعمره (٦٧) سنة وهو مسجون بسجن القلعة بدمشق وحضر جنازته جمهور كبير جداً يفوق العدد رحمه الله .

(٣) نشأته:

نشأ في بيت علم وفقه ودين، فأبوه وأجداده، وإخوانه وكثير من أعمامه كانوا من العلماء المشاهير، منهم جده الأعلى (الرابع) محمد بن الخضر، ومنهم عبدالحليم بن محمد بن تيمية، وعبد الغني بن محمد بن تيمية، وجده الأدنى عبد السلام بن عبد الله بن تيمية مجد الدين أبو البركات صاحب التصانيف التي منها: المنتقى من أحاديث الأحكام وقد قام الشوكاني بشرحه في كتابه «نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار»، والمجرد في الفقه، والمسودة في الأصول وغيرها، وكذلك أبوه وأخوه عبدالحمن وغيرهم . ففي هذه البيئة العلمية الصالحة كانت نشأة صاحب الترجمة وقد بدأ بطلب العلم أولاً على والده وعلماء بلاده، فحفظ القرآن وهو صغير، ودرس الحديث والفقه والأصول والتفسير، وعرف بالذكاء وقوة الحفظ

والنجابة منذ صغره، ثم توسع في دراسة العلوم وتبحر فيها، واجتمعت فيه صفات المجتهد واعترف له بذلك الداني والقاصي والقريب والبعيد وعلماء عصره.

(٤) خصاله:

تميّز شيخ الإسلام ابن تيمية بالإضافة إلى العلم والفقه في الدين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بخصال حميدة، فكان سخيّاً كريماً، كثير العبارة والذكر وقراءة القرآن، وكان ورعاً زاهداً متواضعاً، ومع ذلك فقد كانت له هيبة عند السلطان وقصته مع سلطان التتار معروفة، كما عُرف رحمه الله بالصبر وقوة الاحتمال في سبيل الله.

(٥) جهاده:

جاهد شيخ الإسلام فارس المعقول والمنقول في الله حق جهاده، فقد جاهد بالسيف وحرّض المسلمين على القتال بالقول والعمل، فقد كان يصول ويجول بسيفه في ساحات الوغى مع أعظم الفرسان والشجعان، والذين شاهدوه في القتال أثناء فتح عكا عجبوا من شجاعته وفتكه بالأعداء.

وقد قام بالدفاع عن دمشق عندما غزاها التتار، وحاربهم عند شقحب - جنوبي دمشق - وكتب الله هزيمة التتار، وبهذه المعركة سلمت بلاد الشام وفلسطين ومصر والحجاز.

وطلب من الحكام متابعة الجهاد لإبادة أعداء الأمة الذين كانوا عوناً للغزاة، فأجج ذلك عليه حقد الحكام وحسد العلماء والأقران، ودس المنافقين والفجار، فناله الأذى والسجن والنفي والتعذيب، فما لأن ولا خضع. وكانت كلمته المشهورة:

ما يصنع أعدائي بي؟! أنا جنّتي وبستاني في صدري أني رحت، فهي معي لاتفارقني، أنا حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة، وكان

يقول في سجنه : المحبوس من حُبس قلبه عن ربه ، والمأسور من أسره هواه .
أما جهاده بالقلم واللسان فإنه رحمه الله وقف أمام أعداء الإسلام من أصحاب الملل والنحل والفرق والمذاهب الباطلة والبدع كالطود الشامخ ، فقد تصدى للفلاسفة ، والباطنية ، من صوفية ، وإسماعيلية ونصيرية وروافض ، كما تصدى للملاحدة والجهمية والمعتزلة والأشاعرة ، ولاتزال بحمد الله ردود الشيخ سلاطناً فعالاً ضد أعداء هذا الدين العظيم على مر الدوام وذلك لأنها إنما تستند على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وهدى السلف الصالح ، مع قوة الاستنباط ، وقوة الاستدلال والاحتجاج الشرعي والعقلي ، وسعة العلم ، التي وهبها الله له ، ولاتزال ردود الشيخ وكتبه هي أقوى سلاح بعد كتاب الله وسنة رسوله ﷺ للتصدي لهذه الفرق الضالة والمذاهب الهدامة التي راجت اليوم وهي امتداد للماضي ، وغيّرت أسماءها فقط مثل البعثية ، والاشتراكية ، والقومية والبهائية والقاديانية وغيرها من الفرق .

(٦) عصره :

لقد عاش المؤلف شيخ الإسلام في عصر كثرت فيه البدع والضلالات ، وسادت كثير من المذاهب الباطلة ، وانتشر الجهل والتعصب والتقليد الأعمى ، وبدأ التتار في غزو العالم الإسلامي وأيضاً فقد شنّ الصليبيون حملاتهم الواسعة ضد المسلمين ، وانتشرت في عهد الشيخ الفلسفة والإلحاد والجدل وهيمنة التصوف . وقد وقف الشيخ إزاء هذه الخزعبلات موقفاً مشهوداً ونصر الله به السنة وأهلها والله الحمد والمنة .

(٧) مؤلفاته وإنتاجه العلمي :

يعتبر شيخ الإسلام من العلماء الأفذاذ الذين تركوا تراثاً ضخماً ثميناً ، لا يزال العلماء والباحثون ينهلون منه وقد ألف ابن قيم الجوزية كتب ورسائل شيخه ابن تيمية التي قام بتأليفها وهي مطبوعة .

- وقد زادت مؤلفاته على ثلاثمائة مؤلف في مختلف العلوم، ومنها ما هو في
المجلدات المتعددة؛ وسأذكر بعضاً من مؤلفاته منها:
- ١ - بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول.
 - ٢ - إثبات المعاد.
 - ٣ - ثبوت النبوات عقلاً ونقلاً.
 - ٤ - الرد على الحلولية والاتحادية.
 - ٥ - الاستقامة في مجلدين.
 - ٦ - مجموع فتاوى ابن تيمية وتقع في (٣٧) مجلداً وجمعها عبدالرحمن بن قاسم.
 - ٧ - إصلاح الراعي والرعية.
 - ٨ - منهاج السنة.
 - ٩ - الاحتجاج بالقدر.
 - ١٠ - الإيذان.
 - ١١ - حقيقة الصيام.
 - ١٢ - الرسالة التدمرية.
 - ١٣ - الرسالة الحموية.
 - ١٤ - شرح حديث النزول.
 - ١٥ - العبودية.
 - ١٦ - المظالم المشتركة.
 - ١٧ - الواسطة بين الحق والخلق.
 - ١٨ - الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان.
 - ١٩ - الكلم الطيب.
 - ٢٠ - رفع الملام عن الأئمة الأعلام.
 - ٢١ - حجاب المرأة ولباسها في الصلاة.

٢٢ - قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة .

٢٣ - الرسالة العرشية .

٢٤ - الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح . وغير ذلك كثير وكثير جدًا وقد أفردت ترجمته في كتب متعددة منها العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية لتلميذه ابن عبد الهادي ، وأيضًا الرد الوافر لابن ناصر الدين الدمشقي ، ومنها الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية للبزاز وحياة ابن تيمية للبيطار وابن تيمية للاستنبولي وغيرها ، فرحم الله شيخ الإسلام وجمعنا به في دار كرامته ورضوانه مع النبيين والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقًا آمين .

غير ما تقدم:

١ - البداية والنهاية لابن كثير ج ١٤ / ١٣٥ - ١٣٩ .

٢ - شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٢ / ص ٨٠ - ٨٦ .

٣ - فوات الوفيات لمحمد بن شاكر الكتبي (ج ١ / ٧٤ - ٨٠) .

٤ - كتاب الذيل على طبقات الحنابلة : لأبي الفرج عبدالرحمن البغدادي ص (٣٨٧ - ٤٠٨)

٥ - الأعلام لخير الدين الزركلي ج ١ / ١٤٤ .

ترجمة موجزة لابن قيم الجوزية

هو الإمام المحقق الحافظ الأصولي الفقيه النحوي صاحب الذهن الوقاد والقلم السيل، والتأليف الكثيرة الماتعة، شمس الدين أبو عبد الله، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن سعد بن حريز الزرعي الدمشقي المشهور بـ: ابن قيم الجوزية، نسبة إلى المدرسة التي أنشأها محي الدين أبو المحاسن يوسف بن عبد الرحمن بن علي بن الجوزي^(١) المتوفى سنة ٦٥٦هـ لأن أباه كان قيماً عليها.

ولد في بيت علم وفضل في السابع من صفر سنة إحدى وتسعين وستمائة في قرية زرع من قرى حوران تبعد عن مدينة دمشق خمسة وخمسين ميلاً جنوب شرقيها، وقد تحول إلى دمشق، وتتلמד لطائفة من علمائها، فأخذ عن أبيه علم

(*) مصادر ترجمته: «ذيل طبقات الخنابلة» ٤٤٧/٢، ٤٥٢ لابن رجب الحنبلي، «البداية والنهاية» ٢٣٤/١٤، ٢٣٥ لابن كثير الدمشقي، «الدرر الكامنة» ٢١/٤، ٢٣ لابن حجر العسقلاني «الوافي بالوفيات» ٢٧٠/٢، ٢٧٢ للصفدي، «شذرات الذهب» ١٦٨/٦، ١٧٠ لابن العماد، «الرد الوافر» صفحة ٦٨، ٦٩ لابن ناصر الدمشقي، «بغية الوعاة» ٦٢/١، ٦٣ للسيوطي، «النجوم الزاهرة» ١٠، ٢٤٩ لابن تغري بردي، «البدر الطالع» ١٤٣/٢ - ١٤٦ للشوكاني، «جلاء العينين في محاكمة الأحمدين» ص ٣٠، ٣٢.

(١) فرغ من بنائها سنة (٦٥٢هـ)، ومن درس بها من العلماء: ابن المنجا، والجمال المرادوي، وابن قاضي الجبل، والبرهان بن مفلح وغيرهم، وأم بها ابن القيم، ووصفها الحافظ ابن كثير بأنها من أحسن المدارس، وقد احترقت سنة (٨٢٠هـ) على ما ذكره ابن قاضي شهاب، ثم أعاد عمارتها شمس الدين النابلسي، كانت في أول سوق البزورية بدمشق المسمى قديماً سوق القمح، وقد اختلس جيرانها معظمها، وبقي منها بقية صارت محكمة إلى سنة (١٣٢٧هـ)، ثم أقفلت مدة إلى أن افتتحها جمعية الإسعاف الخيري، وجعلتها مدرسة لتعليم الأطفال، وقد احترقت أول الثورة السورية، ولم تزل كذلك حتى أعمرت حوانيت، وجعل فوقها مسجد صغير تقام فيه بعض الصلوات إلى يومنا هذا.

الفرائض ، فإنه كان مبرزاً فيه ، وقد وصفه الحافظ ابن حجر في « الدرر الكامنة » ٤٧٢/١ بالتعبد وقلة التكلف .

وسمع الحديث من الشهاب النابلسي ، والقاضي تقي الدين بن سليمان ، وأبي بكر بن عبد الدائم ، وعيسى المطعم ، وإسماعيل بن مكتوم ، وفاطمة بنت جوهر ، وغيرهم .

وأخذ العربية عن ابن أبي الفتح البعلي ، فقرأ عليه « الملخص » لأبي البقاء ، ثم قرأ « الجرجانية » ثم ألفية ابن مالك ، وأكثر « الكافية الشافية » وبعض « التسهيل » وقرأ على الشيخ مجد الدين التونسي قطعة من المقرب لابن عصفور .

وتلقى الأصول والفقه على الشيخ صفى الدين الهندي ، وشيخ الإسلام ابن تيمية ، والشيخ إسماعيل بن محمد الحراني ، فقرأ عليهم « الروضة » لابن قدامة المقدسي ، و« الإحكام » للآمدي ، و« المحصل » و« المحصول » و« الأربعين » للرازي ، و« المحرر » لابن تيمية الجد .

وقد لازم شيخ الإسلام ابن تيمية ملازمة تامة منذ عودته من مصر سنة (٧١٢هـ) إلى وفاته سنة (٧٢٨هـ) ست عشرة سنة وهو إذ ذاك في ريعان شبابه ، وذروة قوته ، واكتمال مدركه ، فنهل من فيض علمه الواسع ، واستمع إلى آرائه الناضجة السديدة ، وغلب عليه حبه ، حتى كان يأخذ بأكثر اجتهاداته ، وينتصر لها ، ويتوسع في التدليل على صحتها ، وضعف ما يخالفها ، وهو الذي هذب كتبه ، ونشر علمه .

وأهم ما استفاده منه : دعوته إلى الأخذ بكتاب الله تعالى الكريم ، وسنة رسوله الصحيحة ، والاعتصام بهما ، وفهمهما على النحو الذي فهمه السلف الصالح ، وطرح ما يخالفهما ، وتجديد ما درس من معالم الدين الصحيح ، وتنقيته مما ابتدعه المسلمون من مناهج زائفة من تلقاء أنفسهم خلال القرون السالفة ، قرون الانحطاط والجمود والتقليد الأعمى ، وتحذير المسلمين مما تسرب إلى الفكر

الإسلامي من خرافات التصوف، ومنطق يونان، وزهد الهند.
ويستطيع القارئ أن يتبين مدى تأثير شيخه عليه من مؤلفاته الكثيرة المتنوعة التي تلح بقوة وإصرار على إعطاء كتاب الله تعالى حقه من العناية به، والعكوف على دراسته، وتدبر آياته ومعانيه، وبيان قيمة السنة الصحيحة، والتنويه بها، والكشف عما تنطوي عليه، من بيان للقرآن، وتفصيل لمجمله، وتوضيح لمعانيه، وتوكيد لحقائقه، وتبصير بمعالم الطريق السوي الذي يأخذ بأيديهم إلى العلم الصحيح الخالص من شوائب الجمود والتقليد. وهو يُعد بحق في زمرة أولئك المفكرين المصلحين الذين استنارت بأفكارهم المبنوثة في تفاريق مؤلفاتهم عقول معاصريهم ومن أتى بعدهم إلى يومنا هذا، وتنورت قلوبهم، وانجلي ما لصق بمرآتها من صدا الشك والجمود، وانحل ما انعقد في أذهانهم من شبه الزيف والارتباب. وترجمة هذا الإمام باستيفاء تخرج في مجلد كبير، وقد ترجم كذلك: فمن ترجم له الأستاذ محمد بن مسلمة الغنيمي واسم كتابه: ابن قيم الجوزية، وترجم له بكر بن عبد الله أبوزيد في كتابه: ابن القيم في حياته وآثاره وغيرها. ومن آرائه فيما يتعلق ببحثنا:

يرى أن الحسن والقبح في الأفعال عقليان يدركهما العقل، والله فطر عباده على استحسان الصدق والعدل والعفة والإحسان، ومقابلة النعم بالشكر، وفطرهم على استقباح أضدادها، وأن الثواب والعقاب شرعيان يتوقفان على أمر الشارع ونهيه، ولا يجبان عن طريق العقل، فهو يقول: والحق الذي لا يجد التناقض إليه السبيل أن الأفعال في نفسها حسنة وقيحة، كما أنها نافعة وضارة، ولكن لا يترتب عليها ثواب ولا عقاب إلا بالأمر والنهي، وقبل ورود الأمر والنهي لا يكون العمل القبيح موجباً للعقاب مع قبحه في نفسه، بل هو في غاية القبح، والله لا يعاقب عليه إلا بعد إرسال الرسل، فالسجود للشيطان والأوثان، والكذب والزنى، والظلم والفواحش كلها قبيحة في ذاتها، والعقاب عليها مشروط بالشرع.

تلامذته

وقد تلقى عن المؤلف - رحمه الله - كثير من العلماء المشهود لهم بالفضل في حياة شيخه وإلى أن مات وانتفعوا به أيما انتفاع .

١ - فمنهم الإمام الحافظ زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب البغدادي ثم الدمشقي الحنبلي العالم الزاهد العمدة الثقة، صاحب المؤلفات المفيدة في الحديث والفقه والتاريخ، وقد لازم مجلس المؤلف إلى أن مات - توفي رحمه الله - سنة (٧٩٥هـ) .

٢ - ومنهم الحافظ عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير البصري الدمشقي، نشأ بدمشق، وسمع من أفاضل علمائها، وعني بالحديث مطالعة في متونه ورجاله، وله تأليف كثيرة، أعظمها تفسيره المعروف، و«البداية والنهاية»، وصفه الذهبي في معجمه المختص بالإمام المفتي المحدث البارع الفقيه المتفنن المتقن المفسر، مات - رحمه الله - سنة (٧٧٤هـ) .

٣ - ومنهم الشيخ الإمام الحافظ عمدة المحدثين شمس الدين أبوعبدالله محمد ابن أحمد بن عبدالهادي بن عبد الحميد بن عبدالهادي بن يوسف بن محمد بن قدامة المقدسي الجماعيلي الصالح، عني بالحديث وأنواعه، ومعرفة رجاله وعلله، وتفقه وأفتى ودرس، وجمع، وألف، وكتب الكثير وصنف، وتصدى للإفادة والاشتغال في فنون من العلوم، قال الذهبي عنه، والله ما اجتمعت به قط إلا واستفدت منه، توفي - رحمه الله - سنة (٧٤٤هـ) .

٤ - ومنهم شمس الدين أبوعبدالله محمد بن عبد القادر بن محي الدين عثمان ابن عبد الرحمن النابلسي الحنبلي، ولد بنابلس، وسمع بها من عبدالله بن محمد ابن يوسف، وسمع على الحافظ العلائي، والشيخ إبراهيم، وغيرهم ممن لا

يحصى كثرة . ورحل إلى دمشق ، وصحب ابن القيم ، وتفقه به ، وقرأ عليه أكثر تصانيفه ، وكان يقال له : الجنة لكثرة ما عنده من العلوم ، توفي - رحمه الله - سنة (٧٩٧هـ) .

٥ - ومنهم ولده إبراهيم ، ذكره الذهبي في معجمه المختص : تفقه بأبيه ، وشارك بالعربية ، وسمع وقرأ ، واشتغل بالعلم ، قال ابن كثير : كان فاضلاً في النحو والفقه على طريقة أبيه . . . وكانت وفاته - رحمه الله - سنة (٧٦٧هـ) .

٦ - ومنهم ولده شرف الدين عبدالله ، ذكر الدرس بالصدرية^(١) عوضاً عن أبيه رحمه الله ، فأفاد وأجاد ، وسرد طرفاً صالحاً في فضل العلم وأهله .

(١) هي من مدارس الحنابلة أنشأها أسعد بن عثمان بن أسعد بن المنجا التنوخي ثم الدمشقي ، كانت بدرب يقال له : درب الريحان ، كان محلها داراً للوقف ، فجعلها مدرسة ، وقد درس بها : ابن عبد الهادي ، وابن القيم ، وابنه إبراهيم ، وغيرهم ، وقد محيت آثارها ، وصارت دوراً ، ولا ذكر لها اليوم .

أقوال العلماء فيه

لقد وصفه كل من ترجم له بجملة أوصاف تنبيء عن عظيم فضله، وعلو مرتبته، واتساع دائرته.

قال الحافظ ابن رجب: كان عارفاً بالتفسير لا يُجارى فيه، وبأصول الدين، وإليه فيها المنتهى، وبالحديث ومعانيه وفقهه، ودقائق الاستنباط منه، لا يُلحق في ذلك، وبالفقه وأصوله، وبالعربية، وله فيها اليد الطولى، وبعلم الكلام، وبكلام أهل التصوف وإشاراتهم ودقائقهم.

وكان - رحمه الله - ذا عبادة وتهجد، وطول صلاة إلى الغاية القصوى، وتأله، ولهج بالذكر، وشغف بالمحبة والإنابة، والافتقار إلى الله تعالى، والانكسار له، والإطراح بين يديه على عتبة عبوديته، لم أشاهد مثله في ذلك، ولا رأيت أوسع منه علماً، ولا أعرف بمعانى القرآن والسنة، وحقائق الإيمان، وليس هو بالمعصوم، ولكن لم أر في معناه مثله.

وقال الحافظ الذهبي: عني بالحديث ومتونه وبعض رجاله، وكان يشتغل في الفقه، ويحيد تقريره، وبالنحو ويدريه، وفي الأصلين، وتصدر للاشتغال، ونشر العلم.

وقال الحافظ ابن كثير: برع في علوم متعددة، لاسيما علم التفسير، والحديث، والأصلين، ولما عاد ابن تيمية من مصر سنة (٧١٢هـ) لازمه إلى أن مات، فأخذ عنه علماً جمّاً، مع ما سلف له من الاشتغال، فصار فريداً في بابه في فنون كثيرة، مع كثرة الطلب ليلاً ونهاراً، وكثرة الابتهاال، وكان حسن القراءة والخلق، كثير التودد، لا يحسد أحداً ولا يؤذيه، ولا يحقد على أحد، ولا أعرف في هذا العالم في زماننا أكثر عبادة منه.

وقال ابن ناصر الدمشقي : وكان ذا فنون من العلوم ، وخاصة التفسير والأصول من المنطوق والمفهوم ، وقال : قال أبوبكر محمد بن المحب فيما وجد بخطه : قلت أمام شيخنا المزي : ابن القيم في درجة ابن خزيمة ؟ فقال : هو في هذا الزمان ، كابن خزيمة في زمانه .

وقال القاضي برهان الدين الزرعي : ما تحت أديم السماء أوسع منه علماً ، درس بالصدرية ، وأم الجوزية ، وكتب بخطه ما لا يوصف كثرة ، وصنف تصانيف كثيرة جداً في أنواع العلوم ، وكان شديد المحبة للعلم وكتابته ، ومطالعة وتصنيفه ، واقتناء كتبه ، واقتنى من الكتب ما لم يحصل لغيره .

وقال الحافظ ابن حجر : كان جريء الجنان ، واسع العلم ، عارفاً بالخلاف ومذاهب السلف^(١) .

وقال الشوكاني : كان متقيداً بالأدلة الصحيحة ، معجباً بالعمل بها ، غير معول على الرأي ، صادقاً بالحق ، لا يجابي فيه أحداً .

(١) وهو كثير النقل عنه في «فتح الباري» من كتاب «زاد المعاد» وغيره ، تارة يصرح باسمه ، وتارة يغفله .

تصانيفه

صنف - رحمه الله - تصانيف كثيرة، بلغت نيّفًا وستين كتابًا في مختلف العلوم، منها ما هو كبير يقع في مجلدات، ومنها ما هو في مجلد، وجميعها جيد مفيد في بابه .

فله في الفقه وأصوله «إعلام الموقعين عن رب العالمين» و«الطرق الحكيمة في السياسة الشرعية» و«إغاثة اللهفان في مكائد الشيطان» و«تحفة المودود في أحكام المولود» و«أحكام أهل الذمة» و«الفروسية» وفي الحديث والسيرة «تهذيب سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته» و«زاد المعاد في هدي خير العباد» وفي العقائد: «اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية» و«الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة» و«شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل» و«هداية الحيارى من اليهود والنصارى» . و«حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح» و«كتاب الروح» وفي الأخلاق والرفائق «مدارج السالكين» و«عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين» و«الداء والدواء» . و«الوابل الصيب من الكلم الطيب» . وفي العلوم المختلفة «التبيان في أقسام القرآن» و«بدائع الفوائد» و«الفوائد» و«جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام» و«روضة المحبين» و«طريق الهجرتين وباب السعادتين» و«مفتاح دار السعادة» وغيرها من الكتب النافعة .

وفاته

توفى - رحمه الله - وقت عشاء الآخرة ليلة الخميس في الثالث والعشرين من شهر رجب سنة (٧٥١هـ) وصلى عليه من الغد بجامع دمشق الكبير، ثم بجامع الجراح قرب المقبرة التي دفن فيها بالباب الصغير، وقبره معروف حتى الآن، فهو على يسار الداخل إلى المقبرة من الباب الحديد الذي وسع منذ أكثر من عشرين سنة، وقد أزيل القبر من موضعه، وأبعد أكثر من مترين إلى الشرق - رحمه الله رحمة واسعة، وأسكنه بحبوحه جناته .

هذا ما يسر الله كتابته في هذه المقدمة وأسأل الله بأسمائيه الحسنی وصفاته العلی أن ينفع به قارئه وطالبه . وأن يعيده من شوائب الأكدار . وأن يجعل له القبول بين عباده إنه سبحانه ولي ذلك والقادر عليه .
وسبحانك اللهم وبحمدك نشهد أن لا إله إلا أنت نستغفرك ونتوب إليك .

وكتبه : (المعتز بالله وحده)

إبراهيم بن عبدالله الحازمي

عفا الله عنه وعامله بلطفه

الرياض : ٦ / ١٠ / ١٤١٢هـ

القسم الثاني المحقق

الجمال

فضله . حقيقته . أقسامه

تأليف

شيخ الاسلام أحمد بن عبدالحليم بن تيمية الحراني

قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

فصل في محبة الجمال

ثبت في صحيح مسلم عن عبدالله بن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال :
« لا يدخل النار أحد في قلبه مثال حبة خردلٍ من إيمان . ولا يدخل الجنة
أحد في قلبه مثقال حبة خردلٍ من كبر »^(١) .

وفي رواية : « لا يدخل الجنة من [كان] في مثقال ذرة من كبر . فقال رجل :
إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسناً فقال : إن الله جميل يحب
الجمال ، الكبر بطر الحق وغمط الناس »

فقوله : إن الله جميل يحب الجمال قد أدرج فيه حسن الثياب التي هي المسئول
عنها ، فعلم أن الله يحب الجمال [و] الجميل من اللباس ، ويدخل في عمومها
وبطريق الفحوى الجميل من كل شيء . هذا كقوله في الحديث الذي رواه
[الترمذي] : « إن الله نظيف يحب النظافة »^(٢) .

(١) الحديث عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه في : مسلم ٩٣/١ (كتاب الإيمان ، باب تحريم
الكبر وبيانها) إلا أن فيه «من كبرياء» والحديث مع اختلاف يسير في الألفاظ - في : سنن أبي داود
٨٤/٤ (كتاب اللباس ، باب ماجاء في الكبر) ، سنن ابن ماجه ٢٢/١ - ٢٣ (المقدمة ، باب في
الإيمان) .

(٢) عن عامر بن سعد عن أبيه رضي الله عنه في : سنن الترمذي ١٩٨/٤ وأوله : إن الله طيب يحب
الطيب ، نظيف يحب النظافة ، كريم يحب الكرم . . الحديث . وقال الترمذي : « هذا حديث
غريب وخالد بن إلياس يضعف ، ويقال : ابن إلياس » وقد ضعف الحديث أبو بكر بن العربي
في عارضة الأحوذى المباركفوري في التحفة (٢٠/٤) وحسنه الألباني في تحقيقه على المشكاة رقم
٤٤٨٨ ولعله بشواهد فقد ورد له شاهد من حديث عائشة عند الطبراني في الأوسط قال الهيثمي =

وقد ثبت عنه في الصحيح أنه قال: «إن الله طيب يحب الأطيباء»^(١). وهذا مما يُستدل به على استحباب^(٢) التجميل في الجُمع والأعياد، كما في الصحيح أن عمر بن الخطاب رأى حلةً تباع في السوق فقال: يا رسول الله لو اشتريت هذه تلبسها؟ فقال: «إنما يلبس هذه من لا خلاق»^(٣) له في الآخرة»^(٤).

وهذا يوافقه في حسن الثياب ما في السنن عن أبي الأحوص الجشمي قال: رأي النبي ﷺ وعليَّ أطمار، فقال: «هل لك من مال؟ قلت: نعم. قال: من أي

= في المجمع (١٣٢/٥) رواه الطبراني في الأوسط وفيه نعيم بن مُورع وهو ضعيف. وله شاهد من حديث أبي هريرة رواه أبو الصعاليك الطرسوسي في جزئه. ورواه الرافعي في تاريخ قزوين. فهذه الشواهد تدل على أن الحديث حسن إن شاء الله.

(١) لم أجد الحديث بهذا اللفظ، وجاء الحديث في الترمذي (انظر التعليق السابق) بلفظ مقارب، كما جاء حديث صحيح في: مسلم ٧٠٣/٢ (كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها) عن أبي هريرة رضي الله عنه وأوله: أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين. الحديث. وهذا الحديث أيضاً في: سنن الدارمي ٣٠٠/٢ (كتاب الرقاق، باب في أكل الطيب)، المسند (ط. الحلبي) ٣٢٨/٢.

(٢) في الأصل «استحباب» والصواب ما أثبتته.

(٣) الحديث عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في: البخاري ٤/٢ (كتاب الجمعة، باب يلبس أحسن ما يجد) وأوله: أن عمر بن الخطاب رأى حلة سيرة عند باب المسجد، فقال: يا رسول الله لو اشتريت هذه فلبستها يوم الجمعة وللوفد إذا قدموا عليك. فقال رسول الله ﷺ: إنما يلبس هذه من لا خلاق له في الآخرة. الحديث. وهو في: البخاري ٦٣/٣ (كتاب البيوع، باب التجارة فيما يكره لبسه للرجال والنساء)، مسلم ١٦٣٨/٣ - ١٦٤١ (كتاب اللباس والزينة، باب تحريم استعمال إناء الذهب والفضة. إلخ)، سنن النسائي ٧٨/٣ (كتاب الجمعة، باب الهيئة للجمعة)؛ سنن ابن ماجه ١١٨٧/٢ - ١١٨٨ (كتاب اللباس، باب كراهية لبس الحرير)، الموطأ ٩١٧/٢ (كتاب اللباس، باب ماجاء في لبس الثياب)؛ المسند (ط. المعارف) ٣٢٣/٦.

المال؟ قلت: من كل ما أتى الله من الإبل والشاء. قال: فلتر نعمة الله وكرامته عليك»^(١).

وفي السنن أيضاً عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب أن يُرى أثر نعمته على عبده»^(٢) لكن هذا الظهور لنعمة الله وما في ذلك من شكره. والله يحب أن يُشكر، وذلك لمحبتة الجمال. وهذا الحديث قد ضل قوم بما تأولوه عليه، وآخرون رأوه معارضة لغيره من النصوص ولم يهتدوا للجمع.

فالأولون: قد يقولون: كل مصنوع الرب جميل، لقوله: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾. [سورة السجدة: ٧]. فنحب كل شيء. وقد يستدلون بقول بعض المشايخ: «المحبة نار تحرق في القلب كل ماسوى مراد المحبوب»، والمخلوقات كلها مراده، وهو لايقوله قائلهم. فصرّح بإطلاق الجمال، وأقل ما يصيب هؤلاء أنهم يتركون الغيرة لله، والنهي عن المنكر، والبغض في الله، والجهاد في سبيله، وإقامة حدوده.

وهم في ذلك متناقضون، إذ لا يتمكنون من الرضا بكل موجود. فإن المنكرات هي أمور مضرة لهم ولغيرهم، ويبقى أحدهم مع طبعه وذوقه وهواه، ينكر ما يكره ذوقه دون ما لا يكره ذوقه، وينسلخون عن دين الله، وربما دخل أحدهم في الاتحاد

(١) الحديث عن أبي الأحوص الجشمي عن أبيه رضي الله عنه في سنن أبي داود ٧٤/٤ (كتاب اللباس، باب في غسل الثوب وفي الخلقان)، سنن النسائي ١٥٧/٨ (كتاب الزينة. باب الجلال)؛ المسند (ط. الحلبي) ٤٧٣/٣. وهو حديث صحيح.

(٢) الحديث عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده في: سنن الترمذي ٢٠٦/٤ - ٢٠٧ (كتاب الأدب، باب ماجاء أن الله يحب أن يُرى أثر نعمته على عبده) وقال الترمذي: «وفي الباب عن أبي الأحوص عن أبيه وعمران بن حصين وابن مسعود. هذا حديث حسن. والحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه في المسند (ط. المعارف) ٢٤٠/١٥ - ٢٤١، وعن عمران بن حصين رضي الله عنه في المسند (ط. الحلبي) ٤٣٨/٤.

والحلل المطلق، ومنهم من يخصّ الحلل أو الاتحاد ببعض المخلوقات، كالسيح أو علي بن أبي طالب أو غيرهما من المشايخ والملوك والمردان، فيقولون بحلله في الصور الجميلة، ويعبدونها.

ومنهم من لا يرى ذلك، لكن يتدين بحب الصور الجميلة، من النساء الأجانب والمردان وغير ذلك، ويرى هذا من الجمال الذي يحبه الله، ويحبه هو، ويلبس المحبة الطبيعية المحرمة بالمحبة الدينية، ويجعل ما حرّمه [الله] مما يقرب إليه: ﴿وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء﴾ [سورة الأعراف، الآية: ٢٨].

والآخرون قالوا: ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»^(١). ومعلوم أنه لم ينف نظر الإدراك، لكن نظر المحبة.

وقد قال تعالى عن المنافقين: ﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم يقولون تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة﴾. [سورة المنافقون، الآية: ٤].

وقال تعالى: ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثاً ورثياً﴾. [سورة مريم، الآية: ٧٤]. والأثاث: المال من اللباس ونحوه، والرثي المنظر فأخبر أن الذين أهلكهم قبلهم كانوا أحسن صوراً وأموالاً، لتبين أن ذلك لا ينفع عنده ولا يُعَبَّأ به.

وقال النبي ﷺ: «لا فضل لعربي على عجمي، ولا لأبيض على أسود

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤) (٣٤) في البر والصلة: باب تحريم ظلم المسلم وخذله، وأخرجه أحمد (٢٨٥/٢ و ٥٣٩) وابن ماجه (٤١٤٣) في الزهد: باب القناعة.

إِلَّا بِالتَّقْوَى»^(١) وفي السنن عنه أنه قال: «البذاءة من الإيَّان»^(٢).
وأيضاً فقد حرَّم علينا [من] لباس الحرير والذهب، وآنية الذهب والفضة:
ما هو أعظم الجمل في الدنيا، وحرَّم الله الفخر والخيلاء، واللباس الذي فيه الفخر
والخيلاء، كإطالة الثياب.

حتى ثبت في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا ينظر الله يوم
القيامة إلى من جرَّ إزاره بطراً»^(٣).
وفي الصحيح عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «من جرَّ ثوبه خيلاء لم ينظر
الله إليه يوم القيامة»^(٤).

(١) في المسند (ط. الحلبي) ٤١١/٥ عن أبي نضرة حدثني من سمع خطبة رسول الله ﷺ في وسط
أيام التشريق فقال: يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد. ألا لا فضل لعربي على
أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحر على أسود، ولا أسود على أحر إلا بالتقوى. أبلغت؟
قالوا: بلغ رسول الله ﷺ... الحديث.

(٢) في: سنن أبي داود ١٠٦/٤ - ١٠٧ (كتاب الترجل، الباب الأول) عن أبي أمامة قال: ذكر
أصحاب رسول الله ﷺ يوماً عنده الدنيا فقال رسول الله ﷺ: «ألا تسمعون؟ ألا تسمعون؟
إن البذاءة من الإيَّان، إن البذاءة من الإيَّان - يعني التفحل. وقال أبو داود: هو أبو أمامة بن
ثعلبة الأنصاري. والحديث عن عبدالله بن أبي أمامة الحارثي عن أبيه في سنن ابن ماجه
١٣٧٩/٢ (كتاب الزهد، باب من لا يؤبه له) وفي آخره: قال: البذاءة: القشافة، يعني:
التقشف. وانظر السلسلة. الصحيحة للألباني رقم ٣٤١ وصحيح الجامع الصغير (رقم ٢٨٧٦).
(٣) الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه في: البخاري ١٤١/٧ (كتاب اللباس، باب من جرَّ ثوبه
من الخيلاء)، مسلم ١٦٥٣/٣ (كتاب اللباس، باب تحريم جر الثوب خيلاء)، المسند (ط.
الحلبي) ٥/٣.

(٤) الحديث عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما في: البخاري ٦/٥ (كتاب أصحاب النبي، باب
حدثنا الحميدي). ١٤١/٧ (كتاب اللباس، باب من جرَّ إزاره من غير خيلاء)، مسلم
١٦٥١/٣ - ١٦٥٣ (كتاب اللباس، باب تحريم جر الثوب خيلاء)، سنن أبي داود ٨١/٤
(كتاب اللباس، باب ماجاء في إسبال الإزار)، سنن الترمذي ١٣٧/٢ (كتاب اللباس، باب
ما جاء في كراهية جر الإزار)، سنن ابن ماجه ١١٨١/٢ (كتاب اللباس، باب من جر ثوبه من =

وفي الصحيح أيضاً قال: «بينما رجل يمر إزاره من الخيلاء خسف به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة»^(١).

وقد قال تعالى في حق قارون: ﴿فخرج على قومه في زينته﴾. [سورة القصص، الآية: ٧٩]. قالوا: ثياب الأرجوان^(٢)

ولهذا ثبت في الصحيح عن عبدالله بن عمرو قال: رأيت رسول الله ﷺ وعليّ ثوبين معصفرين، فقال: «إن هذه من ثياب الكفار فلا تلبسها. قلت: أغسلهما؟ قال: احرقهما»^(٣).

ولهذا كرهه/ العلماء المحققون الأحمر المشبع حمرة، كما جاء النهي عن الميثرة الحمراء^(٤). وقال عمر بن الخطاب: دعوا هذه الرايات للنساء. وقد بسطنا القول في هذه المسألة في موضعها.

= الخيلاء)، والحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه في المسند (ط. المعارف) ١٠٨/٧، ٣٨٩٢٦٣ وهو عن أبي سعيد الخدري وابن عمر رضي الله عنهم في المسند (ط. الحلبي) ٣٩/٣ - ٤٠. (١) الحديث عن ابن عمر - رضي الله عنهما في: البخاري ١٧٧/٤ (كتاب الأنبياء، باب حدثنا أبو اليمان). ١٤١/٧ (كتاب اللباس، باب من جر ثوبه من الخيلاء).

(٢) قال ابن الجوزي في تفسيره «زاد المسير» ٢٤٣/٦ «قال الحسن: في ثياب حمر وصفر، وقال عكرمة: في ثياب معصفرة. وقال وهب بن منبه: خرج على بغلة شهباء عليها سرج أحمر من أرجوان. إلخ.

(٣) جمع ابن تيمية بين حديثين رواهما مسلم في صحيحه ١٦٤٧/٣ (كتاب اللباس والزينة، باب النهي عن لبس الرجل الثوب المعصفر) عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال في أولهما: رأى رسول الله ﷺ عليّ ثوبين معصفرين فقال: «إن هذه من ثياب الكفار فلا تلبسها». وفي الثاني: فقال النبي ﷺ: «أملك أمرتك بهذا؟» قلت: أغسلهما؟ بل احرقهما.

(٤) في الأصل: المسرة الحمراء. وفي سنن النسائي ١٩٤/٧ (كتاب الزينة، باب النهي عن الجلوس على المياثر من الأرجوان) عن علي رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: قل اللهم سددني واهدني. ونهاني عن الجلوس على المياثر. والمياثر قسي كانت تصنعها النساء لبعولتهن على الرجل كالقطائف من الأرجوان، وانظر زاد المعاد لابن القيم فله كلام حسن في هذه المسألة

وأيضاً فقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾^(١) ويحفظوا فروجهم ﴿إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾. [سورة النور، الآية: ٣٠ - ٣١].

وقال النبي ﷺ في الحديث الصحيح عن أبي هريرة: «العينان تزنيان، وزناهما النظر»^(٢).

وفي الصحيح عن جرير بن عبدالله قال: سألت النبي ﷺ عن نظر الفجأة، فقال: «اصرف بصرك»^(٣).

وفي السنن أنه قال لعلي: «يا علي: لاتتبع النظرة النظرة، فإنما لك الأولى، وليست لك الآخرة»^(٤).

وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْدَن عَيْنَكَ إِلَى مِمَّا تَعْتَبُ بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ

(١) في الأصل حرفت الآية إلى: من أصواتهم.

(٢) رواه البخاري ١١ / في الاستئذان: باب زنا الجوارح دون الفرج، وفي القدر ومسلم (٢٦٥٧) في القدر: باب قدر على ابن آدم حظه من الزنى وغيره، ورواه أحمد (١٢٥ / ١٢٦) وأبو داود.

(٣) في الأصل: اضرب وبصرك، وهو تحريف، والحديث عن جرير بن عبدالله رضي الله عنه في: مسلم ١٦٩٩ / ٣ (كتاب الآداب، باب نظر الفجأة) ونصه: سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجأة، فأمرني أن أصرف بصري. والحديث في: سنن الترمذي ١٩١ / ٤ (كتاب الاستئذان والآداب، باب ماجاء في نظر الفجأة). وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، سنن أبي داود ٣٣٠ / ٢ (كتاب النكاح، باب مايؤمر به من غض البصر) وفيه: «اصرف بصرك» وهي الرواية التي معنا؛ سنن الدارمي ٢٧٨ / ٢ (كتاب الاستئذان باب في نظر الفجأة).

(٤) الحديث عن بريدة الأسلمي رضي الله عنه في: سنن أبي داود ٣٣٠ / ٢ - ٣٣١ (كتاب النكاح، باب مايؤمر به من غض البصر) وأوله: «يا علي لاتتبع... الحديث. وهو عنه أيضاً في: سنن الترمذي ١٩١ / ٤ (كتاب الاستئذان والآداب، باب ماجاء في نظر الفجأة)، المسند (ط. الحلبي) ٣٥١ / ٥ - ٣٥٢، ٣٥٣، ٣٥٧. والحديث عن علي رضي الله عنه في: سنن الدارمي ٢٩٨ / ٢ (كتاب الرقاق، باب في حفظ السمع).

الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى ﴿﴾ . [سورة طه، الآية: ١٣١].
وقال: ﴿ولا تمدن عينيك إلى مامتعنا به أزواجاً منهم ولا تحزن عليهم واخفض
جناحك للمؤمنين﴾ . [سورة الحجر: ٨٨].

وقال: ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من
الذهب والفضة والحليل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله
عنده حسن المثاب * قل أُوْبئِكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات
تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير
بالعباد﴾ . [سورة آل عمران، الآية: ١٣ - ١٥].

وقد قال مع ذمه لمذامه من هذه الزينة: ﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج
لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم
القيامة﴾ . [سورة الأعراف، الآية: ٣٢].

فنقول: اعلم أن ما يصفه به النبي ﷺ من محبة لأجناس المحبوبة من الأعيان
والصفات والأفعال، وما يبغضه من ذلك، هو مثل ما يأمر به من الأفعال، وينهى
عنه من ذلك، فإن الحب والبغض هما أصل الأمر والنهي، وذلك نظير ما يعده
على الأعمال الحسنة من الثواب، ويتوعد به على الأعمال السيئة من العقاب.
فأمره ونهيه، ووعدته ووعيده، وحبّه وبغضه، وثوابه وعقابه: كل ذلك من
جنس واحد. والنصوص النبوية تأتي مطلقة عامة من الجانبين. فتعارض في
بعض الأعيان والأفعال التي تندرج في نصوص المدح والذم، والحب والبغض،
والأمر والنهي، والوعد والوعيد. وقد بسطنا الكلام على ما يتعلق بهذه القاعدة في
غير موضع، لتعلقها بأصول الدين وفروعه.

فإن من أكبر المسائل التي تتبعها مسألة الأسماء والأحكام في فساق أهل الملة،
[وهل] يجتمع في حق الشخص الواحد الثواب والعقاب، كما يقوله أهل السنة
والجماعة، أم لا يجتمع ذلك؟ وهل يكون الشيء الواحد محبوباً من وجه مبغوضاً

من وجهه ، محموداً من وجهه مذموماً من وجهه ، كما يقوله جمهور الخوارج : والمعتزلة؟ وهل يكون الفعل الواحد مأموراً به من وجهه منهياً عنه من وجهه؟ .

وقد تنازع في ذلك أهل العلم من الفقهاء والمتكلمين وغيرهم ، والتعارض بين النصوص إنما هو لتعارض المتعارض المقتضي للحمد والذم من الصفات القائمة بذاته [تعالى] . ولهذا كان لهذا الجنس موجباً للكفر أو الفتنة ، فأول مسألة فرقت بين الأمة مسألة الفاسق المليّ ، فأدرجته الخوارج في نصوص الوعيد والخلود في النار وحكموا بكفره ، ووافقتهم المعتزلة على دخوله في نصوص الوعيد وخلوده في النار ، لكن لم يحكموا بكفره ، فلو كان الشيء خيراً محضاً لم يوجب فرقة ، ولو كان شراً محضاً لم يخف أمره ، لكن لاجتماع الأمرين فيه أوجب الفتنة .

وكذلك مسألة القدر ، التي هي من جملة فروع هذا الأصل ، فإنه اجتمع في الأفعال الواقعة التي نهى الله عنها أنها مرادة له لكونها الموجودات ، وأنها غير محبوبة له / ولا مرضية ، بل ممقوتة مبغوضة لكونها من المنهيات .

فقال طوائف من أهل الكلام : الإرادة والمحبة والرضا واحدة ، أو متلازمة . ثم قالت القدرية : والله لم يجب هذه الأفعال ولم يرضها ، فلم يردّها ، فأثبتوا وجود الكائنات بدون مشيئة .

ولهذا لما قال غيلان القديري لربيعة بن عبد الرحمن : ياربعة نشدتك بالله أترى الله يجب أن يُعصى؟ فقال له ربيعة : أفترى الله يُعصى قسراً؟ فكأنه ألقمه حجراً^(١) . يقول له : نزّهته عن محبة العاصي فسلبته الإرادة والقدرة ، وجعلته مقهوراً مقسوراً . وقال من عارض القدرية : بل كل ما أَراده أحبه ورضيه . ولزمهم أن يكون الكفر والفسوق والعصيان محبوباً لله مرضياً .

وقالوا أيضاً : يأمر بما لا يريده ، وكل ما أمر به من الحسنات فإنه لم يردّه ، وربما قالوا : ولم يحبه ولم يرضه إلا إذا وُجد ، ولكن أمر به وطلبه .

(١) انظر كتابنا «الأجوبة المسكتة» فهذا الجواب يعتبر جواب المعنى ذكي حاضر البدئية .

فقل لهم : هل يكون طلب وإرادة واستدعاء بلا إرادة ولا محبة ولا رضا؟ هذا جمع بين النقيضين ، فتحيروا .

فأولئك سلبوا الرب خلقه وقدرته وإرادته ، وهؤلاء سلبوه محبته ورضاه وإرادته الدينية ، وما يصحبه أمره ونهيه من ذلك . فكما أن الأولين لم يثبتوا أن الشخص الواحد يكون مثاباً معاقباً ، بل إما مثاب وإما معاقب ، فهؤلاء لم يبينوا أن الفعل الواحد يكون مراداً من وجه دون وجه ، مراداً غير محبوب ، بل إما مراد محبوب ، وإما غير مراد ولا محبوب ، ولم يجعلوا الإرادة إلا نوعاً واحداً . والتحقيق أنه يكون مراداً غير محبوب ولا مرضي ، ويكون مراداً من وجه دون وجه ، ويكون محبوباً مرضياً غير مراد الوقوع .

والإرادة نوعان : إرادة دينية ، وهي المقارنة الأمر والنهي ، والحب والبغض ، والرضا والغضب .

وإرادة كونية ، وهي المقارنة للقضاء والقدر ، والخلق والقدرة . وكما تفرقوا في صفات الخالق تفرقوا في صفات المخلوق . فأولئك لم يثبتوا له إلا قدرة واحدة تكون قبل الفعل ، وهؤلاء لم يثبتوا له إلا قدرة واحدة تكون مع الفعل .

أولئك نفوا القدرة الكونية التي بها يكون الفعل ، وهؤلاء نفوا القدرة الدينية التي بها يأمر الله العبد وينهاه .

وهذا من أصول تفرقهم في مسألة تكليف مالا يطاق . وانقسموا إلى : قدرية مجوسية تثبت الأمر والنهي ، وتنفي القضاء والقدر . وإلى قدرية مشركية شرّ منهم تثبت القضاء والقدر ، وتكذب بالأمر والنهي ، أو ببعض ذلك .

وإلى : قدرية إبليسية تصدق بالأمرين ، لكن ترى ذلك تناقضاً مخالفاً للحق والحكمة .

وهذا شأن عامة ماتعارض فيه الأسباب والدلائل . تجد فريقاً يقولون بهذا

دون هذا، وفريقاً بالعكس، وفريقاً رأوا الأمرين واعتقدوا تناقضهما، فصاروا متحيرين أو معرضين عن التصديق بهما جميعاً، أو متناقضين مع هذا تارة، ومع هذا تارة.

وهذا تجده في مسائل الكلام والاعتقادات، ومسائل الإرادة والعبادات، كمسألة السماع الصوتي، ومسألة الكلام، ومسائل الصفات، وكلام الله، وغير ذلك من المسائل.

وجماع القول في ذلك: أن كل أمرين تعارضاً فلا بد أن يكون أحدهما راجحاً، أو يكون متكافئين، فيحكم بينهما بحسب الرجحان، وبحسب التكافؤ، فالعاملان والعاملان إذا امتاز كل منهما بصفات، فإن ترجح أحدهما فهو الراجح، وإن تكافئا سوى بينهما في الفضل والدرجة، وكذلك أسباب المصالح والمفاسد، وكذلك الأدلة، بأنه يعطى كل دليل حقه، ولا يجوز أن تتكافأ الأدلة في نفس الأمر عند الجمهور، لكن تتكافأ في نظر الناظر، وأما كون الشيء الواحد من الوجه الواحد ثابتاً منتفياً، فهذا لا يقوله عاقل.

وأصل هذا كله العدل بالتسوية بين المتماثلين. فإن الله تعالى يقول: ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾. [سورة الحديد، الآية: ٢٥]. وقد بسطنا القول في ذلك، وبيّنا أن العدل جماع الدين والحق والخير كله في غير موضع.

والعدل الحقيقي قد يكون متعذراً: إما عمله، وإما لعمل به. لكن التماثل من كل وجه غير ممكن أو غير معلوم، فيكون الواجب في مثل ذلك ما كان أشبه بالعدل وأقرب إليه، وهي الطريقة المثلى.

وقال سبحانه: ﴿وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا تكلف نفساً إلا وسعها﴾. [سورة الأنعام، الآية: ١٥٢].

وعلى هذا فالحق الموجود: وهو الثابت الذي يقابله المنفي. والحق المقصود:

وهو المأمور به المحبوب، الذي يقابله المنهي عنه المبعوض : ثلاثة أقسام :
فإنها في حق المقصود : إما أمر ترجحت المصلحة المحبوبة فيه ، وهذا يؤمر به .
وإما أمر ترجحت فيه المفسدة المكروهة ، فهذا يُنهى عنه .
وإما أمر استوى فيه هذا [وهذا] ، فهذا لا يؤمر به ولا يُنهى عنه ، ولا يترجح فيه
الحب ، ولا يترجح فيه البغض ، بل يكون عفواً .
ومادون هذا - إن كان مثل هذا موجود - فإن الناس يتنازعون في وجوده .
فقليل : هو موجود . وقيل : بل هو يقدر في الفعل لوجود له ، بل لا بد من
الرجحان ، كما قيل مثل ذلك في تكافؤ الأدلة .
وعلى هذا فالأمر الذي ترجحت فيه المصلحة ، وأمر به . غلب فيه جانب
المحبة ، مع أن الذي فيه المفسدة ، مبغض ، لكنه مراد . فهو مراد بغيض . والأمر
الذي ترجح فيه جانب المصلحة محبوب ، لكنه مراد الترك محبوب ، فهو محبوب في
نفسه ، لكن لملازمته لما هو بغيض ، وجب أن يُراد تركه تبعاً لكرهية لازمة ، فإنه
بغض اللازم ونفى المنفي الملزوم .
فحاصله أن المراد إرادة جازمة هو أحد الأمرين : إما الفعل ، وإما الترك .
والأول : هو المأمور به . والثاني : هو المنهي عنه . لكن مع هذا فقد / يشتمل
المفعول على بغيض محتمل ، ويشتمل المتروك على حبيب مرفوض ، فهذا أصل
نافع .
فهذا في الفعل الواحد . وأما الفاعل الواحد الذي يعمل الحسنة والسيئة معاً ،
وهو وإن كان التفريق بينهما ممكناً ، لكنه هو يعلمهما جميعاً أو يتركهما جميعاً ، لكون
محبه لأحدهما مستلزمة للأخرى لمحبه ، وبغضه لأحدهما مستلزمة لبغضه
للأخرى . فصار لا يؤمر إلا بالحسن من الفعلين ، ولا ينهى إلا عن السيء منهما ،
وإن لزم ترك الحسنة لا ينبغي أن يأمره في مثل هذا بالحسنة المرجوحة ، فإنه يكون
أمراً بالسيئة ، ولا ينهاه عن السيئة المرجوحة ، فإنه يكون نهياً عن الحسنة الراجحة ،

وهكذا المعين يعين على الحسنة الراجعة، وعلى ترك السيئة المرجوحة .
وهذا أصل عظيم تدخل فيه أمور عظيمة، مثل الطاعة لأئمة الجور وترك
الخروج عليهم، وغير ذلك من المسائل الشرعية. وهكذا حكم الطائفة المشتملة
أفعالها على حسنات وسيئات، بمنزلة الفاعل في ذلك، وبما ذكرناه في الفعل
الواحد والفاعل الواحد - تظهر أمور كثيرة: إما الحق الموجود، وإما أن يكون
الشيء في نفسه ثابتاً ومنتفياً، لكن كثيراً ما تحصل المقابلة بين إثبات عام، ونفي
عام، ويكون الحق في التفصيل، وهو ثبوت بعض ذلك العام وانتفاء بعضه،
وهذا هو الغالب على المسائل الكبار التي يتنازع فيها أحزاب الكلام والفلسفة
ونحوهم .

والدليل إما أن يكون دليلاً معلوماً، فهذا لا يكون إلا حقاً، لكن كثيراً ما يظن
الإنسان أن الشيء معلوم ولا يكون معلوماً، وحينئذ فإذا ظن طان تعارض الأدلة
المعلومة كان غالطاً في تعارضها، بل يكون أحد الأمرين لازماً - إما كلها أو بعضها
- غير معلوم. وإما أن موجب الدليل حق من غير تعارض، وإن ظنه الطان
تعارضاً، فالحق الموجود لا ينافي الحق الموجود، بل يكون كل منهما موجوداً بخلاف
الحق المقصود، فإنه قد يُقصد / الضدان لما في كل منهما من المصالح المقصودة،
لكن لا يوجد الضدان. وإن كان الدليل مغلباً للظن اعتقد فيه موجبة، وإذا
تعارضت هذه [الأدلة] رجح راجحها وسوى بين متكافئها.

إذا تقرر ذلك فنقول: قول النبي، ﷺ: «إن الله جميل يحب الجمال»، كقوله
للذي علمه الدعاء: «اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني»^(١)، وقوله تعالى:

(١) الحديث عن عائشة رضي الله عنها في: سنن الترمذي ١٩٥/٥ (كتاب الدعوات، باب منه)
وأوله: قلت يا رسول الله، أرايت إن علمت أي ليلة ليلة القدر ما أقول فيها؟.. الحديث..،
سنن ابن ماجه ١٢٦٥/٢ (كتاب الدعاء، باب الدعاء بالعفو والعافية)، المسند (ط. الحلبي)
١٧١/٦ وأماكن أخرى بالمسند وانظر كتابنا سطوع البدر بفضائل ليلة القدر.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ . [سورة البقرة، الآية: ٢٢٢] . وإن الله نظيف يحب النظافة .

فهو سبحانه إذا كان يحب العفو لم يوجب هذا ألا يكون في بعض أنواع العفو من المعارض الراجح ما يعارض [ما] فيه من محبة العفو، ولولا ذلك لكان ينبغي أن يعفو عن كل محرم، فلا يعاقب مشركاً ولا فاجراً، لافي الدنيا ولا في الآخرة، وهذا خلاف الواقع، ولوجب أن يستحب لنا العفو عن كل كافر وفاجر، فلا نعاقب أحداً على شيء، وهذا خلاف ما أمرنا به، وخلاف ما هو صلاح لنا، ونافع في الدنيا والآخرة .

وكذلك محبته للمتطهرين ومحبته للنظافة، لا تمنع حصول المعارض الراجح، مثل أن يكون الماء محتاجاً إليه للعطش، فمحبته لسقي العطشان راجحة على محبته للطهارة والنظافة .

وكذلك سائر ما يتزاحم من الواجبات والمستحبات، فإنها جميعها محبوبة لله، وعند التزاحم يقدم أحبها إلى الله . والتقرب إليه بالفرائض أحب إليه من التقرب إليه بالنوافل، وبعض الواجبات والمستحبات أحب إليه من بعض .

وكذلك إذا تعارض المأمور والمحذور، فقد تعارض حبيبه وبغيضه، فيقدم أعظمهما في ذلك، فإن كان محبته لهذا أعظم من بغضه لهذا أقدم، وإن كان بغضه لهذا أعظم من حبه لهذا قدم .

كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ . [سورة البقرة، الآية: ٢١٩] . وعلى هذا استقرت / الشريعة بترجيح خير الخيرين، ودفع شر الشرين، وترجيح الراجح من الخير والشر المجتمعين .

والله سبحانه يحب صفات الكمال، مثل العلم والقدرة والرحمة ونحو ذلك .

ففي صحيح مسلم^(١) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير»^(١). وفي الصحيح عنه أنه قال: «لا يرحم الله من لا يرحم الناس»^(٢).

وفي الصحيح أيضاً عنه: «إنما يرحم الله من عباده الرحماء»^(٣). وفي السنن حديث ثابت عنه: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»^(٤).

ومع هذا فقد قال تعالى في حد الزاني والزانية: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾. [سورة النور، الآية: ٢]. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾. [سورة التوبة، الآية: ٧٣].

(١) (٢٠٥٢/٤) كتاب القدر باب في الأمر بالقوة وترك العجز ورواه ابن ماجه (٣١/١) المقدمة باب في القدر.

(٢) الحديث عن جرير عن عبدالله رضي الله عنه في: البخاري ١١٥/٩ (كتاب التوحيد، باب قول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ...﴾. مسلم ١٨٠٩/٤ (كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ...)، سنن الترمذي ٢١٦/٣ (كتاب البر، باب ماجاء في رحمة الناس)، المسند (ط. الحلبي) ٣٥٨/٤، ٣٦٠، ٣٦٦. والحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في: سنن الترمذي ١٨/٤ (كتاب الزهد، باب ماجاء في الرياء والسمعة)، المسند (ط. الحلبي) ٤٠/٣.

(٣) هذا جزء من حديث طويل عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما في: البخاري ٧٩/٢ (كتاب الجنائز باب قول النبي ﷺ: يعذب الميت ببعض بكاء أهله وأوله: أرسلت ابنة النبي ﷺ) أن ابنًا لي قبض... الحديث. وهو في: مسلم ٦٣٥/٢ - ٦٣٦ (كتاب الجنائز، باب البكاء على الميت)، سنن النسائي ١٩/٤ (كتاب الجنائز، باب الأمر بالاحتساب والصبر...)، سنن ابن ماجه ٥٠٦/١ (كتاب الجنائز، باب ماجاء في البكاء على الميت)، المسند (ط. الحلبي) ٢٠٤/٥، ٢٠٥ - ٢٠٦، ٢٠٦ - ٢٠٧.

(٤) الحديث عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما في: سنن أبي داود (كتاب الأدب، باب في الرحمة)، سنن الترمذي ٢١٧/٣ (كتاب البر، باب ماجاء في رحمة الناس). وقال الترمذي: «هذا الحديث حسن صحيح».

وهذا في الحقيقة من رحمة الله بعباده، فإن الله إنما أرسل محمداً رحمة للعالمين، وهو سبحانه أرحم بعباده من الوالدة بولدها. لكن قد تكون الرحمة المطلوبة لا تحصل إلا بنوع من ألم وشدة تلحق بعض النفوس، كما ورد في الأثر: إذا قالوا للمريض: اللهم ارحمه. يقول الله: كيف أرحمه من شيء به أرحمه؟».

وكذلك كون الفعل عفواً وصفاً يقتضي محبة الله له، فإذا عارضه ماهو أحب إلى الله منه، أو اشتمل على بغض الله له أعظم من محبته لذلك العفو قدّم الراجح.

فكون الشيء جميلاً يقتضي محبة الله له، وهو سبحانه أحسن كل شيء خلقه، إذ كل موجود فلا بد فيه من وجه الحكمة التي خلقه الله لها، ومن ذلك الوجه يكون حسناً محبوباً، وإن كان من وجه آخر يكون مستلزماً شيئاً يحبه الله ويرضاه، أعظم مما فيه نفسه من البغض.

فهذا موجود فينا، فقد يفعل الشخص الفعل: كشرب الدواء الكريه الذي بغضه له أعظم من حبه له، وهذا لما تضمن ماهو محبته له أعظم من بغضه للدواء، أرادته وشاءه وفعله، فأراد بالإرادة الجازمة المقارنة للقدرة فعلاً فيه مما يبغضه أكثر مما يحبه، لكونه مستلزماً لدفع ماهو إليه أبغض، ولحصول ما محبته له أعظم من بغضه. لهذا فإن بغضه للمرض ومحبته للعافية أعظم من بغضه للدواء.

فالأعيان التي نبغضها: كالشياطين والكافرين، وكذلك الأفعال التي نبغضها: من الكفر والفسوق والعصيان، خلقها وأراد وجودها لما تستلزمه من الحكمة التي يحبها، ولما في وجودها من دفع ماهو إليه أبغض، فهي مرادة له، وهي مبغضة له مسخوطة، كما بينّا هذا في غير هذا الموضع.

وأما الجمال الخاص، فهو سبحانه جميل يحب الجمال. والجمال الذي للخلق: من العلم والإيمان والتقوى، أعظم من الجمال الذي للخلق. وهو الصورة الظاهرة.

وكذلك الجميل من اللباس الظاهر، فلباس التقوى أعظم وأكمل . وهو يجب الجمال [الذي] للباس التقوى، أعظم مما يجب الجمال الذي للباس الرياش، ويحب الجمال الذي للخلق، أعظم مما يحب الجمال الذي للخلق . كما ثبت عنه في الصحيح أنه قال : « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً »^(١) . وفي صحيح مسلم عن النواس بن سمعان، قال : سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم فقال : « البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس »^(٢) .

وفي السنن عنه أنه قال : « أثقل ما يوضع في الميزان الخلق الحسن »^(٣) . ورؤي عنه أنه قال لأُم سلمة : « يأم سلمة ذهب حُسن الخلق بخير الدنيا والآخرة »^(٤) .

(١) الحديث عن أبي هريرة وعائشة رضي الله عنهما في : سنن أبي داود ٤/٣٠٤ (كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه)، سنن الترمذي ٢/٤١٥ (كتاب الرضاع، باب ماجاء في حق المرأة على زوجها)، ٤/١٢٢ (كتاب الإيمان، باب في استكمال الإيمان والزيادة والنقصان)؛ سنن الدارمي ٢/٢٢٣ (كتاب الرقاق، باب في حسن الخلق)، المسند (ط. المعارف) ١٣/١٣٣، (ط. الحلبي) ٢/٤٧٢، ٥٢٧، ٤٧/٦، ٩٩ .

(٢) الحديث عن النواس بن سمعان رضي الله عنه في : مسلم ٤/١٩٨٠ (كتاب البر، باب تفسير البر والإثم)؛ سنن الترمذي (٤/٢٣ - ٢٤) (كتاب الزهد، باب ماجاء في البر والإثم)؛ سنن الدارمي ٢/٣٢٢ (كتاب الرقاق، باب في البر والإثم)؛ المسند (ط. الحلبي) ٤/١٨٢ .

(٣) هذا جزء من حديث عن أبي الدرداء رضي الله عنه، وهو في : سنن الترمذي ٣/٢٤٤ (كتاب البر، باب ماجاء في حسن الخلق) وأوله : ما شيء أثقل في ميزان المؤمن . . . الحديث، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . وهو في : سنن أبي داود ٤/٣٥٠ (كتاب الأدب، باب في حسن الخلق)، المسند (ط. الحلبي) ٦/٤٤٢، ٤٤٦، ٤٤٨، ٤٥١ .

(٤) الحديث عن أنس رضي الله عنه في : مجمع الزوائد للهيتمي ٨/٢٣ - ٢٤ «عن أنس قال : قالت أم حبيبة : يارسول الله المرأة يكون لها زوجان، ثم تموت فتدخل الجنة هي وزوجها، لأيهما تكون، للأول أو للآخر؟ قال : تخير أحسنهما خلقاً كان معها في الدنيا يكون زوجها في الجنة، يأم حبيبة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة . رواه الطبراني والبراز باختصار، وفيه : عبد

ومن المعلوم أن أحب خلقه إليه المؤمنون، فإذا كان أكملهم إيماناً أحسنهم خُلُقاً، كان أعظمهم محبة له أحسنهم خُلُقاً. والخلق الدين. كما قال الله تعالى: ﴿وإنك لعلی خلق عظیم﴾. [سورة القلم، الآية: ٤]. قال ابن عباس: على دين عظيم^(١). وبذلك فسره سفيان بن عيينة وأحمد بن حنبل / وغيرهما، كما قد بيناه في غير هذا الموضع^(٢).

وهو سبحانه يبغيض الفواحش ولا يحبها ولا يأمر بها. كما قال تعالى: ﴿إن الله لا يأمر بالفحشاء﴾. [سورة الأعراف، الآية: ٢٨].

فإذا كان الجمال متضمناً لعدم ما هو أحب إليه، أو لوجود ما هو أبغض له، لزم من ذلك فوات ما في الجمال المحبوب، فإذا كان في الجمال الثياب بطر وفخر وخيلاء وسرف، فهو سبحانه لا يحب كل مختال فخور. وقال [تعالى]^(٣): ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا﴾. [سورة الفرقان، الآية: ٦٧]. بل هو يبغيض البطر الفخور المختال والمسرف. وقال: ﴿إن المسرفين هم أصحاب النار﴾. [سورة غافر، الآية: ٤٣]. فلهذا قال [ﷺ]: «لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جرّ إزاره خيلاء

= بن إسحاق وهو متروك، وقد رصيه أبو حاتم، وهو أسوأ أهل الإسناد حالاً، وقد تقدمت لهذا الحديث طرق في: النكاح».

وفي «الجامع الكبير» نسب السيوطي الحديث إلى أم سلمة رضي الله عنها وقال بعده: «طب (انظرباني في المنعجم أنكبير) وأخطيب عن أم سلمة».

(١) في «تفسير ابن كثير» ٢١٤/٨ (ط. دار الشعب): «عن ابن عباس: أي وإنك لعلی دين عظيم، وهو الإسلام. وكذلك قال مجاهد وأبو مالك والسدي والربيع بن أنس والضحاك وابن زيد». وكذا قال ابن الجوزي في تفسيره «زاد المسير» ٤٢٨/٨: «فيه ثلاثة أقوال: أحدها: دين الإسلام، قاله ابن عباس».

(٢) في تفسير ابن تيمية لسورة القلم (مجموع فتاوى الرياض ١٦/٦١): «وإنك لعلی خلق عظيم. قال ابن عباس: على دين عظيم. قوله ابن عيينة، وأخذه أحمد عن ابن عيينة، فإن الدين والعادة والخلق ألفاظ متقاربة المعنى في الذات وإن تنوعت في الصفات... إلخ».

وبطراً»^(١). فإنه يبغضه فلا ينظر إليه وإن كان فيه جمال، فإن ذلك غرق في جانب ما يبغضه الله من الخيلاء والبطر.

وكذلك الحرير فيه من السرف والفخر والخيلاء ما يبغضه الله، وينافي التقوى التي هي محبوب الله. كما ثبت في الصحيحين عنه أنه نزع فروج الحرير وقال: «لا ينبغي هذا للمتقين»^(٢).

وكذلك سائر ما حرّمه الله وكرهه مما فيه جمال، فإن ذلك لاشتماله على مكروه ألحق على ما [فيه مما يبغضه الله] أعظم مما فيه من محبوبه، ولتفويته ما هو أحب إليه منه.

وكذلك الصور الجميلة من الرجال والنساء، فإن أحدهم إذا كان خلقه سيئاً بأن يكون فاجراً أو كافراً، معلناً أو منافقاً، كان البغض أو المقت لخلقه ودينه مستعلياً على ما فيه من الجمال.

كما قال تعالى عن المنافقين: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تَعَجَّبْتَ أَجْسَامَهُمْ﴾. [سورة المنافقون، الآية: ٤].

وقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْجَبُ قَوْلَهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾. [سورة البقرة، الآية: ٢٠٤]. فهؤلاء إنما أعجبه صورهم الظاهرة للبصر، وأقوالهم الظاهرة

- (١) رواه البخاري (٢١٩/١٠) ومسلم (٢٠٨٧) من حديث أبو هريرة
(٢) الحديث عن عقبة بن عامر رضي الله عنه في: البخاري ٨٠/١ (كتاب الصلاة، باب من صلى في فُروج حرير ثم نزع). ولفظ الحديث: «أهدى إلى النبي ﷺ فُروج حرير فلبسه فصلّى فيه، ثم انصرف فنزعه نزعاً شديداً كالكاره له، وقال: لا ينبغي هذا للمتقين». والحديث: في البخاري ١٤٤/٧ (كتاب اللباس، في القباء وفروج جرير)، مسلم ١٦٤٦/٣ (كتاب اللباس، باب تحريم استعمال إناء الذهب والفضة على الرجال والنساء...); سنن النسائي ٥٦/٢ (كتاب القبلة، باب الصلاة في الحرير)، المسند (ط. الحلي) ١٤٣/٤، ١٤٩، ١٥٠. وقال النووي في شرحه على مسلم ٥٢/١٤: «الفروج بفتح الفاء وضم الراء المشددة، هذا هو الصحيح المشهور في ضبطه... قالوا: وهو قباء له شق من خلفه، وهذا اللبس المذكور في هذا الحديث كان قبل تحريم الحرير على الرجال...».

للسمع ، لما فيه من الأمر المعجب ، لكن لما كانت حقائق أخلاقهم - التي هي أملك بهم - مشتملة على ماهو من أبغض الأشياء وأمقتها إليه ، لم ينفعهم حسن الصورة والكلام .

وقال النبي ﷺ : « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم »^(١) .

وكذلك المرأة والصبي إذا كان فاجرًا ، فإن ذلك يفوت حسن الخلق والتقوى ، التي هي أحب إلى الله من ذلك ، ويوجب بغض الله للفاحشة ولصاحبها ولسيء الخلق ومقته وغضبه عليه ، ماهو أعظم بكثير مما فيه من الجمال المقتضي للمحبة . وكذلك القوة وإن كانت من صفات الكمال التي يحبها الله .

فإذا كانت الإعانة على الكفر والفجور ، الذي بغض الله له ومقته عليه ، وتقويته لما يحبه من الإيمان والعمل الصالح ، أعظم بكثير من مجرد ما في القوة من الأمر المحبوب ، ترجح جانب البغض بقدر ذلك .

فإذا كانت القوة في الإيمان ، كان الأمر كما قال النبي ﷺ : « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف »^(١) . ومن المعلوم أن الله يحب الحسنات وأهلها ويبغض السيئات وأهلها . فهو يحب كل مأمربه أمر إيجاب أو أمر استحباب ، وكل ماحمده وأثنى [عليه] من الصفات ، مثل العلم ، والإيمان ، والصدق ، والعدل ، والتقوى ، والإحسان ، وغير ذلك . ويحب المقسطين ، ويحب التوابين ، ويحب المتطهرين ، ويحب المحسنين ، والذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص ، ويبغض الكفر وأنواعه ، والظلم والكذب والفواحش ماظهر منها ومابطن ، ولا أحد أغير منه ، وكل ماحرمه يبغضه .

فإذا كان مع الجمال - أو غيره مما فيه وجه محبة - ماهو بغيض من الفواحش أو

(١) مضى تخريج الحديث من قبل .

الكذب أو الظلم أو غير ذلك، كما ذكره في قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْمُونَ﴾. [سورة الأعراف، الآية: ٣٣]. فإن ذلك يفوت ما هو أحب إلى الله من الجمال بكثير ويوجب من مقت الله وبغضه ما هو أعظم بكثير مما لمجرد الجمال من الحب، ويوجب/ النهي عما يوجب هذه السيئات الكثيرة، ويفوت الجمال الأفضل، وهو كمال الخلق وحسنه، وما في ذلك من الحسنات، وكان ما في ذلك من المبغضات وترك المحبوبات راجحاً على الحب الذي للجمال.

وعلى هذا يجري [الأمر]: على محبة الإنسان للشيء الجميل من الصورة والنظر إليه، وما يدخل في ذلك من قوة الحب والزيادة فيه التي تسمى العشق، فإن ذلك إذا خلا عن المفسدة الراجحة، مثل أن يحب الإنسان امرأته وجاريته حباً معتدلاً، أو يحب ما لا فتنة فيه، كحبه للجميل من الدواب والطياب، ويحب ولده وأباه وأمه، ونحو ذلك من محبة الرحم، كنوع من الجمال، الحب المعتدل - فهذا حسن.

أما إذا أحب النساء الأجانب أو المردان ونحو ذلك. فهذا الحب متضمن للمحبة الحيوانية، وليس في ذلك مجرد محبة الجمال، والمحبة الحيوانية مما يبغضها الله ويمقتها، وتوابعها منهي [عنها] مع ذلك، سواء كان مع المحبة فعل الفاحشة الكبرى، أو كانت للتمتع بالنظر والسمع وغير ذلك.

فالتمتع مقدمات الوطء، فإن كان الوطء حلالاً جلت مقدماته، وإن كان الوطء حراماً حرمت مقدماته، وإن كان في ذلك رفض للجمال، كما فيه رفض للذة الوطء المحرم، فإن ما في ذلك مما يبغضه الله، ويمقت عليه، أعظم مما في مجرد الجمال من الحب المتضمن، وذلك متضمن لتفويت محاب الله من التقوى والعفاف والإقبال على مصالح الدين والدنيا، أعظم بكثير مما فيها من مجرد حب

الجمال، فلهذا كانت هذه مذمومة منيهاً عنها، حتى حرم الشارع النظر في ذلك بلذة وشهوة، وبغير لذة وشهوة، إذا خاف [الناظر] الفتنة، والفتنة مخوفة من النظر إلى الأجنبية الحسنة، والأمرد الحسن في أحد قولي العلماء، الذي يصححه كثير من أصحاب الشافعي وأحمد وغيرهما، وهذا قد يختلف باختلاف العادات والطبائع.

وأما النظر للحاجة من غير شهوة ولا لذة فيجوز.

ولهذا لم يأمر الله ولا رسول ولا أهل العلم والإيمان بعشق الصور الجميلة، ولا أثنوا على ما كان كذلك، وكذلك العقلاء من جميع الأمم. ولكن طائفة من المتفلسفة والمتصوفة تأمر بذلك وتثني عليه، لما فيه - زعموا - من إصلاح النفس ورياضتها، وتهذيب الأخلاق، واكتساب الصفات المحمودة: من السباحة، والشجاعة، والعلم، والفصاحة، والاختيال ونحو ذلك من الأمور، حتى أن طائفة من فلاسفة الروم والفرس ومن اتبعهم من العرب تأمر به، وكذلك طائفة من المتصوفة، حتى يقول أحدهم: ينبغي للمريد أن يتخذ له صورة يجتمع قلبه عليها، ثم ينتقل منها إلى الله. وربما قالوا: إنهم يشهدون الله في تلك الصورة، ويقولون: هذه مظاهر الجمال، ويتأولون قوله ﷺ: «إن الله جميل يحب الجمال» على غير تأويله.

فهؤلاء - وأمثالهم - ممن يدخل في ذلك [يزعمون أن طريقهم موافق] لطريق العقل والدين والخلق، وإن اندرج في ذلك من الأمور الفاحشة ما اندرج.

وهؤلاء لهم نصيب من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرْنَا بِهَا قُلُوبُنَا﴾ [سورة الأعراف، الآية: ٢٨].

لكن العرب الذين كانوا سبب نزول هذه الآية إنما كانت فاحشتهم - التي قالوا فيها ما قالوا - طوافهم بالبيت عراة، لاعتقادهم أن ثيابهم التي عصوا الله فيها لاتصلح أن يعبد الله فيها، فكانوا ينزهون عبادة الله عن ملامسة ثيابهم، فيقعون

في الفاحشة، التي هي كشف عوراتهم .
وأما هؤلاء فأمرهم أجل وأعظم، إذ غاية ما كان أولئك يفعلون طواف الرجال
والنساء عراة مختلطين، حتى كانت [المرأة منهم] تقول:
اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا [منه] فلا أحله
ولم يكن ذلك الاختلاط والاجتماع إلا في عبادة ظاهرة، لا يتأتى فيها فعل
الفاحشة الكبرى، ولم يقصدوا بالتعري إلا التنزه من لباس الذنوب بزعمهم^(١).
فالذين يجتمعون من الرجال والنساء والمردان لسماع المكاء والتصدية،
ويطفثون المصابيح حتى لا يرى أحدهم الآخر، حتى اجتمعوا على غناء وزنا
ومطاعم خبيثة، وجعلوا ذلك عبادة - فهؤلاء شر من أولئك بلا ريب، فإن هؤلاء
فتحوا أبواب جهنم .
كما روى أبو هريرة قال: «سئل رسول الله ﷺ ما أكثر ما يدخل الناس النار؟
فقال: الأجوفان: الفم والفرج». قال الترمذي: حسن صحيح^(٢).

(١) ذكر الطبراني في تفسيره (ط. المعارف) ٣٧٧/١٢ - ٣٧٩ الأقوال المختلفة في تفسير آية ٢٨ من
سورة الأعراف، وهي موافقة لكلام ابن تيمية هنا، وأورد البيت المذكور هنا، كما ذكر ابن كثير
في تفسيره (ط. دار الشعب ٣/٣٦٨) البيت وما ذكره مجاهد في تفسير الآية ثم قال: «قلت:
كانت العرب - ماعدا قريش - لا يطوفون بالبيت في ثيابهم التي لبسوها، يتأولون في ذلك أنهم
لا يطوفون في ثياب عصوا الله فيها. وكانت قريش - وهم الخمس - يطوفون في ثيابهم، ومن أعاره
أحمسى ثوباً طاف فيه، ومن معه ثوب جديد طاف فيه، ثم يلقيه فلا يملكه أحد، فمن لم يجد
ثوباً جديداً، ولا أعاره أحمسى ثوباً، طاف عرياناً».

(٢) الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه في: سنن الترمذي ٣/٢٤٥ (كتاب البر، باب ما جاء في
حسن الخلق) ونصه: عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة،
قال: تقوى الله وحسن الخلق. وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار، قال: الفم والفرج» قال
الترمذي: «هذا حديث صحيح غريب». وجاء الحديث عن أبي هريرة أيضاً في: سنن ابن
ماجة ٢/١٤١٨ (كتاب الزهد، باب ذكر الذنوب) إلا أن فيه: «الأجوفان: الفم والفرج»؛ وفي
المسند (ط. المعارف) ٣٢/١٥، (ط. الحلبي) ٣٩٢/٢، ٤٤٢.

وكذلك رُوي عنه أنه قال: «أخوف ما أخاف عليكم شهوات الغي في بطونكم وفروجكم، ومضلات الفتن»^(٢).

وفي الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «حجبت النار بالشهوات، وحجبت الجنة بالمكاره». وفي رواية مسلم: «حُفَّتْ مكان «حجبت»^(٣).

وإذا كانت النار محجوبة ومحفوفة بالشهوات، لم يُدخل النار إلا بها، وإذا كانت الجنة محجوبة ومحفوفة بالمكاره، لم يُدخل الجنة إلا بها.

وفي صحيح البخاري عن سهل بن سعد عن رسول الله ﷺ قال: «من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة»^(٢).

وما بين لحييه يتناول الكلام والطعام.

(١) ورد الحديث عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه في: المسند (ط. الحلبي) ٤/٢٠٤ من طريقين، ولفظ الأول: «إن مما أخشى عليكم شهوات الغي في بطونكم وفروجكم ومضلات الفتن». ولفظ الطريق الثاني (وتكرر ٤/٢٣٣) مماثل له إلا أن فيه... ومضلات الهوى». وروى الهيثمي الحديث في «مجمع الزوائد» ٧/٣٠٥-٣٠٦. وقال: «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح».

(٢) جاء الحديث بلفظ «حجبت» أحياناً ولفظ «حفت» أحياناً، وجاء مختصراً في مواضع ومطولاً في مواضع أخرى عن أبي هريرة في مواضع عن أنس في مواضع أخرى في: البخاري ٨/١٠٢ (كتاب الرقاق، باب حجبت النار بالشهوات؛ مسلم ٤/٢١٧٤ (كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، الحديثان ١، ٢)؛ سنن أبي داود ٤/٣٢٦-٣٢٧ (كتاب السنة، باب في خلق الجنة والنار)، سنن الترمذي ٤/٩٧-٩٨ (كتاب صفة الجنة، باب ماجاء: حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات)؛ المسند (ط. المعارف) ١٦/٢٦٥-٢٦٦، ١٧/٣٧. وجاء الحديث في سنن النسائي والدارمي وفي الموطأ والمسند (ط. الحلبي) في مواضع كثيرة. والرواية المطولة أُولها (وهذا لفظ أبي داود): «لما خلق الله الجنة قال لجبريل: اذهب فانظر إليها... الحديث».

(٣) الحديث عن سهل بن سعد رضي الله عنه في: البخاري ٨/١٠٠ «كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان... إلخ)، سنن الترمذي ٤/٣٠ (كتاب الزهد، باب ماجاء في حفظ اللسان وأوله: من يتوكل لي ما بين... أتوكل له بالجنة». وجاء الحديث في نفس المكان ٤/٣٠-٣١. عن أبي هريرة بلفظ: من وقاه الله شر ما بين... دخل الجنة وانظر المسند (٥١/٣٣٣).

كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة وأبي شريح الخزاعي أن رسول الله ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»^(١).

فبينَّ صلى الله عليه وسلم أنه من ضمن له هذين ضمن له الجنة، وهذا يقتضي أن من هذين يُدخل النار، ولهذا حرَّم الله الفواحش مظهر منها ومابطن، وحرَّم أيضاً انتهاك الأعراض، وجعل / في القذف بالفاحشة من العقوبة المقدرة - وهي حد القذف - [ثمانين] جلدة.

وبينَّ صلى الله عليه وسلم أن الزنا من الكبائر، وأن قذف المحصنات الغافلات من الكبائر، وهو من نوع الكبائر، إذا لم يأت عليه [القاذف] بأربعة شهداء، وإن كان قد وقع، فإنه أظهر ما يجب الله إخفائه.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾. [سورة النور، الآية: ١٩].

وفي الحديث الصحيح قال النبي ﷺ: «كل أمتي معافٍ إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم يصبح وقد ستره الله عليه، فيقول: يا فلان عملت البارحة كذا وكذا، بات يستره ربه ويصبح يكشف ستره»^(٢).

وقال: «من ابتلي من هذه القاذورة بشيء فليستتر بستر الله، فإنه من يبدي لنا

(١) هذا جزء من حديث عن أبي هريرة رضي الله عنه (قال الترمذي: وفي الباب عن عائشة وأنس وأبي شريح الكعبي وهو العدوي واسمه خويلد بن عمرو) في: البخاري ١١/٨ (كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر... إلخ)، ٣٢/٨ (عن أبي شريح) (كتاب الأدب، باب إكرام الضيف... إلخ)، ١٠٠/٨ (كتاب الرقاق، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر... إلخ) مسلم ٦٨/١ (كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت إلا عن الخير)، سنن الترمذي ٧٠/٤ (كتاب القيامة، باب منه)؛ المسند (ط. المعارف) ٤٩/١٤. (ط. الحلبي) ٤٣٣/٢، ٣١/٤. وهو في مواضع أخرى في المسند.

(٢) الحديث بألفاظ مقاربة عن أبي هريرة رضي الله عنه في: البخاري ٢٠/٨ (كتاب الأدب، باب ستر المؤمن على نفسه)؛ مسلم ٢٢٩١/٤ (كتاب الزهد، باب النهي عن هتك الإنسان ستر نفسه).

صفحته نقم عليه كتاب الله»^(١).

وفي الصحيحين عن صفوان بن محرز أن رجلاً سأل ابن عمر: كيف سمعت النبي ﷺ يقول في النجوى؟ قال: «يدنو أحدكم من ربه حتى يضع كنفه عليه، فيقول: عملت كذا وكذا؟ فيقول: نعم، [ويقول: عملت كذا وكذا؟ فيقول: نعم] فيقرره. ثم يقول سترتها عليك في [الدنيا] وأنا أغفرها لك اليوم؟»^(٢). ولهذا يكثر وقوع الناس في أحد هذين الذنبتين.

فمن الناس من يبتلي بالفاحشة وإن كان ممسكاً عن الكلام، ومن الناس من يبتلي بالكلام والاعتداء على غيره بلسانه وإن كان عفيفاً عن الفاحشة. وأيضاً فإن [من] الكلام المنهي عنه: الخوض في الدين بالبدع والضلالات، مع تضمينه لشهوة الطعام. وما بين الفرجين يتضمن أقوى الشهوات، وذلك من الاستمتاع بالخلق في الدنيا، كما جمع [الله تعالى] بينهما بقوله: ﴿فاستمتعوا بخلقهم فاستمتعتم بخلقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلقهم وخضتم كالذي خاضوا﴾. [سورة التوبة، الآية: ٦٩]. الأول: يتضمن الشبهات. والثاني: يتضمن الشهوات. الأول يتضمن الدين الفاسد. والثاني يتضمن الدنيا/ الفاجرة.

وكان السلف يحذرون من هذين النوعين: من المبتدع في دينه، والفاجر في

(١) الحديث عن زيد بن أسلم رضي الله عنه في: الموطأ ٢/٨٢٥ (كتاب الحدود، باب ماجاء فيمن اعترف على نفسه بالزنا) ولفظه: أن رجلاً اعترف على نفسه بالزنا. فأمر به رسول الله ﷺ فجلد. ثم قال: «أيها الناس، قد آن لكم أن تنتهوا عن حدود الله. من أصاب من هذه القاذورات شيئاً فليستر بستر الله، فإنه من يدي لنا صفحته نقم عليه كتاب الله».

(٢) الحديث عن صفوان بن محرز رضي الله عنه في: البخاري ٨/٢٠ (كتاب الأدب، باب ستر المؤمن على نفسه)، ٩/١٤٨ (كتاب التوحيد، باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم)، مسلم ٤/٢١٢٠ (كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل . . .) وأوله: يُدني المؤمن . . . الحديث. وجاء الحديث مطولاً في المسند (ط. المعارف) ٧/٢٥٤، ٨/١٥٥ - ١٥٦.

دنياء. كل من هذين النوعين - وإن لم يكن كفرًا محضًا - فهذا من الذنوب والسيئات التي تقع من أهل القبلة.

وجنس البدع وإن كان شرًا، لكن الفجور شر من وجه آخر، وذلك أن الفاجر المؤمن [لا] يجعل الفجور شرًا من الوجه الآخر الذي هو حرام محض، لكن مقرونًا باعتقاده لتحريمه، وتلك حسنة في أصل الاعتقاد، وأما المبتدع فلا بد أن تشتمل بدعته على حق وباطل، لكن يعتقد أن باطلها حق أيضًا، ففيه من الحسن ما ليس في الفجور، ومن السيء ما ليس في الفجور، وكذلك بالعكس. فمن خلص من الشهوات المحرمة والشهوات المبتدعة وجبت له الجنة. وهذه [هي] الثلاثة: الكلام المنهي عنه، والطعام المنهي عنه، والنكاح المنهي عنه. فإذا اقترن بهذه الكبائر استحلالها كان ذلك أمرًا، فكيف إذا جعلت طاعة وقربة وعقلًا ودينًا؟!

وهؤلاء هم الذين يستحقون عقوبة أمثالهم من الأمم. كما ثبت في الصحيح أنه يكون في هذه الأمة من يمسح قردة وخنازير، وكما روي أنه سيكون فيه خسف وقذف ومسح.

وقال بعض السلف في قوله تعالى: ﴿وما هي من الظالمين ببيعد﴾. [سورة هود، الآية: ٨٣]. أي من ظالمي هذه الأمة^(١). وفي ذلك من الأحاديث ما يضيّق هذا الموضع عن ذكره، وفي عامتها يذكر استحلالهم [لها].

وأصل الضلال والغي من هؤلاء الذين يستحسنون عشق الصور ويحمدونه ويأمرون به - وإن قيدوه مع ذلك بالعفة - أن المحبة هي أصل كل حركة في العالم، فالنفس إذا لم يكن فيها حركة، ولا هي قوية الهمة والإرادة حتى تحصل لها محبة

(١) في تفسير الطبري (ط. بولاق) ٥٩/١٢: «عن قتادة في قوله: (وما هي من الظالمين ببيعد). قال يعني ظالمي هذه الأمة. قال: والله ما أجاز منها ظالمًا بعد».

شديدة، كانت تلك المنهيات عنها هي أصول الشر، وهي التي إذا ظهرت قامت الساعة.

كما في الصحيح عن أنس أنه قال: لأحدثنكم حديثاً/ لا يحدثكموه أحد بعدي، سمعته من النبي ﷺ، سمعت النبي ﷺ يقول: «إن من أشراط الساعة أن يُرفع العلم، ويظهر الجهل، ويشرب الخمر، ويظهر الزنا، ويقل الرجال، وتكثر النساء حتى يكون لخمسين امرأة قيم واحد»^(١).

فمن ظهور الجهل ظهور الكلام في الدين بغير علم، وهو الكلام بغير سلطان من الله - وسلطان الله كتابه - ومن ظهور الزنا ظهور اللواط - وإن كان له اسم يخصه - فهو شر نوعي الزنا، ولكون ظهور شهوات الغي - البطن والفرج - هي أغلب ما يدخل الناس النار، كما ذكر ذلك النبي ﷺ فيما أخرجاه في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، والتوبة معروضة بعد»^(٢).

والسرقة بالمال الذي [هو] أعظم مقصود الأكل، ولهذا يعبر عن أخذه بالأكل، كقوله [تعالى]: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾. [سورة البقرة، الآية: ١٨٨]. وهذه الثلاثة هي التي يعقد الفقهاء فيها أبواب الحدود: [باب] حد الزنا،

(١) الحديث - بالفاظ متقاربة - عن أنس بن مالك رضي الله عنه في: البخاري ٢٣/١ (كتاب العلم، باب رفع العلم وظهور الجهل)، ٣٧/٧ (كتاب النكاح، باب يقل الرجال ويكثر النساء)، ١٠٤/٧ (كتاب الأشربة، أول الكتاب)، ١٦٤/٨ (كتاب الحدود، باب إثم الزناة)، مسلم ٢٠٥٦/٤ (كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه)، سنن الترمذي ٣٣٣/٣ (كتاب الفتن، باب ماجاء في أشراط الساعة)، سنن ابن ماجه ١٣٤٣/٢ (كتاب الفتن باب أشراط الساعة)، المسند (ط. الحلبي) ٩٨/٣، ١٧٦.

(٢) الحديث بهذا اللفظ عن أبي هريرة رضي الله عنه في: البخاري ١٦٤/٨ (كتاب الحدود، باب إثم الزناة).

باب حد السرقة، باب حد شرب الخمر، ورابعها باب حد القذف - مندرجة فيها بين لحييه وبين رجله.

وقد روى هذا الحديث البخاري^(١) عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزني العبد حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن [ولا يقتل وهو مؤمن]». قال عكرمة: قلت لابن عباس: كيف يُنزع الإيمان منه؟ قال: هكذا وشبك بين أصابعه. ثم أخرجها، فإن تاب عاد إليه هكذا، وشبك بين أصابعه^(٢).

فإذا اقترن بهذه الكبائر تلك المحبة [في نفس صاحبها فإنها] توجب حركتها وقوة إرادتها، فيعطى من المال ما لم يكن يعطيه، / ويقدم على مخاوف لم يكن يقدم عليها، ويحتال ويدبر ما لم يكن يحتاله ويدبره قبل ذلك، ويصير والهاً من التفكير والنظر ما لم يكن قبل ذلك، فلما رأوا ما فيه من هذه الأمور التي هي من جنس المحمودات حمدوه بذلك. وهذا من جنس من حمد الخمر لما فيها من الشجاعة والكرم والسرور ونحو ذلك.

وذلك أن هؤلاء كلهم لحظوا ما فيها من جنس المحبوب، وأغفلوا ماتضمنه من

(١) ١٦٤/٨ (كتاب الحدود، باب إثم الزناة).

(٢) هذا الحديث في هذا الموضع عن ابن عباس رضي الله عنهما، وورد قبل قليل عن أبي هريرة رضي الله عنه في البخاري. والحديث عن أبي هريرة أيضاً في: البخاري ١٣٦/٣ (كتاب المظالم، باب النهي بغير إذن صاحبه)، ١٠٤/٧ (كتاب الأشربة، باب إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان)، ١٥٧/٨ (كتاب الحدود، باب لا يشرب الخمر)، مسلم ٧٦/١، ٧٧ (كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي ونفيه عن المتلبس بالمعصية على إرادة نفي كماله)، سنن أبي داود ٣٠٦/٤ (كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه)، سنن الترمذي ١٢٧/٤ (كتاب الإيمان، باب لا يزني الزاني وهو مؤمن)، سنن ابن ماجه ١٢٩٨/٢ - ١٢٩٩ (كتاب الفتن، باب النهي عن النهبة)، سنن الدارمي ١١٥/٢ (كتاب الأشربة، باب في التغليظ لمن شرب الخمر)، المسند (ط. المعارف) ٤١/١٣.

جنس المذموم . فإن الذي يورثه العشق من نقص العقل والعلم ، وفساد الخلق والدين ، والاشتغال عن مصالح الدين والدنيا ، أضعاف مايتضمنه من جنس المحمود .

وأصدق شاهد على ذلك مايعرف من أحوال الأمم وسماع أخبار الناس في ذلك ، [فهو] يغني عن معاينة ذلك وتجربته ، ومن جرّب ذلك أو عاينه اعتبر بما فيه كفاية ، فلم يوجد قط عشق إلا وضرره أعظم من منفعته .

ولهذا قال أبو القاسم القشيري في رسالته^(١) : «ومن أصعب الآفات في هذه الطريقة صحبة الأحداث . ومن ابتلاه الله بشيء من ذلك فليجمع الشيوخ : هذا عبد أهانه الله وخذله ، بل عن نفسه شغله ، ولو لألف ألف كرامة أهله . وهب أنه بلغ رتبة الشهداء ، لما في الخبر من التلويح بذلك ، أليس قد شغل ذلك القلب بمخلوق؟! وأصعب من ذلك تهوين ذلك على القلب ، حتى يعد ذلك يسيراً ، [وقد] قال الله تعالى : ﴿وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم﴾ . [سورة النور ، الآية : ١٥] .

وهذا الواسطي [رحمه الله] يقول : إذا أراد الله هوان عبدٍ ألقاه إلى هؤلاء الأتنان والجيف» .

وقال^(٢) : «سمعت أبا عبد الله الصوفي يقول : سمعت محمد بن أحمد النجار يقول : سمعت أبا عبد الله الحصري / يقول : سمعت فتحاً الموصلي يقول : صحبت ثلاثين شيخاً كانوا يعدون من الأبدال ، فكلهم أوصوني عند فراقهم ، وقالوا [لي] : اتق معاشرة الأحداث ومخالطتهم . ومن ارتقى في هذا الباب عن حال الفسق ، وأشار إلى أن ذلك من بلايا

(١) ٧٤٤/٢ - ٧٤٥ .

(٢) بعد كلامه السابق مباشرة (٧٤٥/٢)

الأرواح، وأنه لا يضر، فما قالوه من وساوس القائلين بالسماع^(١)، وإيراد حكايات عن [بعض] الشيوخ^(٢)، كان الأولى بهم إسبال الستر على هنتهم وآفاتهم، فذلك نظير الشرك وقرين الكفر.

فليحذر المريد [من] مجالسة الأحداث ومخالطتهم، فإن اليسير منه فتح باب الخذلان، وبدء حال الهجران، ونعوذ بالله من قضاء السوء».

وهنا أصل عظيم نافع يجب اعتباره، وهو أن الأمور المذمومة في الشريعة - كما ذكرناه - هو ما ترجح فسادُه على صلاحه، كما أن الأمور المحمودة ما ترجح صلاحه على فسادِه، فالحسنات تغلب فيها المصالح، والسيئات تغلب فيها المفاسد، والحسنات درجات بعضها فوق بعض، والسيئات بعضها أكبر من بعض، فكما أن أهل الحسنات ينقسمون إلى الأبرار المقتصدين والسابقين المقربين، فأهل السيئات ينقسمون إلى الفجار الظالمين والكفار المكذبين، وكل من هؤلاء هم درجات عند الله.

ومن المعلوم أن الحسنات كلما كانت أعظم كان صاحبها أفضل، فإذا انتقل الرجل من حسنة إلى أحسن منها، كان في مزيد التقريب، وإن انتقل إلى ما هو دونها، كان في التأخر والرجوع. وكذلك السيئات كلما كانت أعظم كان صاحبها أولى بالغضب واللعنة والعقاب.

وقد قال تعالى: ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدین درجة﴾. [سورة النساء، الآية: ٩٥]^(٣).

وقال: ﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام﴾. إلى قوله: ﴿الذين

(١) في «القشيرية» بالشاهد. وفي الأصل: «بالسما» وبعدها بياض بمقدار كلمة. ورجحت أن يكون الصواب «بالسما».

(٢) في الأصل حرفت الآية هكذا لا يستوي المؤمنون من القاعدون

آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون ﴿١﴾ . [سورة التوبة، الآية: ٢٠] (١) .

وقال: ﴿لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل﴾ . [سورة الحديد، الآية: ١٠] .

وقال: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾ . [سورة المجادلة، الآية: ١١] .

وكذلك قال في السيئات: ﴿إنما النسيء زيادة في الكفر﴾ . [سورة التوبة، الآية: ٣٧] .

وقال: ﴿زدناهم عذاباً فوق العذاب﴾ . [سورة النحل، الآية: ٨٨] .
وقال: ﴿وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم﴾ . [سورة التوبة، الآية: ١٢٥] .

وقال: ﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً﴾ . [سورة البقرة، الآية: ١٠] .
وقال: ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً﴾ . [سورة الإسراء، الآية: ٨٢] .

ومعلوم أن التوبة هي جماع الرجوع من السيئات إلى الحسنات، ولهذا لا يحبط جميع السيئات إلى التوبة. والردة هي جماع الرجوع من الحسنات إلى السيئات، ولهذا لا يحبط جميع الحسنات إلا الردة عن الإيمان.

وكذلك ما ذكرناه في تفاوت السيئات، هو في الكفر والفسق والعصيان، فالكفار بعضهم دون بعض. ولهذا يذكر الفقهاء في باب الردة والإسلام: انتقال الرجل - كأحد الزوجين - من دين إلى دين آخر: انتقال إلى دين خير من دينه، أو دون دينه، أو مثل دينه، فيقولون: إذا صار الكتابي مجوسياً أو مشركاً فقد انتقل إلى شر من دينه، وإذا صار المشرك أو المجوسي كتابياً فقد انتقل إلى خير من دينه،

(١) سقطت كلمة «وأنفسهم» من الآية الكريمة في الأصل.

وإذا تهوّد النصراني - أو بالعكس - فقد انتقل إلى نظير دينه . والتمجّس يُقر عليه بالاتفاق ، وأما الإشرّك فلا يُقر عليه إلا بعض الناس عند بعض العلماء ، والصابئة نوعان عند المحققين ، وعلى قولين عند آخرين . ومعرفة مراتب الأديان محتاج إليها في مواضع كثيرة لمعرفة مراتب الحسنات .

/والفقهَاء يذكرون ذلك لأجل معرفة أحكامهم وتناكحهم وذبائحهم ، وفي دمائهم وقتالهم وإقرارهم بالجزية المضروبة عليهم ، ونحو ذلك من الأحكام التي جاء بها الكتاب والسنة في أهل الملل والأحزاب ، الذين قال الله فيهم : ﴿ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده﴾ . . [سورة هود ، الآية : ١٧] .

وقد قال الله تعالى لنبيه : ﴿فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تنفع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتابٍ وأمرت لأعدل بينكم﴾ . [سورة الشورى ، الآية : ١٥] .

والعدل وضع كل شيء في موضعه ، كما أن الظلم وضع الشيء في غير موضعه . ولهذا لما اقتتلت فارس المجوس والروم النصارى ، وكان النبي ﷺ بمكة إذ ذاك ، وهو في طائفة قليلة ممن آمن به ، كان هو وأصحابه يحبون أن تغلب الروم ، لأنهم أهل كتاب ، وكان المشركون يحبون أن تغلب فارس ، لأنهم من جنسهم ، ليسوا أهل كتاب ، فأنزل الله في ذلك : ﴿آلم * غلبت الروم في أدنى الأرض﴾ . [سورة الروم ، الآية : ٢٠] . والقصة مشهورة في كتب الحديث والتفسير والمغازي .

وإذا كان كذلك فقد يكون الرجل على طريقة من الشر عظيمة ، فينتقل إلى ما هو أقل منها شرّاً وأقرب إلى الخير ، فيكون حمد تلك الطريقة ومدحها لكونها طريقة الخير الممدوحة . مثال ذلك أن الظلم كله حرام مذموم ، فأعلاه الشرك ، فإن الشرك لظلم عظيم ، والله لا يغفر أن يشرك به ، وأوسطه ظلم العباد بالبغي والعدوان ، وأدناه ظلم العبد نفسه فيما بينه وبين الله ، فإذا كان الرجل مشركاً كافراً فأسلم باطناً وظاهراً ، بحيث صار مؤمناً ، وهو مع إسلامه يظلم الناس ويظلم

نفسه ، فهو خير من أن يبقى على كفره ولو كان تاركها لذلك الظلم .
وأما إذا أسلم ظاهراً فقط ، وهو منافق في الباطن ، / فهذا في الآخرة في الدرك
الأسفل من النار . وأما في الدنيا فقد يكون أضرَّ على المسلمين منه لو بقي على
كفره ، وقد لا يكون كذلك ، فإن إضرار المنافقين بالمؤمنين يختلف باختلاف
الأحوال .

لكن إذا أسلم نفاقاً فقد يرجى له حسن الإسلام فيصير مؤمناً ، كمن أسلم
تحت السيف ، وكذلك من أسلم لرغبةٍ أو لرغبةٍ أو لنحو ذلك . فالإسلام والإيمان
أصل كل خير وجماعه .

وكذلك [من] كان ظالماً للناس في نفوسهم وأموالهم وأعراضهم ، فانتقل عن
ذلك إلى ما يظلم به نفسه خاصة : من خمر وزنا ، فهذا أخف لإثمه وأقل لعذابه .
وهكذا النحل التي فيها بدعة ، قد يكون الرجل رافضياً فيصير زنديقاً ، فذلك
خير له . وقد يكون جهمياً قدرياً فيصير جهمياً غير قدرى ، أو قدرياً غير جهمي .
أو يكون من الجهمية الكبار ، فيتجههم في بعض الصفات دون بعض ، ونحو
ذلك .

فهؤلاء المتفلسفة والمتصوفة ونحوهم ، ممن مدح العشق والغناء ونحو ذلك ،
وجعلوه مما يستعينون به على رياضة أنفسهم وتهذيبها وصلاحها من هذا الباب ،
فإن هؤلاء في طريقهم من الشرك والضلال مالا يحصيه إلا ذو الجلال ، فإن
المتفلسفة قد يعبدون الأوثان والشمس والقمر ونحو ذلك ، فإذا صار أحدهم
يروض نفسه بالعشق لعبادة الله وحده . أو رياضة مطلقة لا يعبد فيها غير الله ،
كان ذلك خيراً له من أن يعبد غير الله .

وكذلك الاتحادية الذين يجعلون الله هو الوجود المطلق ، أو يقولون : إنه يحلّ
في الصور الجميلة ، متى تاب الرجل منهم من هذا ، وصار يسكن نفسه بعشق
بعض الصور ، وهو لا يعبد إلا الله وحده ، كانت هذه الحال خيراً من تلك حال .

فهذه الذنوب مع صحة التوحيد، خير من فساد التوحيد مع عدم هذه الذنوب. ولهذا نجد الناس يفضلون من كان من الملوك ونحوهم إنما يظلم نفسه بشرب الخمر والزنا أو الفواحش ويتجنب ظلم الرعية، ويتحرى العدل فيهم، على من كان يتجنب الفواحش والخمر والزنا وينتصب لظلم الناس في نفوسهم وأموالهم وأعراضهم.

وهؤلاء الظالمون قد يجعلون الظلم ديناً يتقربون به بجهلهم، كما أن أولئك الظالمين لأنفسهم قد يجعلون ذلك بجهلهم ديناً يتقربون به. فالشيطان قد زين لكثير من هؤلاء وهؤلاء سوء عملهم فأوّه حسناً.

لكن كثير من الناس يجمعون بين هذا وهذا، فإن من عقوبة السيئة السيئة بعدها، ومن ثواب الحسنة الحسنة بعدها. والحسنات والسيئات قد تتلازم ويدعو بعضها إلى بعض. كما في الصحيح عن عبدالله بن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً. وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار، ولا يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً»^(١)

فالصدق مفتاح كل خير، كما أن الكذب مفتاح كل شر. ولهذا يقولون عن

(١) الحديث - بالفاظ متقاربة - عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه في: البخاري ٢٥/٨ (كتاب الأدب، باب قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾، مسلم ٢٠١٣/٤ (كتاب البر، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله) سنن الترمذي ٢٢٤/٣ - ٢٢٥ (كتاب البر، باب ماجاء في الصدق والكذب). سنن أبي داود ٤٠٧/٤ (كتاب الأدب، باب التشديد في الكذب) وأوله: إياكم والكذب. . . وجاء الحديث مع اختلاف في الألفاظ في: سنن ابن ماجه ١٨/١ (المقدمة، باب اجتناب البدع والجدل)، سنن الدارمي ٢٩٩/٢ - ٣٠٠ (كتاب الرقاق، باب في الكذب، المسند (ط. المعارف) ٢٣١/٥، ٢٧٥، ٣٤٣. وفي عدة مواضع في الجزء السادس منه.

بعض المشايخ إنه قال لبعض من استتابه من أصحابه : أنا لاأوصيك إلا بالصدق . فتأملوا فوجدوا الصدق يدعوه إلى كل خير.

ولهذا فرّق الله سبحانه بين أهل السعادة وأهل الشقاوة بذلك فقال : ﴿فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين﴾ والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون* لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين* ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويمجزهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون﴾ . [سورة الزمر، الآيات : ٣٢ - ٣٥] (١).

وترتيب الكبائر ثابت في الكتاب والسنة، كما في الصحيحين عن عبدالله بن مسعود قال : قلت : يارسول أي الذنب أعظم؟ قال : «أن تجعل الله نذًا وهو خلقك» . قلت (٢) : ثم أي؟ قال : «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك» . قلت : ثم أي؟ قال : «أن تزاني بحليلة جارك» . وتصديق ذلك في كتاب الله : ﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون﴾ . [سورة الفرقان، الآية : ٦٨] (٣).

ولهذا قال الفقهاء : أكبر الكبائر الكفر، ثم قتل النفس بغير حق، ثم الزنا. لكن النبي ﷺ ذكر لابن مسعود من جنس أعلى فأعلى : الكفر : هو أن تجعل لله

(١) الآية ٣٢ في الأصل محرفة تماما .

(٢) في الأصل : «قال : قلت» .

(٣) الحديث - بالفاظ متقاربة - عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه في : البخاري ٨/٨ (كتاب الأدب، باب قتل الولد خشية أن يأكل معه)، ١٦٤/٨ (كتاب الحدود، باب إثم الزناة) . ١٥٢/٩ (كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى : ﴿فلا تجعلوا لله أنداداً﴾) . والحديث في مواضع أخرى في البخاري، وفي : مسلم ٩٠/١، ٩١ (كتاب الإيثار، باب كون الشرك أقبح الذنوب، سنن الترمذي ١٧/٥ - ١٨ (كتاب التفسير، تفسير سورة الفرقان)، سنن أبي داود ٣٩٤/٢ (وكتاب الطلاق، باب في تعظيم الزنا)، سنن النسائي ٨٢/٧ - ٨٣ (كتاب التحريم، باب ذكر أعظم الذنب)؛ المسند (ط . المعارف) ٢١٧/٥، ٧٦/٦، ٨٦ - ٨٧ .

نداً، بخلاف الكتابي الذي ليس بمشرك، فإنه دون ذلك . وأعظم القتل ولدك، وأعظم الزنا [الزنا] بحليلة الجار.

وهذا كما ذكرنا أن الظلم ثلاث مراتب: الشرك، ثم الظلم للخلق، ثم ظلم النفس . فالقتل من ظلم الخلق . فإذا [كان] قتلاً للولد الذي هو بعضه منك كان فيه الظلمان، والزنا هو من ظلم النفس، لكن إذا كان بحليلة الجار صار فيه الظلمان أيضاً . لكن المغلب في القتل ظلم الغير، والظلم في الزنا ظلم النفس . ولهذا كان القود حقاً للآدمي إن شاء استوفاه وإن شاء عفا عنه، وكان حد الزنا حدّاً لله، ليس لآدمي فيه حق معين، لكن قد يقترن ببعض أنواع الزنا، ويقتضي أموراً تضر الناس، يكون بها أعظم من قتل لا يضر به إلا المقتول فقط . وأيضاً فقتل النفس يدخل فيه من التأويل ما ليس يدخل في الزنا، فإن حلاله / بُيِّنَ من حرامه، بخلاف القتل فإن فيه ما يظهر تحريمه، وفيه ما يظهر وجوبه أو استحبابه أو حله، وفيه ما يشتهه . ولهذا جعل الله فيه شيئاً، ولم يجعل ذلك في الزنا بقوله : ﴿ولا يقتلون النفس﴾ . [سورة الفرقان : ٦٨] .

فصل

والله قد خلق الصوت الحسن، وجعل النفوس تحبّه وتلتذ به، فإذا استعنا بذلك في استماع مأمرونا باستماعه، وهو كتابه، وفي تحسين الصوت به، كما أمرنا بذلك حيث قال: «زينوا القرآن بأصواتكم». وكما كان يفعل أصحابه بحضرته [مثل] أبي موسى وغيره - كنا قد استعملنا النعمة في الطاعة، وكان هذا حسناً مأموراً به، كما كان عمر بن الخطاب يقول لأبي موسى: «يا أبا موسى ذكرنا ربنا» فيقرأ وهم يستمعون. وكان أصحاب محمد ﷺ إذا اجتمعوا أمروا واحداً منهم أن يقرأ والباقي يستمعون.

فهذا كان استماعهم، وفي هذا السماع كانوا يستعملون الصوت الحسن، ويجعلون التذاذهم بالصوت الحسن عوناً لهم على طاعة الله وعبادته باستماع كتابه، فيثابون على هذا الالتذاذ، إذ اللذة المأمور بها المسلم يثاب عليها كما يثاب على أكله وشربه ونكاحه، وكما يثاب على لذات قلبه بالعلم والإيمان، فإنها أعظم اللذات، وحلاوة ذلك أعظم الحلاوات.

ونفس التذاذه وإن كان متولداً عن سعته /، وهو في نفسه ثواب، فالمسلم يثاب على عمله وعمل ما يتولد عن عمله، ويثاب عما يلتذ به من ذلك مما هو أعظم لذة منه، فيكون متقلّباً في نعمة ربه وفضله.

فأما أن يُستدل بمجرد استلذاذ الإنسان للصوت أو ميل الطفل إليه، أو استراحة البهائم به، على جواز أو استحباب في الدين، فهو من أعظم الضلال، وهو كثير فيمن يعبد الله بغير العلم المشروع.

ومن المعلوم أن الأطفال والبهائم تستروح بالأكل والشرب، فهل يُستدل بذلك على أن كل أكل وشرب فهو حسن مأمور به؟!.

وأصل الغلط في هذه الحجج الضعيفة أنهم يجعلون الخاص عاماً في الأدلة المنصوصة، وفي عموم الألفاظ المستنبطة، فيجنحون إلى [أن] الألفاظ في الكتاب والسنة أباحت أو حمدت نوعاً من السماع، يدرجون فيها سماع المكاء والتصدية، أو يجنحون إلى المعاني التي دلت على الإباحة أو الاستحباب في نوع من الأصوات والسماع، يجعلون ذلك متناولاً لسماع المكاء والتصدية.

وهذا جمع بين مافرق الله بينه، بمنزلة قياس الذين قالوا إنها البيع مثل الربا. وأصل هذا قياس المشركين الذين عدلوا بالله، وجعلوا لله أنداداً سووهم برب العالمين في عبادتها أو اتخاذها الهة، وكذلك من عدل رسوله متنبئاً، كمسيلمة الكذاب، أو عدل بكتابه وتلاوته واستماعه كلاماً آخر أو قراءته أو سماعه، أو عدل بما شرعه من الدين ديناً آخر شرعه له شركاؤه، فهذا كله من فعل المشركين، وإن دخل في بعضه من للمؤمنين قوم متأولين، فالناس كما قال الله تعالى: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾. [سورة يوسف، الآية: ١٠٦].

فالشرك في هذه الأمة أخفى من ديب النمل، وهذا مقام ينبغي للمؤمنين التدبر فيه، فإنه ما بديل دين الله في الأمم المتقدمة وفي هذه الأمة إلا بمثل هذا القياس، ولهذا قيل: ما عُبِدَت الشمس والقمر إلا بالمقاييس.

وأصل الشرك أن تعدل بالله تعالى مخلوقاته في بعض ما يستحقه وحده، فإنه لم يعدل أحد بالله شيئاً من المخلوقات في جميع الأمور، فمن عبد غيره أو توكل عليه فهو مشرك به، كمن عمد إلى كلام الله الذي أنزله، وأمر باستماعه، فعدل به سماع بعض الأشعار.

وقد روى عن النبي ﷺ أنه قال: «فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه». رواه الترمذي وغيره^(١).

(١) لم اجد هذا الحديث في سنن الترمذي، ولكني وجدته في سنن الدارمي ٤٤١/٢ (كتاب فضائل القرآن، باب فضل كلام الله على سائر الكلام) ونصه.. عن أبي سعيد الخدري قال: قال =

ورُوي أيضًا عنه: «ماتقرب العباد إلى الله [شيء]»^(١) أحب إليه مما خرج منه»^(٢) يعني القرآن. وهذا محفوظ عن خباب بن الارت، أحد المهاجرين الأولين السابقين. قال: «ياهناء»^(٣) تقرب إلى الله بما استطعت، فلن يتقرب إليه بشيء = رسول الله ﷺ: «من شغله قراءة القرآن عن مسألتي وذكرى أعطيته أفضل ثواب السائلين وفصل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه»، ثم ذكر الدارمي في نفس الصفحة حديثًا آخر عن شهر بن حوشب قال: قال رسول الله ﷺ: «فضل كلام الله على خلقه كفضل الله على خلقه». وشهر ضعيف وذكر البخاري في كتاب «خلق أفعال العباد» ص ١٣٢ (ضمن مجموعة عقائد السلف) مايلي: «وقال أبو عبد الرحمن السلمي: فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الرب على خلقه» وذكر أبو سعيد عثمان بن سعيد الدارمي حديث أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) المتقدم الذي أورده الإمام أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي في سننه في كتابه الرد على الجهمية، ص ٣٢٤ (ضمن مجموعة عقائد السلف) ومن روى هذا الحديث أيضًا عبد الله بن أحمد في السنة ص: ٢٢ واللالكائي وأحمد في السنة على الحسن مرفوعًا. وذكر السيوطي في «الجامع الكبير» الحديث ونصه: «فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الرحمن على خلقه» ثم قال: «هب البيهقي في شعب الإيمان» عن أبي هريرة ورواه في الأساء والصفات ص: ٢٣٩.

- (١) زدت كلمة «بشيء» إلى الأصل ليستقيم المعنى.
- (٢) لم أجد الحديث بهذه الألفاظ في سنن الترمذي فلعل الشيخ رواه من حفظه ولكني وجدت في سنن الترمذي ٢٤٩/٤ - ٢٥٠ (كتاب فضائل القرآن، باب منه) حديثين: الأول عن أبي أمامة قال: قال النبي ﷺ: «ماأذن الله لعبد في شيء أفضل من ركعتين يصليهما، وإن البرليذر على رأس العبد مادام في صلاته، وماتقرب العباد إلى الله عز وجل بمثل ماخرج منه. قال أبو النضر: يعني القرآن». وقد روى هذا الحديث عن زيد بن أرقط عن جبير بن نفير عن النبي ﷺ مرسلًا: ثم ذكر الترمذي حديثًا آخر عن زيد بن أرقط عن جبير بن نفير قال رسول الله ﷺ: «إنكم لن ترجعوا إلى الله بأفضل مما خرج منه. يعني القرآن». ثم قال الترمذي: «هذا حديث غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه. وبكر بن خنيس قد تكلم فيه ابن المبارك وتركه في آخر أمره». والحديث أخرجه أيضًا الحاكم في المستدرک ٤٤١/٢ وعنه البيهقي في الأساء ص ٢٣٦ وقال الحاكم صحيح على شرط الشيخين والحديث صحيح بشواهده.
- وأورد الإمام أحمد حديث أبي أمامة المتقدم في مسنده (ط. الحلبي) ٢٦٨/٥.
- (٣) في الأصل ياهساه (بدون نقط). وفي «لسان العرب» مادة «هنا» أن قولنا: ياهناه: معناه =

أحب إليه من كلامه»^(٤)، فإذا عدل بذلك مائزَه الله عنه ورسوله بقوله تعالى : ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له﴾ . [سورة يس ، الآية : ٦٩] . وجعله قرآناً للشيطان ، كما في الحديث : «فما قرآني؟ قال : الشعر» كان هذا قد عدل كلام الرحمن بكلام الشيطان . وهذا قد جعل الشيطان عدلاً للرحمن ، فهو من جنس الذين قال الله فيهم : ﴿فكذبوا فيها هم والغاوون﴾ وجنود إبليس أجمعون* قالوا وهم فيها يختصمون* تالله إن كنا لفي ضلال مبين* إذ نسويكم برب العالمين* . [سورة الشعراء ، الآيات : ٩٤ - ٩٨] .

والاستدلال بكون الصوت الحسن نعمة ، واستلذاذ النفوس به ، على جواز استعماله في الغناء ، أو استحباب ذلك في بعض الصور ، مثل الاستدلال بكون الجمال نعمة ، ومحبة النفوس الصور الجميلة ، على جواز استعمال الجمال الذي للصبيان في إمتاع الناس به : مشاهدة ومباشرة وغير ذلك ، أو استحباب ذلك في بعض الناس به : مشاهدة ومباشرة وغير ذلك ، / أو استحباب ذلك في بعض الصور ، وهذا أيضاً قد وقع فيه طوائف من المتفلسفة والمتصوفة والعامة ، كما وقع في الصوت أكثر من هؤلاء ، لكن الواقعون في الصور فيهم من له من العقل والدين مالميس هؤلاء ، إذ ليس في هؤلاء ، إذ ليس في هؤلاء رجل مشهور بين الناس شهرة عامة ، بخلاف أهل السماع ، ولكن هم ظرّقوا لهم الطريق ، وذرّعوا

= يافلان . وأنه يقال للرجل : ياهناه . . . ومن قال للذكر : ياهناه وياهناه قال للأنتى : ياهنتاه أقبلي وياهنتاه .

(٤) في الأصل : من كلام ، وهو تحريف . وأرود البخاري الأثر عن خباب بن الأرت في كتابه «خلق أفعال العباد» صفحة ١٣٢ (مجموعة عقائد السلف) فقال : وقال عن خباب بن الأرت رضي الله عنه : تقرب إلى الله ما استطعت ، فإنك لن تقرب (الكلمة في الأصل المطبوع محرفة ولعل صوابها : تتقرب) إلى الله بشيء أحب إليه من كلامه . قال الحازمي أخرجه أبو عبيد القاسم بن سلام في فضائل القرآن وأحمد في السنة ص : ٢٠ وفي الزهد ص : ٣٥ وأبو سعيد الدارمي (٣١٠) والأجري ص : ٧٧ والحاكم وإسناده صحيح .

الذريعة، حتى آل الأمر بكثير من الناس أن قالوا وفعلوا في الصوت نظير ما قاله هؤلاء وفعلوه في الصور، يحتجون على جواز النظر إليه والمشاهدة بمثل قوله ﷺ: «إن الله جميل يحب الجمال»^(١) وينسون قوله: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»^(٢).

ويحتجون بما في ذلك من راحة النفوس ولذتها، كما يحتج هؤلاء ويكرمون ذا [الصورة] على ما يبذله من صورته وإشهادهم إياها، كما يكرم هؤلاء ذا الصوت على ما يبذله من صوته وإسماعهم إياه، بل كثيراً ما يجمع في الشخص الواحد بين الصورة والصوت كما يفعل في المغنيات من القينات.

وقد زينَ الشيطان لكثير من المتسكة والعبد أن محبة الصور الجميلة إذا لم يكن بفاحشة فإنها محبة لله، كما زينَ لهؤلاء أن استماع هذا الغناء لله، ففيهم من يقول هذا اتفاقاً، وفيهم من يظهر أنه يحبه لغير فاحشة، ويبطن محبة الفاحشة، وهو الغالب.

لكن ما أظهره من الرأي الفاسد، وهو أن يحب لله ما لم يأمر الله بمحبته، هو الذي سلط المنافق منهم على أن يجعل ذلك ذريعة إلى الكبائر، ولعل هذه البدعة منهم أعظم من الكبيرة مع الإقرار بأن ذلك ذنب عظيم والخوف من الله من العقوبة، فإن هذا غايته أنه مؤمن فاسق قد جمع سيئة وحسنه، وأولئك مبتدعة ضلّال حين جعلوا مانهى الله عنه مما أمر الله به، وزين لهم سوء أعمالهم فرأوه

(١) الحديث مع اختلاف في بعض الألفاظ - عن عبدالله بن مسعود وغيره من الصحابة رضي الله عنهم في: مسلم ٩٣/١ (كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانها). وأوله: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر...» الحديث. وجاء الحديث في المسند (ط. الحلبي) ١٣٣/٤ - ١٣٤، ١٥١.

(٢) الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه في: مسلم ١٩٨٧/٤ (كتاب البر، باب تحريم ظلم المسلم)، سنن ابن ماجه ١٣٨٨/٢ (كتاب الزهد، باب القناعة)؛ المسند (ط. المعارف) ٢٧٧/١٤ (رقم ٧٨١٤)، ط. الحلبي ٥٣٩/٢.

حسنًا، وبمثلهم يضل أولئك حتى لا ينكروا المنكر إذا اعتقدوا أن هذا يكون عبادة الله .

ومن جعل مالم يأمر الله بمحبته محبوبًا لله ، فقد شرع دينًا لم يأذن الله به ، وهو مبدأ الشرك . كما قال تعالى : ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادًا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله﴾ . [سورة البقرة، الآية : ١٦٥] .

فإن محبة النفوس الصورة والصوت قد تكون عظيمة جدًا ، فإذا جعل ذلك دينًا وسُمِّيَ لله ، صار كالأنداد والطواغيت المحبوبة تدينًا وعبادة .

كما قال تعالى : ﴿وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم﴾ [سورة البقرة، الآية : ٩٣] . وقال تعالى عنهم : ﴿أن امشوا واصبروا على آلهتكم﴾ . [سورة ص : ٦] .

بخلاف من أحب المحرمات مؤمنًا بأنها من المحرمات ، فإن من أحب الخمر والغناء والبغي والمخنث ، مؤمنًا بأن الله يكره ذلك ويبغضه ، فإنه لا يحبه محبة محضة ، بل عقله وإيمانه يبغض هذا الفعل ويكرهه ، ولكن قد غلبه هواه - فهذا قد يرحمه الله : إما بتوبة إذا قوي ما في إيمانه من بغض ذلك وكراهته حتى دفع حب الهوى ، وإما بحسنات ماحية ، وإما بمصائب مكفرة ، وإما بغير ذلك .

أما إذا اعتقد أن هذه المحبة لله ، فإيمانه بالله يقوِّي هذه المحبة ويؤيدها ، وليس عنده إيمان يزعه عنها ، بل يجتمع فيها داعي الشرع والطبع ، الإيمان والهدي ، وذلك أعظم من شرب النصراني للخمر ، فهذا لا يتوب من هذا الذنب ولا يتخلص من وباله إلا أن يهديه الله .

فتبين له أن هذه المحبة ليست محبة لله . ولا أمر الله بها ، بل كرهها ونهى عنها ، وإلا فلوترك أحدهم / هذه المحبة لم يكن ذلك توبة ، فإنه يعتقد أن جنسها دين ، بحيث يرضي بذلك من غيره ويأمره به ويقرُّه عليه ، وتركه لها كترك المؤمن بعض التطوعات والعبادات .

وليس في دين الله محبة أحد لحسنة قط، فإن مجرد الحسن لا يثيب الله عليه ولا يعاقب، ولو كان كذلك كان يوسف عليه السلام، لمجرد حسنه، أفضل من غيره من الأنبياء لحسنه، وإذا استوى شخصان في الأعمال الصالحة، وكان أحدها أحسن صورة وأحسن صوتاً، كانا عند الله سواء، فإن أكرم الخلق عند الله أتقاهم، يعم صاحب الصوت الحسن والصورة الحسنة، إذا استعمل ذلك في طاعة الله دون معصيته، كان أفضل من هذا الوجه، كصاحب المال والسلطان إذا استعمل ذلك في طاعة الله دون معصيته، فإنه بذلك الوجه أفضل ممن لم يشركه في تلك الطاعة، ولم يُمتحن بها امتُحن به، حتى خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. ثم ذلك الغير إن كان له عمل صالح آخر يساوه به، وإلا كان الأول أفضل مطلقاً.

وهذا عام لجميع الأمور التي أنعم [الله تعالى بها] على بني آدم وابتلاهم بها، فمن كان فيها شاكراً صابراً، كان من أولياء الله المتقين. وكان ممن امتُحن بمحبة حتى صبر وشكر، وإن لم يكن المبتلى صابراً شكوراً بل ترك ما أمر الله به، وفعل ما نهى الله [عنه] كان عاصياً أو فاسقاً أو كافراً، وكان من سلم من هذه المحنة خيراً منه، إلا أن يكون له ذنوب أخرى يكافيه بها.

وإن جمع بين طاعة ومعصية، فإن ترجحت طاعته كان أرجح ممن لم يكن له مثل ذلك، وإن ترجحت معصيته كان السالم من ذلك خيراً منه، فإن كان له مال يتمكن [به] في الفواحش والظلم / فخالف هواه، وأنفق فيما يبتغي به وجه الله، أحب الله ذلك منه وأكرمه وأثابه.

ومن كان له صوت حسن فترك استعماله في التخنيث والغناء، واستعمله في تزيين كتاب الله والتغني به، كان بهذا العمل الصالح، وبترك العمل السيئ، أفضل ممن ليس كذلك، فإنه يُثاب على تلاوة كتاب الله، فيكون في عمله معنى الصلاة ومعنى الزكاة.

ولهذا قال النبي ﷺ: «ما أذن الله لشيء كأذنه لنبي حسن الصوت يتغنّى بالقرآن يجهر به»، وقال: «الله أشد أذناً للرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته».

ومن كان له صورة حسنة فعفَّ عما حرم الله تعالى، وخالف هواه وجمل نفسه بلباس التقوى، الذي قال الله فيه: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتَكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسَ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾. [سورة الأعراف، الآية: ٢٦]. كان هذا الجمال يحبه الله، وكان من هذا الوجه أفضل ممن لم يؤت مثل هذا الجمال مالا يُكسَاه وجه العاصي، فإن كانت خلقت حسنة ازدادت حسناً، وإلا كان عليها من النور والجمال بحسبها.

وأما أهل الفجور فتعلوا وجوههم ظلمة المعصية حتى يُكسف الجمال المخلوق. قال ابن عباس رضي الله عنه: «إن للحسنة لنوراً في القلب، وضياء في الوجه، وقوة في البدن، وزيادة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة لظلمة في القلب، [وغبرة] في الوجه [وضعفاً] في البدن^(١)، ونقصاً في الرزق، وبغضة في قلوب الخلق»^(٢).

وهذا يوم القيامة يكمل حتى يظهر لكل أحد، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون ﴿[سورة آل عمران: الآية: ١٠٦ - ١٠٧].

(١) وانظر كتاب «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي» لابن القيم فقد ذكر هذا الأثر وتكلم عليه. وكتاب المعاصي والذنوب وأثرها السيء على الأفراد والمجتمعات والشعوب لابن الجوزي بتحقيقنا.

وقال تعالى / : ﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس في جهنم مثوى للمتكبرين ﴾ . [سورة الزمر، الآية : ٦٠] .

وقال تعالى : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة ﴾ إلى ربها ناظرة * ووجوه يومئذ باسرة * تظنُّ أن يفعل بها فاقرة ﴾ . [سورة القيامة، الآية : ٢٢ - ٢٥] .

وقال تعالى : ﴿ وجوه يومئذ مسفرة ﴾ ضاحكة مستبشرة * ووجوه يومئذ عليها غبرة * ترهقها قترة * أولئك هم الكفرة الفجرة ﴾ . [سورة عبس : ٣٨ - ٤٢] ^(١) .

وقال تعالى : ﴿ وجوه يومئذ خاشعة ﴾ عاملة ناصبة * تصلى ناراً حامية ﴾ . [سورة الغاشية، الآية : ٢ - ٤] .

و : ﴿ وجوه يومئذ ناعمة ﴾ لسعيها راضية ﴾ . [سورة الغاشية، الآية : ٨ - ٩] .

وقال تعالى : ﴿ وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه ﴾ . [سورة الكهف، الآية : ٢٩] .

وقال تعالى : ﴿ إن الأبرار لفي نعيم ﴾ على الأرائك ينظرون * تعرف في وجوههم نضرة النعيم ﴾ . [سورة المطففين، الآية : ٢٢ - ٢٤] .

وقال النبي ﷺ : « لاتزال المسألة بأحدهم حتى يجيء يوم القيامة وليس في وجهه مُزعة لحم » ^(٢) .

وقال : « من سأل الناس وله مايكفيه جاءت مسألته خدوشاً أو كدوحاً في وجهه

(١) في الأصل لم يذكر الناسخ الآية ٤١ من سورة عبس .

(٢) الحديث مع اختلاف في اللفظ عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما : مسلم ٧٢٠ / ٢ (كتاب الزكاة باب كراهة المسألة للناس) ونصه فيه : « لاتزال المسألة بأحدهم حتى يلقى الله وليس في وجهه مزعة لحم » . قال النووي في شرحه على مسلم ١٣٠ / ٧ ؟ « مُزعة لحم : بضم الميم وإسكان الزاي أي قطعة . قال القاضي قيل معناه يأتي يوم القيامة ذليلاً ساقطاً لا وجه له عند الله وقيل هو على ظاهره فيحشر ووجهه عظم لا لحم عليه عقوبة له وعلامة له بذنبه حين طلب وسأل بوجهه .

يوم القيامة»^(١).

وقال عليه السلام: «أول زمرة تلج الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم كأشد كوكب في السماء إضاءة»^(٢). وقال يوم حنين: «شاهت الوجوه»^(٣) لوجوه المشركين.

وأمثال هذا كثير مما فيه وصف أهل السعادة بنهاية الحسن والجمال والبهاء، وأهل الشقاء بنهاية السوء والقبح والعيب.

وقد قال تعالى في وصفهم في الدنيا: ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾، إلى قوله سبحانه: ﴿سيماهم في وجوههم من أثر السجود﴾. [سورة الفتح، الآية: ٢٩]. فهذه السيماء في وجوه المؤمنين. والسيما: العلامة، وأصلها من الوسم، وكثيراً ما يستعمل في الحسن، كما جاء في صفة

(١) الحديث مع اختلاف الألفاظ عن ابن مسعود رضي الله عنه في: سنن الترمذي ٨٠/٢ - ٨١ (كتاب الزكاة، باب من تحل له الزكاة)، سنن النسائي ٧٢/٥ - ٧٣ (كتاب الزكاة، باب حد الغنى)، سنن الدارمي ٣٨٦/١ (كتاب الزكاة، باب من تحل له الصدقة)، مسند أحمد (ط. المعارف) ٢٤٨/٥ - ٢٤٩، ١١٤/٦، ٢٠٠.

(٢) الحديث مع اختلاف يسير في الألفاظ عن أبي هريرة رضي الله عنه في: البخاري ١١٨/٤ (كتاب بدء الخلق، باب ماجاء في صفة الجنة)، ١٣٢/٤ (كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾)، مسلم ٢١٧٨/٤ - ٢١٧٩ (كتاب الجنة، باب أول زمرة تدخل الجنة)، سنن الترمذي ٨٥/٤ (كتاب الجنة، باب ماجاء في صفة أهل الجنة)، سنن ابن ماجه ١٤٤٩/٢ (كتاب الزهد، باب صفة الجنة)، سنن الدارمي ١٣٦/١٢، ١٤٥ - ١٤٧، ١٧٤/١٣، ٢٣٤.

(٣) الحديث عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه في مسلم ١٤٠٢/٣ (كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين).

النبي ﷺ: وسيم قسيم^(١).

وقال الشاعر:

غلام رماه الله بالحسن يافعاً له سيماء لاتشق على البصر^(٢)
وقال الله تعالى في صفة المنافقين: ﴿ولو نشاء لأريناكم فلعرفتهم
بسيماهم﴾. [سورة محمد، الآية: ٣٠]. فجعل للمنافقين سيما أيضاً.
وقال: ﴿وإذا تلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر﴾.
[سورة الحج، الآية: ٧٢]. فهذه السيماء وهذا المنكر قد [يوجد] في وجه من صورته
المخلوقة وضيفة، كما يوجد مثل ذلك في الرجال والنساء والولدان، لكن بالنفاق
قبح وجهه، فلم يكن فيه الجمال الذي يحبه الله، وأساس [ذلك] النفاق والكذب.
ولهذا يوصف الكذاب بسواد الوجه، كما يوصف الصادق ببياض الوجه، كما
أخبر الله بذلك. ولهذا روى عن عمر بن الخطاب أنه أمر بتعزيز شاهد الزور بأن
يُسودَّ وجهه ويركب مقلوباً على الدابة، فإن العقوبة من جنس الذنب، فلما اسودَّ
وجهه بالكذب وقلب الحديث سودَّ وجهه وقلب في ركوبه، وهذا أمر محسوس لمن
له قلب، فإن مافي القلب من النور والظلمة. والخير والشر، يسرى كثيراً إلى الوجه
والعين، وهما أعظم الأشياء ارتباطاً بالقلب.

(١) وردت صفة النبي ﷺ في كثير من الكتب منها ما جاء في سنن الترمذي ٢٥٩/٥ (كتاب المناقب،
باب ماجاء في صفة النبي ﷺ) «... عن أبي إسحاق قال سأل رجل البراء: أكان وجه رسول الله ﷺ
مثل السيف؟ قال: لا، مثل القمر». وذكر النووي في كتابه «تهذيب الأسماء واللغات» (ط.
المنيرة) ق ١، ج ١، ص ٢٥ في صفته ﷺ: «وجهه كالقمر ليلة البدر كأن وجهه القمر». وانظر
صفته في كتابنا «الرسول ﷺ كأنك تراه».

(٢) في الأصل: غلام وضاه. له سيما... والتصويب من «لسان العرب» (سوم). وذكر ابن
منظور أن البيت لأسيد بن عطاء الفزاري.

وقال ابن منظور: «قال ابن بري: وحكى على بن حمزة أن أبا رياش قال: لا يروي بيت ابن
عطاء الفزاري: (غلام رماه الله بالحسن يافعاً) إلا أعمى البصيرة، لأن الحسن مولود، وإنما هو:
رماه الله بالخير يافعاً».

ولهذا يروى عن عثمان - أو غيره^(١) - أنه قال: «ما أسرَّ أحد بسريرة إلا أبدأها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه»، والله قد أخبر في القرآن أن ذلك قد يظهر في الوجه، فقال: ﴿ولو نشاء لأريناكمهم فلعرفتهم بسيماهم﴾. [سورة محمد، الآية: ٣٠]، فهذا تحت المشيئة ثم قال: ﴿ولتعرفنهم في لحن القول﴾. [سورة محمد، الآية: ٣٠]. فهذا مُقسم [عليه] محقق لا شرط فيه. وذلك أن ظهور ما في قلب الإنسان على لسانه أعظم من ظهوره في وجهه، لكنه يبدو في الوجه بُدْوَاً خفياً يلعمه الله، فإذا صار خلقاً ظهر لكثير من الناس، وقد يقوى السواد والقَسَمَة حتى يظهر لجمهور الناس، وربما مسخ قرداً أو خنزيراً، كما في الأمم قبلنا، وكما في هذه الأمة أيضاً، وهذا كالصوت المصرب إذا كان / مشتملاً على كذب وفجور، فإنه موصوف بالقبح والسوء الغالب على ما فيه من حلاوة الصوت.

فذو الصورة الحسنة إما أن يترجح عنده العفة والخلق الحسن، وإما أن يترجح فيه ضد ذلك، وإما أن يتكافأ.

فإن ترجَّح فيه الصلاح كان جماله بحسب ذلك، وكان أجمل ممن لم يمتحن تلك المحنة.

وإن ترجَّح فيه الفساد لم يكن جميلاً بل قبيحاً مذموماً، فلا يدخل في قوله: إن الله جميل يحب الجمال.

وإن تكافأ فيه الأمران كان فيه من الجمال والقبح بحسب ذلك، فلا يكون محبوباً ولا مبغضاً.

والنبي ﷺ ذكر هذه الكلمة للفرق بين الكبر الذي يبغضه الله، والجمال الذي يحبه الله، فقال: «لا يدخل الجنة من [كان في] قلبه مثقال ذرة من كبر، فقال رجل: يا رسول الله: الرجل يحب أن [يكون] ثوبه حسنا ونعله حسنا، أفمن

(١) ورد أيضاً عن علي بن أبي طالب: «وانظر كتابنا» فراسة المؤمن، قصص واقعية ترى فيه جميع الآيات التي أوردها الشيخ هنا وزيادة الأحاديث النبوية الصحيحة في الفراسة.

الكبر ذلك؟ فقال: لا، إن الله جميل يحب الجمال، [الكبر] بطر الحق وغمط الناس». فأخبر أن تحسين الثوب قد يكون من الجمال الذي يحبه الله، كما قال تعالى: ﴿خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾. [سورة الأعراف، الآية ٣١]، فلا يكون حينئذ من الكبر.

وقد يُردُّ أنه [ليس] كل ثوب جميل وكل نعل جميل فإن الله يحبه، فإن الله يبغض لباس الحرير ويبغض الإسراف والخيلاء في اللباس، وإن كان فيه جمال، فإذا كان هذا في لبس الثياب، الذي هو سبب هذا القول، فكيف في غيره؟. وتفسير هذا قوله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

فَعُلم أن مجرد الجمال الظاهر في الصور والثياب لا ينظر الله إليه، وإنما ينظر إلى القلوب / والأعمال، فإن كان الظاهر مزيَّنًا مجملًا بحال الباطن أحبه الله، وإن كان مقبحًا مدنسًا بقبح الباطن أبغضه الله، فإنه سبحانه يحب الحسن الجميل، ويبغض السيئ الفاحش.

وأهل جمال الصورة يبتلون بالفاحشة كثيرًا، واسمها ضد الجمال، فإن الله سماه فاحشة وسوءًا وفسادًا وخبثًا، فقال تعالى: ﴿ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً﴾. [سورة الإسراء، الآية: ٣٢].

وقال: ﴿ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾. [سورة الأنعام، الآية: ١٥١].

وقال: ﴿أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾. [سورة الأعراف، الآية: ٨٠].

وقال: ﴿وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات﴾. [سورة هود، الآية: ٧٨].

وقال: ﴿ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث﴾. [سورة الأنبياء، الآية: ٧٤].

وقال: ﴿رَبِّ انصُرني على القوم المفسدين﴾. [سورة العنكبوت، الآية: ٣٠].
وقال: ﴿وأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾. [سورة الأعراف، الآية: ٨٤].

والفاحش والخبيث ضد الطيب والجميل، فإذا كان كذلك أبغضه الله ولم يحبه، ولم يكن مندرجاً في الجميل.
ونظير ذلك قوله ﷺ: «إن الله لا يحب الفحش ولا التفحش»^(١). وقوله: «إن الله يبغض الفاحش البذيء»^(٢)، فلو أفحش الرجل وبدأ بصوته الحسن كان الله يبغض ذلك.

ونفى المحدثين سنة من سنن النبي ﷺ الثابتة عنه في موضعين: في حق الزاني

(١) وردت هذه العبارة في حديثين مختلفين، أحدهما عن عائشة رضي الله عنها في: مسلم ١٧٠٧/٤ (كتاب السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يُرد عليهم). ومن الحديث قوله ﷺ: «مه يا عائشة فإن الله لا يحب الفحش...» والحديث الثاني في: المسند (ط. المعارف) ٢٥١/٩ - ٢٥٢ عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: الظلم ظلمات يوم القيامة، وإياكم والفحش، فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش... الحديث. وفي: سنن الترمذي ٢٢٥/٣ - ٢٢٦ (كتاب البر والصلة، باب ماجاء في التفحش) عن عبدالله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «خياركم أحاسنكم أخلاقاً، ولم يكن النبي ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً». وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

(٢) الحديث عن أبي الدرداء رضي الله عنه في: سنن الترمذي ٢٤٤/٣ (كتاب البر والصلة، باب ماجاء في حسن الخلق) ونصه: أن النبي ﷺ قال: «ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، فإن الله تعالى يبغض الفاحش البذيء». قال الترمذي: «وفي الباب عن عائشة وأبي هريرة وأنس وأسامة بن شريك. هذا حديث حسن صحيح» وهو كما قال رحمه الله ورزقنا علمه.

والزانية اللذين لم يحصنا، كما قال: «جلد مائة وتغريب عام»^(١)، وفي حق المخنث وهو إخراجهم من بين الناس، وذلك أن الفاحشة لاتقع إلا مع قدرة ومكنة الإنسان، لا يطلب ذلك إلا إذا طمع فيه بما يراه من أسباب المكنة، فمن العقوبة على ذلك قطع أسباب المكنة. فإذا تغرب الرجل عن أهله وأعوانه وأنصاره الذين يعاونونه وينصرونه ذلت نفسه وانقهرت، فكان ذلك جزاءً نكالاً من الله من الجلد، ولأنه مفسد لأحوال من يساكنه فيبعد عنهم، وكذلك المخنث يفسد أحوال الرجال والنساء جميعاً، فلا يسكن مع واحد من الصنفين.

وقد كان [من] سنة النبي ﷺ وسنة خلفائه التمييز بين الرجال والنساء والمتأهلين والعزّاب، فكان [المندوب] في الصلاة [أن يكون] الرجال في مقدم المسجد [والنساء] في مؤخره.

وقال النبي ﷺ: «خير صفوف الرجال أولها، وشرها آخرها، وخير صفوف النساء آخرها، وشرها أولها»^(٢). وقال: «يامعشر النساء لاترفعن رؤوسكن حتى يرفع الرجال رؤوسهن من ضيق الأزر»^(٣) وكان إذا سلّم لبث هنيهة هو والرجال

(١) الحديث بهذا اللفظ عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني رضي الله عنهما في: البخاري ١٧٠/٨ - ١٧١ (كتاب المحاربين من أهل الكفر والردة، باب البكران يجلدان وينفيان، باب من أمر غير الإمام بإقامة الحد نائباً عنه)؛ مسلم ١٣٢٤/٣ - ١٣٢٥ (كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنى). والحديث بمعناه عن عدد من الصحابة رضوان الله عليهم في مواضع أخرى في البخاري ومسلم وسنن أبي داود وسنن الترمذي والنسائي وابن ماجه والدارمي وفي الموطأ والمسنّد.

(٢) رواه مسلم (٣٢٦/١) كتاب الصلاة باب تسوية الصفوف وإقامتها وأبو داود (٢٥٥/١).

(٣) الحديث عن سهل بن سعد رضي الله عنه في: مسلم ٣٢٦/١ (كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف وإقامتها...)، ونصه: عن سهل بن سعد قال: لقد رأيت الرجال عاقدي أزهرهم في أعناقهم مثل الصبيان من ضيق الأزر خلف النبي ﷺ، فقال قائل: يامعشر النساء لاترفعن رؤوسكن حتى يرفع الرجال. وهو جزء من حديث طويل عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في: المسند (ط. الحلبي) ٣/٣ وأوله: أن رسول الله ﷺ قال: ألا أدلكم على ما يكفر الله به

لينصرف النساء أولاً، لئلا يختلط الرجال والنساء. وكذلك يوم العيد كان النساء يصلين [في] ناحية، فكان إذا قضي الصلاة خطب الرجال، ثم ذهب فخطب النساء، فوعظهن وحثهن على الصدقة، كما ثبت ذلك في الصحيح^(١). وقد كان عمر بن الخطاب - وبعضهم يرفعه إلى النبي ﷺ - قد قال [عن] أحد أبواب المساجد، أظنه الباب الشرقي: لو تركنا هذا الباب للنساء، فما دخله عبدالله بن عمر حتى مات.

وفي السنن عن النبي ﷺ أنه قال للنساء: «لَا تَحْقُقَنَّ الطَّرِيقَ، وَاْمْشِينَ فِي حَافَتِهِ»^(٢) أي لاتمشين في حُقِّ الطريق^(٣)، وهو وسطه. وقال علي عليه السلام: ما يغار أحدكم أن يزاحم امرأته العلوج بمنكبتها^(٤)؟ يعني في السوق.

وكذلك لما قدم المهاجرون المدينة/ كان العزَّاب ينزلون داراً معروفة لهم متميزة عن دور المتأهلين، فلا ينزل العزب بين المتأهلين. وهذا كله لأن اختلاط أحد الصنفين بالآخر سبب الفتنة، فالرجال إذا اختلطوا بالنساء كان بمنزلة اختلاط

الخطايا. . ومنه: يامعشر النساء إذا سجد الرجال فاغضضن أبصاركن لاترين عورات الرجال من ضيق الأزر.

(١) الخبر جاء في حديث متفق عليه عن صلاة العيد عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه في: البخاري ٢١/٢ - ٢٢ (كتاب صلاة العيدين، باب موعظة الإمام النساء يوم العيد). وأوله: قام النبي ﷺ يوم الفطر فصلى فبدأ بالصلاة ثم خطب. . الحديث. وهو في: مسلم ٦٠٣/٢ (كتاب صلاة العيدين، أول الكتاب)، وأورد مسلم حديثين آخرين عن ابن عباس رضي الله عنهما في الموضوع في نفس موضع الحديث السابق.

(٢) الحديث مع اختلاف في الألفاظ عن أبي أسيد الأنصاري رضي الله عنه في: سنن أبي داود ٤٩٨/٤ (كتاب الأدب، باب في مثي النساء في الطريق) وهو حديث حسن.

(٣) في الأصل: في حافة الطريق، وهو خطأ. وفي «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير الجزري ٢٤٤/١: «ليس للنساء أن يَحْقُقَنَّ الطريق، هو أن يركبن حُقَّها وهو وسطها».

(٤) هذا الأثر ورد - مع اختلاف في الألفاظ - عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في المسند (ط. المعارف) ٣٥٤/٢ - ٣٥٥.

النار والخطب، وكذلك العزب بين الأهلين فيه فتنة لعدم مايمنعه، فإن الفتنة تكون لوجود المقتضي وعدم المانع، فالمخنث الذي ليس رجلاً محضاً ولا هو امرأة محصنة، لا يمكن خلطه بواحد من الفريقين، فأمر النبي ﷺ بإخراجه من بين الناس.

وعلى هذا المخنث من الصبيان وغيرهم لا يُمكن من معاشره الرجال، ولا ينبغي أن تعاشر المرأة المتشبهة بالرجال النساء، بل يُفَرَّق بين بعض الذكران وبين بعض النساء إذا خيفت الفتنة، كما قال النبي ﷺ: «مروهم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر، وفرّقوا بينهم في المضاجع»^(١).

وقد نهي عن مباشرة الرجل الرجل في ثواب واحد، وعن مباشرة المرأة المرأة في ثواب واحد، مع أن القوم لم يكونوا يعرفون التلوط ولا السحاق، وإنما هو من تمام حفظ حدود الله، كما أمر الله بذلك في كتابه. وقد روي أن عمر بلغه أن رجلاً يجتمع إليه [نفر] من الصبيان فنهى عن ذلك.

وأبلغ عن ذلك أنه نفى شَبَّ به النساء، وهو نصر بن حجاج، لما سمع امرأة شَبَّت به وتشتهيه، ورأى هذا سبب الفتنة، فجز شعره، لعل سبب الفتنة يزول بذلك، فرآه أحسن الناس وجنتين، فأرسل به إلى البصرة، ثم إنه بعث يطلب القدوم إلى وطنه يذكر ألا ذنب [له]، فأبى عليه وقال: أما وأنا حيّ فلا^(٢).

وذلك أن المرأة إذا أمرت بالاحتجاب وترك التبرج / وغير ذلك مما هو من أسباب الفتنة بها ولها، فإذا كان في الرجال من قد صار فتنة للنساء أمر أيضاً

(١) الحديث عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده في سنن أبي داود ١٩٣/١ (كتاب الصلاة، باب متى يؤمر الغلام بالصلاة)؛ المسند (ط. المعارف) ٢١٧/١٠ - ٢١٨ (وانظر تعليق المحقق على الحديث).

(٢) ذكر ابن الجوزي خبر نصر بن حجاج في كتابه «سيرة عمر بن الخطاب» ص ٧٤ - ٧٦، وأورد الخبر الأستاذان عمر وناجي الطنطاوي في كتابهما «أخبار عمر» ص ٤٢٩ - ٤٣١، وذكرنا في تعليقهما المراجع التي أوردت الخبر.

بمباعدة سبب الفتنة، إما بتغيير هيئته، وإما بالانتقال عن المكان الذي تحصل به الفتنة فيه، لأنه بهذا يحصّن دينه، ويحصّن النساء دينهن، وبدون ذلك مع وجود المقتضي منه ومنهن لا يؤمن ذلك، وهكذا يؤمر من يفتن النساء من الصبيان أيضًا. وذلك أنه إذا احتيج إلى المباعدة التي تزيل الفتنة كان تباعد الواحد أسير من تباعد الجماعة: الرجال أو النساء، إذ ذاك غير ممكن، فتُحفظ حدود الله، ويُجانب ما يوجب تعدي الحدود بحسب الإمكان، وإذا كان هذا فيمن لاريبة فيه ولا ذنب فكيف بمن يعرف بالريبة والذنب؟.

وهكذا المرأة التي تعرف بريئة تفتن بها الرجال تبعد عن مواضع الريب بحسب الإمكان، فإن دفع الضرر عن الدين بحسب الإمكان واجب، فإذا كان هذا هو السنة فكيف بمن يكون في جمعه من أسباب الفتنة ما الله به عليم، والرجل الذي يتشبه بالنساء في زيّن؟!.

واستعمال أسماء الجمال والحسن والزينة ونحو ذلك في الأعمال الصالحة، والقبح والشين والدنس في الأعمال الفاسدة، أمر ظاهر في الكتاب والسنة وكلام العلماء، مثل اسم الطيب والطهارة، والخيث والنجاسة، ومن ذلك ما في حديث أبي ذر المشهور، وقد رواه أبو حاتم بن حبان في صحيحه، عن النبي ﷺ أنه قال: «من حكمة آل داود: حق على العاقل أن يكون له ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يكون فيها مع أصحابه الذين يخبرونه عن ذات نفسه، وساعة يخلو فيها ببلذته فيها محلٌ ومجملٌ»، / فذكر الحلّ والجمال.

وهذا يشهد لقول الفقهاء في العدالة إنها صلاح الدين والمروءة. قالوا: والمروءة استعمال ما يجملُه ويزينه، وتجنب ما يدنّسه ويشينه، وهذا يرجع إلى الحسن والقبح في الأعمال، وأن الأعمال تكون حسنة وتكون قبيحة، وإن كان الحسن هو الملائم النافع، والقبيح هو المنافي.

فالشيء يكمل ويكمل ويحسن بما يناسبه ويلائمه، وينفعه ويلتذ به، كما يفسد

ويقبح بما ينافيه ويضره ويتألم به ، والأعمال الصالحة هي التي تناسب الإنسان ، والأعمال الفاسدة هي التي تنافيه .

ولهذا لما قال بعض الأعراب : إن مدحي زين وذمي شين ، قال النبي ﷺ :
ذاك [الله] ^(١) ، فمدحه يزين عنده لأنه مدحه بحق ، وذمه يشينه لأنه حق ^(٢) .

وهذا الحسن والجمال الذي يكون عن الأعمال الصالحة في القلب يسري إلى الوجه ، والقبح والشين الذي يكون عن الأعمال الفاسدة في القلب يسري إلى الوجه ، كما تقدم . ثم إن ذلك يقوى بقوة الأعمال الصالحة والأعمال الفاسدة ، فكلمة كثر البر والتقوى قوي الحسن والجمال ، وكلمة قوي الإثم والعدوان قوي القبح والشين ، حتى ينسخ ذلك ما كان للصورة من حسن وقبح . فكم ممن لم تكن صورته حسنة ، ولكن من الأعمال الصالحة ما عظم به جماله وبهاؤه ، حتى ظهر ذلك على صورته .

ولهذا يظهر ذلك ظهوراً بيئاً عند الإصرار على القبائح في آخر العمر عند قرب الموت ، فنرى وجوه أهل السنة والطاعة كلما كبروا ازداد/ حسنها وبهاؤها ، حتى يكون [أحدهم] في كبره أحسن وأجمل منه في صغره ، ونجد وجوه أهل البدعة والمعصية كلما كبروا عظم قبحها وشينها ، حتى لا تستطيع النظر إليها من كان منبهرًا بها في حال الصغر لجمال صورتها .

وهذا ظاهر لكل أحد فيمن يعظم بدعته وفجوره ، مثل الرافضة وأهل المظالم

(١) زدت كلمة «الله» ليستقيم الكلام ، وهي جزء من الحديث ، والحديث عن البراء بن عازب رضي الله عنه في : سنن الترمذي ٦٣/٥ (كتاب تفسير القرآن ، باب سورة الحجرات) وأوله : «قام رجل فقال : يا رسول الله إن حمدي زين وإن ذمي شين . فقال النبي ﷺ : ذاك الله عز وجل» قال الترمذي : هذا حديث حسن غريب .

وفي المسند (ط . الحلبي) ٤٨٨/٣ الحديث عن الأقرع بن حابس رضي الله عنه وفيه أنه هو الذي خاطب النبي ﷺ من وراء الحجرات . وجاء الحديث مرة أخرى في المسند (ط . الحلبي) ٣٩٣/٦ . وفي المسند في الموضعين في آخر الحديثين : «كلما حدث أبو سلمة» .

والفواحش، من الترك ونحوهم، فإن الرافضي كلما كبر قَبِحَ وجهه وعظم شينه، حتى يقوى شبهه بالخنزير، وربما مُسِخَ خنزيراً وقرداً، كما قد تواتر ذلك عنهم. ونجد المردان من الترك ونحوهم قد يكون أحدهم في صغره من أحسن الناس صورة، ثم إن الذين يكثرون الفاحشة تجدهم في الكبر أقبح الناس وجوهاً، حتى إن الصنف الذي يكثر ذلك فيهم، من الترك ونحوهم، يكون أحدهم أحسن الناس صورة في صغره، وأقبح الناس صورة في كبره، وليس سبب ذلك أمراً يعود إلى طبيعة الجسم، بل العادة المستقيمة تناسب الأمر في ذلك، بل سببه ما يغلب على أحدهم من الفاحشة والظلم، فيكون مخنثاً ولوطياً وظالماً وعوناً للظلمة، فيكسوه ذلك قبح الوجه وشينه.

ومن هذا أن الذين قوي فيهم العدوان مسخهم الله قردة وخنازير من الأمم المتقدمة. وقد ثبت في الصحيح أنه سيكون في هذه الأمة أيضاً من يُمسَخَ قردة وخنازير^(١)، فإن العقوبات والثوبات من جنس السيئات والحسنات، كما قد بُيِّنَ ذلك في غير موضع.

ولاريب أن ماليس محبوباً لله، من مسخوطاته وغيرها، تَزَيَّنَ في نفوس كثير من الناس حتى يروها جميلة وحسنة، يجدون فيها من اللذات ما يؤيد ذلك، وإن كانت اللذات متضمنة لآلام أعظم منها.

كما قال تعالى: ﴿رُزِّقَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الْمَثَابِ﴾. [سورة آل عمران، الآية: ١٤].

(١) في صحيح البخاري ١٠٦/٧ (كتاب الأشربة، باب ماجاء فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه). حدثني أبو عامر - أبو مالك الأشعري - والله ما كذبتني: سمع النبي ﷺ يقول: ليكون من أمتي أقوام يستحلون الحر والحرير. الحديث وفيه: ويمسح آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة.

وقال: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنْ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾. [سورة فاطر، الآية: ٨].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾. [سورة غافر، الآية: ٣٧].

وقال: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. [سورة الأنعام، الآية: ١٠٨].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾. [سورة الأنفال، الآية: ٤٨].

وقد قال سبحانه عن المؤمنين: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٧].

فهو سبحانه يزِين لكل عامل عمله فيراه حسناً، وإن كان ذلك العمل سيئاً، فإنه لولا يراه حسناً لم يفعله، إذ لو رآه سيئاً لم يرده ولم يختره، إذ الإنسان مجبول على محبة الحسن وبغض السيء، فالحسن الجميل محبوب مراد، والسيء القبيح مكروه مبغض، والأعيان والأفعال المبغضة من كل وجه لا تُقصد بحال، كما أن المحبوبة من كل وجه لا تترك بحال. ولكن قد يكون الشيء محبوباً من وجه مكروهاً من وجه، ويقبح من وجه [ويحسن من وجه]، ولهذا كان الزاني لا يزني وهو مؤمن، والسارق لا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن^(١) كامل الإيمان، فإنه لو كان اعتقاده بقبح ذلك الفعل اعتقاداً تاماً لم يفعله

(١) الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه في: البخاري ١٣٦/٣ (كتاب المظالم، باب النهي بغير إذن صاحبه، ١٠٤/٧) (كتاب الأشربة، باب إنها الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان)، ١٥٧/٨ (كتاب الحدود، باب لا يشرب الخمر)، مسلم ٧٦/١ (كتاب الإيمان، باب لا يزني الزاني وهو مؤمن) سنن الترمذي، وقال الترمذي: حديث أبي هريرة حديث حسن غريب صحيح من هذا الوجه، سنن ابن ماجه ١٢٩٨/٢ - ١٢٩٩ (كتاب الفتن، باب النهي عن =

بحال، ولهذا كان [كل] عاصٍ لله تعالى جاهلاً، كما قال ذلك أصحاب محمد ﷺ، فإنه لو كان عالماً حق العلم بما فعله، لم يفعل القبيح، ولم يترك الواجب، بل قد زُين لكل أمة عملهم.

لكن العاصي إذا كان معه أصل الإيمان، فإنه لا يُزَيَّن له عمله من كل وجه، بل يستحسنه من وجه، ويبغضه من وجه، ولكن حين فعله يغلب تزيين الفعل. ولذلك قال: ﴿زِين للناس حب الشهوات...﴾. [سورة آل عمران، الآية: ١٤] الآية. فإن هنا شيئين: حب الشهوات، وأنه زين ذلك الفحش وحُسن، فرأوا تلك المحبة حسنة، فلذلك استقرت هذه المحبة عندهم، وتمتعوا بهذه المحبات، فإذا رأوا ذلك الحب قبيحاً لما يتبعه من الضرر، لم يستقر ذلك في قلوبهم، فإن رؤية ذلك الحب حسناً يدعو إليه قبيحاً ينفر عنه. وكذلك ذكر في الإيمان أنه حُبُّه إلى المؤمنين وزينته في قلوبهم حتى رأوه حسناً، فإن الشيء إذا حُبِّب وزُنِّ لم يترك بحال.

وهنا أخبر سبحانه أنه هو الذي حُبِّب إليهم الإيمان وزينته في قلوبهم، وفي الشهوات قال: ﴿زُيِّنَ للناس حُبُّ الشهوات﴾. [سورة آل عمران، الآية: ١٤]، ولم يقل المزيَّن بل ذكر العموم.

[وقال تعالى]: ﴿كذلك زيننا لكل أمة عملهم﴾. [سورة الأنعام، الآية: ١٠٨]. وكما حذف المزيَّن هناك قال: ﴿زُيِّنَ للناس حُبُّ الشهوات﴾. [سورة آل عمران، الآية: ١٤]. فجعل المزيَّن نفس الحب لها، لم يجعل المزيَّن هو المحبوب، كما أخبر أنه زين لكل أمة عملها، فإن المزيَّن نفس الحب لها، لم يجعل المزيَّن هو المحبوب [بل هو] حب الشهوات، فإن المزيَّن إذا كان نفس الحب والعمل لم ينصرف القلب عن ذلك، بخلاف مالهو كان المزيَّن هو المحبوب، فقد يُزَيَّن الشيء

= (التهبة)، سنن الدارمي ١١٥/٢ (كتاب الأشربة، باب في التغليظ لمن شرب الخمر) المسند (ط. المعارف) ٤١/١٣.

المحسوب، ولكن الإنسان لا يحبه لما يقوم بقلبه من العلم بحاله والبغض .
 ففرق بين التزيين المتصل بالقلب، وتزيين الشيء المنفصل عنه . فيه رد على
 القدرية الذين يجعلون التزيين المنفصل، وكذلك قوله : ﴿رُزِّنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَأَاهُ
 حَسَنًا﴾ . [سورة فاطر، الآية : ٨]، وهو سبحانه امتنَّ في الإيَّان بشيئين : بأنه حبَّبه
 إلينا، وزينَّه في قلوبنا . فالنعم تتم بهما : بالعلم، والمحبة .

/وقد ثبت في الصحيح من غير وجه عن النبي ﷺ أنه لعن المختئين من
 الرجال والمترجلات من النساء . وفي الصحيح أيضاً أنه لعن المتشبهين من الرجال
 بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال . وفي الصحيح أنه أمر بنفي المختئين
 وإخراجهم من البيوت .

كما روى البخاري في صحيحه عن عكرمة عن ابن عباس قال : لعن النبي
 ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال^(١) .

وفي رواية : لعن النبي ﷺ المختئين من الرجال والمترجلات^(٢) من النساء،
 وقال : أخرجوهم من بيوتكم . فأخرج النبي ﷺ فلانة^(٣) وأخرج عمر فلاناً^(٤) .

فإذا كان الرجل الذي يتشبه بالنساء في لباسهن وزيهن وزيتهن معلوناً، قد
 لعنه رسول الله ﷺ، فكيف بمن يتشبه بهن في مباشرة الرجال له فيما يتمتع
 الرجال به بتمكينه من ذلك لغرض يأخذه أو لمحبه لذلك؟ فكلما كثرت مشابهته
 لمن كان أعظم للعه، وكان ملعوناً من وجهين : من جهة الفاحشة المحرمة، فإنه

(١) الحديث عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما في : البخاري ١٥٩/٧ (كتاب اللباس،
 باب المتشبهين بالنساء والمتشبهات بالرجال) .

(٢) في الأصل : والمترجلات، والذي أثبتته هو لفظ البخاري .

(٣) فلانة : هذه رواية للبخاري . ورواية الأصل : فلاناً .

(٤) رواية البخاري المشار إليها هنا هي في ١٥٩/٧ (كتاب اللباس، باب إخراج المتشبهين بالنساء
 من البيوت) .

يُلْعَن على ذلك ولو كان هو الفاعل . ومن جهة تَحْنُثُهُ لكونه من جنس المفعول بهن .

فمن جعل شيئاً من التَحْنُثِ ديناً ، أو طلب ذلك من الصبيان ، مثل تحسين الصبي : صورته أو لباسه لأجل نظر الرجال ، واستمتاعهم بذلك في سماع وغير سماع ، أليس يكون مبدلاً لدين الله ، من جنس الذين إذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء ، أتقولون على الله ما لاتعلمون؟! وإذا كانت فاحشة العرب المشركين كشف عوراتهم عند الطواف ، لثلاث يطوفون في ثياب عصوا الله فيها ، / فكيف بها هو أعظم من ذلك؟!!!
والمَحْنُثُ قد يكون مقصوده معاشرة النساء ومباشرتهن ، وقد يكون تَحْنُثُهُ بمباشرة الرجال ونظرهم ومحبتهم ، وقد يجمع الأمرين ، وفي المنتسكين من الأقسام الثلاثة خلق كثير.

وهؤلاء شر من يفعل هذه الأمور على غير وجه التدين ، فإنه يوجد في الأمم الجاهلية من الترك ونحوهم من يتشبه فيهم من النساء بالرجال ، ومن يتشبه من الرجال بالنساء خلق عظيم حتى يكون لنسائهم من الإمرة والملك والطاعة والبروز للناس وغير ذلك مما هو من خصائص الرجال مالم يس لنساء غيرهم ، وحتى أن المرأة تختار لنفسها من شاءت من ممالكها وغيرهم لقهرها للزوج وحكمها ، ويكون في كثير من صبيانهم من التَحْنُثِ وتقريب الرجال له وإكرامه لذلك أمر عظيم ، حتى يغار بعض صبيانهم من النساء ، وحتى يتخذهم الرجال كالسراري ، لكن هم لا يفعلون ذلك تدينا ، فالذين يفعلون ذلك تدينا شرٌ منهم ، فإنهم جعلوا الفجور ديناً ، والفاحشة حسنة ، [لا] لما في ذلك من ميل الطباع . فهكذا من جعل مجرد الصوت الذي تحبه الطباع حسناً في الدين فيه شبه من هؤلاء ، لكن في المشركين من هذه الأمة من يتدين بذلك لأجل الشياطين ، كما يوجد المشركين من الترك التتار وساحرهم الطاغوت صاحب الجِبْتِ الذي تسميه

الترك البوق^(١)، وهو الذي تستخفه الشياطين وتخاطبه، ويسألها عما يريد، ويقرب لها القرايين من الغنم المنخقة وغير ذلك، ويضرب لها بأصوات الطبول ونحو ذلك، ومن شرطه أن يكون مخنثًا، يؤتى كما تؤتى المرأة، فكلما كانت الأفعال أولى بالتحريم كانت أقرب إلى الشياطين.

وهذا الذي ذكرناه من أن الحسن الصورة والصوت، وسائر من أنعم الله عليه بقوة أو بجمال أو نحو ذلك، إذا اتقى الله فيه كان أفضل ممن لم يؤت مالم يمتحن فيه - فإن النعم محن - فإن أهل الشهوات من النساء والرجال يميلون إلى ذي الصورة الحسنة، / ويحبونه ويعشقونه، ويرغبونه بأنواع الكرامات، ويرهبونه عند الامتناع بأنواع المخوفات، كما جرى ليوسف عليه السلام وغيره. وكذلك جماله يدعو إلى أن يطلب ما يهواه، لأن جماله قد يكون أعظم من المال المبذول في ذلك. وكذلك حسن الصوت قد يدعى إلى أعمال في المكروهات، كما أن المال والسلطان يحصل بهما من المكنة ما يدعى مع ذلك إلى أنواع الفواحش والمظالم، فإن الإنسان لا تأمره نفسه بالفعل إلا مع نوع من القدرة، ولا يفعل بقدرته إلا ما يريده، وشهوات الغي مستكنة في النفوس، فإذا حصلت القدرة قامت المحنة، فإما شقي وإما سعيد، ويتوب الله على من تاب، فأهل الامتحان إما أن يرتفعوا وإما أن ينخفضوا. وأما تحرك النفوس عن مجرد الصوت، فهذا أيضًا محسوس، فإنه يحركها تحريكًا عظيمًا جدًا بالتفريح والتحزين، والإغصاب والتخويف، ونحو ذلك من الحركات النفسانية، كما أن النفوس تتحرك أيضًا عن الصور بالمحبة تارة وبالبغض أخرى، وتتحرك الأطعمة بالبغض تارة والنفرة أخرى، فتحرك الصبيان والبهائم عن الصوت هو من ذلك، لكن كل ما كان أضعف كانت الحركة به أشد، فحركة النساء به أشد من حركة الرجال، وحركة الصبيان

(١) وفي نشرة مجموع الرياض ١١٢/٣٥: «يقال لأحدهم (البوى) أي المخبث»: والكلمة أعجمية تركية وأما ما بعدها فالأرجح أن يكون: «أي المخنث».

أشد من حركة البالغين، وحركة البهائم أشد من حركة آدميين، فهذا يدل على أن قوة التحرك عن مجرد الصوت لقوة ضعف العقل، فلا يكون في ذلك حمد إلا وفيه من الذم أكثر من ذلك، وإنما حركة العقلاء عن الصوت المشتمل على الحروف المؤلفة المتضمنة للمعاني المحبوبة، وهذا أكمل ما يكون في استماع القرآن.

وأما التحرك بمجرد الصوت، فهذا أمر لم يأت الشرع بالندب إليه، ولا عقلاء الناس يأمررون بذلك، بل يعدّون ذلك من قلة العقل، وضعف الرأي، كالذي يفرغ عن مجرد الأصوات / المفزعة المرعبة، وعن مجرد الأصوات المغضبة.

قال أبو القاسم^(١): «وقال النبي ﷺ: «مأذن الله لشيء كأذنه [لنبي] يتغنى بالقرآن». وروى حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مأذن الله لشيء مأذن الله لنبي يتغنى بالقرآن».

قال: «وقيل: إن داود عليه السلام كان يستمع لقراءته الجن والإنس، والوحش والطير إذا قرأ الزبور، وكان يُحمل من مجلسه أربعائة جنازة ممن قد مات سمعوا قراءته. وقال النبي ﷺ لأبي موسى الأشعري: «لقد أعطى مزماراً من مزامير آل داود»، وقال معاذ لرسول الله ﷺ: «لو علمت أنك تسمع لحبته لك تحبيرا».

قلت: هذا القول لأبي موسى كان، لم يكن لمعاذ. ومضمون هذه الآثار استحباب تحسين الصوت بالقرآن، وهذا مما لانزاع فيه. فالاستدلال بذلك على تحسين الصوت بالغناء أفسد من قياس الربا على البيع، إذ هو من باب تنظير الشعر بالقرآن.

وقال تعالى: ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين﴾.

[سورة يس، الآية: ٦٩].

(١) في القشيرية (٦٤٢/٢).

وقال تعالى: ﴿وماتزلت به الشياطين﴾ وما ينبغي لهم وما يستطيعون ﴿إنهم عن السمع لمعزولون﴾. [سورة الشعراء، الآيات: ٢١٠ - ٢١٢]. ﴿ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون﴾ وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴿. [سورة الشعراء، الآيتان: ٢٢٥، ٢٢٦].

وقال تعالى: ﴿وما هو بقول شاعر قليلا ماتؤمنون﴾ ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون ﴿. [سورة الحاقة، الآية: ٤١، ٤٢].

وهذا القياس مثل قياس سماع المكاء والتصدية - الذي ذمّه الله في كتابه وأخبر أنه صلاة المشركين - على سماع القرآن الذي أمر الله به في كتابه، وأخبر أنه سماع النبيين والمؤمنين، وقياس لأئمة الصلاة - كالخلفاء الراشدين وسائر أئمة المؤمنين - بالمختنئين المغاني الذين قد يسمون الجد أو القوالين، وقياس للمؤذن الداعي إلى الصلاة وسماع القرآن بالمزمار الداعي إلى حركة المستمعين للمكاء والتصدية .

وقد روى الطبراني في معجمه عن ابن عباس عن النبي ﷺ: أن الشيطان قال: يا رب اجعل لي / قرأناً، قال: قرآنك الشعر. قال: اجعل لي مؤذناً، قال: مؤذنك المزمار. قال: اجعل لي كتابةً. قال: كتابتك الوشم. قال: اجعل لي بيتاً. قال: بيتك الحمام. قال: اجعل لي طعاماً. قال: طعامك^(١) ما لم يذكر اسم الله عليه^(١). فمن قاس قرآن الشيطان بقرآن الله، فالله يجازيه بما يستحقه .

وقد قال الله تعالى: ﴿فعلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً﴾. [سورة مريم، الآية: ٥٩]. فهؤلاء يشتغلون بالشهوات عن الصلاة .

(١) في «الجامع الكبير» للسيوطي ٦٠٢/١: «قال إبليس لربه: يا رب اهبطت آدم وقد علمت أنه سيكون كتاب ورسول، فما كتابهم ورسولهم؟ قال: رسلهم: الملائكة والنبيون منهم، وكتبهم: التوراة والإنجيل والزبور والفرقان. قال: فما كتابي؟ قال: كتابك الوشم، وقرأتك الشعر، ورسلك الكهنة، وطعامك ما لا يذكر اسم الله عليه، وشرابك كل مسكر، وصدقك الكذب، وبيتك الحمام، ومصايدك النساء، ومؤذنك المزمار، ومسجدك الأسواق» - طب (الطبراني) عن ابن عباس

ولهذا [فإن] من هؤلاء الشيوخ من يقصد الاجتماعات في الحمام، ويكون له فيها حال وظهور، لكون مادته من الشياطين، فإن الشيطان يظهر أثره في بيته وعند أوليائه وتأذين مؤذنه وتلاوة قرآنه، كما يظهر ذلك على أهل المكاء والتصدية.

وإذا كان السماع نوعين: سماع الرحمن، وسماع الشيطان، كان مابينهما من أعظم الفرقان. لكن الأقسام هنا أربعة: إما أن يشتغل العبد بسماع الرحمن دون سماع الشيطان، أو بسماع الشيطان دون سماع الرحمن، أو يشتغل بالسماعين، أو لا يشتغل بواحد منهما.

فالأول: حال السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان.

وأما الثاني: فحال المشركين الذين قال الله فيهم: ﴿وما كان صلاتهم عند الميت إلا مكاء وتصدية﴾. [سورة الأنفال، الآية: ٣٥]. وهو حال من يتخذ ذلك ديناً، ولا يستمع القرآن. فإن كان يشتغل بهذا السماع شهوةً لادنياً، ويعرض عن القرآن، فهم الفجار والمنافقون إذا أبطنوا حال المشركين. وأما الذين يشتغلون بالسماعين فكثير من المتصوفة.

والذين يعرضون عنها على ما ينبغي كثير من المتعربة.

فهذه النصوص المأثورة عن النبي ﷺ [التي] فيها مدح الصوت الحسن بالقرآن، والترغيب في هذا السماع، فيحتج بها على المعرض عن هذا السماع الشرعي الإيماني، لا يحتج بها على حسن السماع البدعي الشرعي.

بل الراغبون في السماعين جميعاً، والزاهدون/ في السماعين جميعاً: خارجون عن محض الاستقامة والشرعية القرآنية الكاملة. هؤلاء معتدون، وهؤلاء مفرطون. وإنما الحق الرغبة في السماع الإيماني الشرعي، والزهد في السماعي الشرعي البدعي.

ثم ذكر أبو القاسم^(١) حكاية أبي بكر الرقي^(٢) في الغلام الذي حدا بالجمال حتى قطعت مسيرة ثلاثة أيام في يوم، فلما حطَّ عنها ماتت، وحدا بجمل فهمام على وجهه وقطع حباله. قال الرقي^(٣): ولم أظن أني سمعت صوتاً أطيب منه ووقعت لوجهي، حتى أشار عليه بالسكوت فسكت، فقال: حدثنا أبو حاتم السجستاني، حدثنا أبو نصر السراج، قال: حكى الرقي.

قلت: مضمون هذه الحكاية أن الصوت البليغ في الحُسْن قد يحرك النفوس تحريكاً عظيماً خارجاً عن العادة، وهذا مما لا ريب فيه، فإن الأصوات توجب الحركات الإرادية بحسنها، وهي في الأصل ناشئة عن حركات إرادية، وتختف تأثيرها باختلاف نوع الصوت وقدره، بل هي من أعظم المحركات أو أعظمها، وإذا اتفق قوة المؤثر واستعداد المحل قوي التأثير، فالنفوس المستعدة لصغر أو أنوثة أو جزع أو نحوه، أو لفراغ وعدم شغل أو ضعف عقل: إذا اتصل بها صوت عظيم حسن قوي أزعجها غاية الإزعاج، لكن هذا لا يدل على جواز ذلك، ولا فيه ما يوجب مدحه وحسنه، بل مثل هذا أدل على الذم والنهي منه على الحمد والمدح، فإن هذا يفسد النفوس أكثر مما يصلحها، ويضرها أكثر مما ينفعها، وإن كان فيه نفع فإثمه أكثر من نفعه.

وقد قال الله للشيطان: ﴿واستفزز من استطعت منهم بصوتك﴾. [سورة الإسراء، الآية: ٦٤]. فالصوت الشيطاني يستفز بني آدم. وقال النبي ﷺ: «إنما نهيت عن صوتين أحقّين فاجرين»^(٤) وذكر صوت النعمة وصوت المعصية،

(١) الكلام التالي هو تلخيص لما في «القشيرية» ٦٤٢/٢ - ٦٤٣.

(٢) في الأصل: الدقي. وهو تحريف. وفي القشيرية أنه: أبو بكر محمد بن داود الدينوري الرقي.

(٣) رواه الترمذي (٢٣٧/٢) كتاب الجنائز وقال هذا حديث حسن صحيح ورواه البغوي في شرح السنة (٤٣١/٥) وفيه محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليل وفيه ضعف وذكره الهيثمي ونسبه إلى البزار ورواه أبو يعلى.

ووصفهما بالحمق والفجور، وهو الظلم والجهل .
وقال لقمان لابنه : ﴿ اقصد في مشيك واغضض من صوتك ﴾ . [سورة لقمان،
الآية : ١٩] ، والمغنيُّ بهذه الأصوات لم يغض من صوته ، والمتحركون بها /
الراقصون لم يقصدوا في مشيهم ، بل المصوِّتون أتوا بالأحمق الجاهل الظالم الفاجر
من الأصوات ، والمتحركون أتوا بالأحمق الجاهل الطالم الفاحش من الحركات ،
وربما جمع الواحد بين هذين النوعين ، وجعل ذلك من أعظم العبادات .

الجمال

فضله - حقيقته - أنواعه

تأليف

العلامة شمس الدين ابن قيم الجوزية
المتوفى سنة ٧٥١هـ

دراسة وتحقيق

إبراهيم بن عبدالله الحازمي

عفا الله عنه وسدد خطاه

(آمين)

قال العلامة المحقق ابن قيم الجوزية:

ذكر فضيلة الجمال، وميل النفوس إليه على كل حال

اعلم أن الجمال ينقسم قسمين: ظاهر وباطن، فالجمال الباطن هو المحبوب لذاته، وهو جمال العلم والعقل والجود والعفة والشجاعة، وهذا الجمال الباطن هو محل نظر الله من عبده وموضع محبته، كما في الحديث الصحيح: إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم^(١)، وهذا الجمال الباطن يزين الصورة الظاهرة وإن لم تكن ذات جمال فتكسو صاحبها من الجمال والمهابة والحلاوة بحسب ما اكتست روحه من تلك الصفات، فإن المؤمن يعطي مهابة وحلاوة بحسب إيمانه، فمن رآه هابه، ومن خالطه أحبه. وهذا أمر مشهود بالعيان فإنك ترى الرجل الصالح المحسن ذا الأخلاق الجميلة من أحلى الناس صورة وإن كان أسود أو غير جميل، ولا سيما إذا رزق حظاً من صلاة الليل فإنها تنور الوجه وتحسنه. وقد كان بعض النساء تكثر صلاة الليل فقبل لها في ذلك فقالت: إنها تحسن الوجه وأنا أحب أن يحسن وجهي. وما يدل على أن الجمال الباطن أحسن من الظاهر أن القلوب لا تنفك عن تعظيم صاحبه ومحبته والميل إليه.

فصل

وأما الجمال الظاهر فزينة خص الله بها بعض الصور عن بعض، وهي من زيادة الخلق التي قال الله تعالى فيها: ﴿يزيد في الخلق ما يشاء﴾. قالوا: هو الصوت الحسن والصورة الحسنة. والقلوب كالمطبوعة على محبته كما هي مفطورة على استحسانه. وقد ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «لا يدخل الجنة من كان

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤) (٣٤) في البر والصلة ورواه ابن ماجه رقم (٤١٤٣) في الزهد وأحمد (٢/٢٨٥) و(٥٣٩).

في قلبه مثقال ذرة من كبر قالوا : يا رسول الله الرجل يحب أن تكون نعله حسنة وثوبه حسناً أفذلك من الكبر؟ فقال : لا . إن الله جميل يحب الجمال . الكبر بطر الحق وغمط الناس^(١) . فبطر الحق جحده ودفعه بعد معرفته ، وغمط الناس النظر إليه بعين الازدراء والاحتقار والاستصغار لهم . ولا بأس بهذا إذا كان لله . وعلامته أن يكون لنفسه أشد ازدراءً واستصغاراً منه لهم . فأما إن احتقرهم لعظمة نفسه عنده فهو الذي لا يدخل صاحبه الجنة .

فصل

وكما أن الجمال الباطن من أعظم نعم الله تعالى على عبده فالجمال الظاهر نعمة منه أيضاً على عبده يوجب شكراً ، فإن شكره بتقواه وصيائته ازداد جمالاً على جماله ، وإن استعمل جماله في معاصيه سبحانه قلبه شيئاً ظاهراً في الدنيا قبل الآخرة ، فتعود تلك المحاسن وحشةً وقبحاً وشيناً ، وينفر عنه من رآه ، فكل من لم يتق الله عز وجل في حسنه وجماله انقلب قبحاً وشيناً يشينه به بين الناس ، فحسن الباطن يعلو قبح الظاهر ويستره ، وقبح الباطن يعلو جمال الظاهر ويستره .

[ياحسن الوجه توق الخنا لا تبدلن الزين بالشين
وياقبح الوجه كن محسناً لا تجمعين بين قبيحين]

وكان النبي ﷺ يدعو الناس إلى جمال الباطن بجمال الظاهر كما قال جرير بن عبدالله - وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسميه يوسف هذه الأمة^(٢) - قال : قال لي رسول الله ﷺ : «أنت امرؤ قد حسن الله خلقك فأحسن خلقك»^(٣) . وقال بعض الحكماء : ينبغي للعبد أن ينظر كل يوم في المرأة ، فإن رأى صورته حسنة لم يشنها بقبيح فعله ، وإن رآها قبيحة لم يجمع بين قبح الصورة [قبح]

(١) أخرجه مسلم (٩١) وأبو داود والترمذي في الإيمان . باب تحريم الكبر وبيان .

(٢) وقال عنه عبد الملك بن عمير : رأيت جريراً كأن وجهه شقه قمر .

(٣) رواه الديلمي في مسند الفردوس وفيه ضعف

الفعل . ولما كان الجمال من حيث هو محبوباً للنفوس معظماً في القلوب لم يبعث الله نبياً إلا جميل الصورة حسن الوجه كريم الحسب حسن الصوت ، كذا قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه . وكان النبي ﷺ أجمل خلق الله وأحسنهم وجهاً كما قال البراء بن عازب رضي الله عنه وقد سئل أكان وجه رسول الله ﷺ مثل السيف؟ قال : لا [بل] مثل القمر^(١) . وفي صفته ﷺ : كأن الشمس تجري في وجهه يقول واصفه لم أر قبله ولا بعده مثله^(٢) . وقال ربيعة الجرشي : قسم الحسن نصفين : فبين سارة ويوسف نصف الحسن ، ونصف [الحسن] بين سائر الناس . وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه رأى يوسف ليلة الإسراء وقد أُعطي شطر الحسن^(٣) . وكان رسول الله ﷺ يستحب أن يكون الرسول الذي يرسل إليه حسن الوجه حسن الإسم ، وكان يقول : «إذا أبردتم إلىَّ بريداً فليكن حسن الوجه حسن الإسم»^(٤) وقد روى الخرائطي من حديث ابن جريج عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس رضي الله عنهما يرفعه : من آتاه الله وجهاً حسناً واسماً حسناً وخلقاً حسناً وجعله في موضع غير شائن له فهو من صفوة الله من خلقه وقال وهب : قال داود : يارب أي عبادك أحب إليك؟ قال : مؤمن حسن الصورة . قال : فأبي عبادك أبغض إليك؟ قال كافر قبيح الصورة . ويُذكر عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان ينتظره نفرٌ من أصحابه على الباب فجعل ينظر في الماء ويسوي شعره ولحيته ثم خرج إليهم فقلت : يا رسول الله وأنت تفعل هذا؟ قال : «نعم إذا خرج

(١) ذكره البخاري في صحيحه ، ورواه مسلم عن جابر بن سمرة وانظر تخريجه في كتابنا الرسول ﷺ كأنك تراه

(٢) رواه الترمذي وانظر كتابنا «النبي ﷺ كأنك تراه» .

(٣) رواه مسلم وأحمد في مسنده

(٤) رواه البزار في مسنده ص : ٢٤٢ . وقال الهيثمي : (صحيح) وأقره السيوطي في «اللائي» وهو كما قال : فرجاله رجال الصحيح ورواه أبو الشيخ في أخلاق النبي ﷺ ص : (٢٧٤) والعقيلي في الضعفاء والبعوي في شرح السنة ١٢ / ٣٢٧ - ٣٢٨ .

الرجل إلى إخوانه فليهيء من نفسه فإن الله جميل يحب الجمال»^(١) وقال يحيى بن أبي كثير: دخل رجل على معاوية غمضاً يعني رمص العينين فحط من عطائه فقال: ما يمنع أحدكم إذا خرج من منزله أن يتعاهد أديم وجهه؟ وكانت عائشة بنت طلحة من أجمل أهل زمانها أو أجملهم فقال أنس بن مالك: والله مارأيت أحسن منك إلا معاوية على منبر رسول الله ﷺ فقالت: والله لأنا أحسن من النار في عين المقرور في الليلة القارة. ودخل عليها أنس يوماً في حاجة فقال: إن القوم يريدون أن يدخلوا عليك فينظروا [إلى] جمالك قالت: أفلا قلت لي فألبس ثيابي.

وكان مصعب بن الزبير من أجمل الناس وكان يحسد الناس على الجمال فبينما هو يخطب يوماً إذ دخل ابن جودان من ناحية الأزد وكان جميلاً، فأعرض بوجهه عن تلك الناحية إلى ناحية أخرى، فدخل ابن حمران من تلك الناحية، وكان جميلاً، فرمى ببصره إلى مؤخرة المسجد، فدخل الحسن البصري وكان من أجمل الناس، فنزل مصعب عن المنبر. وخرج نسوة يوم العيد ينظرون إلى الناس فقليل لهم: من أحسن من مر بكن؟ قلن: شيخ عليه عمامة سوداء يعنين الحسن البصري، وأخذ مصعب بن الزبير رجلاً من أصحاب المختار فأمر بضرب عنقه، فقال الرجل: أيها الأمير ما أقبح من أن أقوم يوم القيامة إلى صورتك هذه الحسنة، ووجهك هذا الذي يُستضاء به فأتعلق بأطرافك وأقول: يارب سل مصعباً فيم قتلتي؟ فقال مصعب: أطلقوه. فقال الرجل أيها الأمير اجعل ما وهبت لي من حياتي خفض فقال مصعب: أعطوه مائة ألف درهم فقال: إني أشهد الله أن لعبد الرحمن بن قيس الرقيّات^(٢) نصفها قال مصعب: ولم ذلك؟ قال لقوله:

إنما مصعب شهاب من الد — ه تجلت عن وجهه الظلماء

(١) تقدمت الفقرة الأخيرة من هذا الحديث أما القصة فلم أجدها في ما بين يدي من كتب الحديث وقول المؤلف في أولها «ويذكر» يدل على الضعف.

(٢) كذا في النسختين والذي في الأغاني وغيره إن اسمه عبيد الله.

فضحك مصعب وقال: إن فيك لموضعاً للصنيعة، وأمره بلزومه .

وقال الزبير بن بكار: حدثنا مصعب الزبيري، حدثنا عبدالرحمن بن أبي الحسن قال: خرج أبو حازم يرمي الجمار ومعه قوم متعبدون وهو يكلمهم ويحدثهم ويقص عليهم، فبينما هو يمشي وهم معه إذ نظر إلى فتاة مسترة بخمارها ترمي الناس بطرفها يمنة ويسرة، وقد شغلت الناس وهم ينظرون إليها مبهوتين، وقد خبط بعضهم بعضاً في الطريق، فرآها أبو حازم فقال: يا هذه اتقي الله فإنك في مشعرٍ من مشاعر الله عظيم، وقد فتنت الناس، فاضربي بخمارك على جيبك فإن الله عز وجل يقول: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ فأقبلت تضحك من كلامه وقالت: إني والله

من اللاء لم يحججن يبغيين حسبة ولكن ليقتلن البريء المغفلاً^(١) فأقبل أبو حازم على أصحابه وقال: تعالوا ندعو الله أن لا يعذب هذه الصورة الحسنة بالنار، فجعل يدعو وأصحابه يؤمنون^(٢).

وقال ضمرة بن ربيعة، عن عبدالله بن شاذب: دخلت امرأة جميلة على الحسن البصري فقالت: يا أبا سعيد ينبغي^(٣) للرجال أن يتزوجوا على النساء؟ قال: نعم قالت: وعلى مثلي؟ ثم أسفرت عن وجهٍ لم يُر مثله حسناً وقالت: يا أبا سعيد لا تفتوا الرجال بهذا. ثم ولت فقال الحسن: ما على رجلٍ كانت هذه في زاوية بيته ما فاتته من الدنيا؟

وقال عبدالملك بن قريب^(٤): كنت في بعض مياه العرب فسمعت الناس يقولون: قد جاءت قد جاءت. فتحول الناس فقامت معهم فإذا جارية قد وردت

(١) البيت للعرجي .

(٢) في الأغاني وتحفة العروس: قال وبلغ ذلك سعيد بن المسيب فقال: أما والله لو كان بعض بغضاء أهل العراق لقال لها: اغربي قبحك الله ولكنه ظرف عباد الحجاز.

(٣) في تحفة العروس: أيجل وهو الأنسب هنا.

(٤) هو الأصمعي

الماء ما رأيت مثلها قط في حسن وجهها وتمام خلقها، فلما رأت تشوف الناس إليها أرسلت برقعها فكأنه غمامة غطت شمساً فقلت: لم تمنعيننا النظر إلى وجهك هذا الحسن؟ فأنشأت تقول:

وكنت متى أرسلت طرفك رائداً لقلبك يوماً أتعبتك المناظر
رأيت الذي لاكله أنت قادر عليه ولا عن بعضه أنت صابر
ونظر إليها أعرابي فقال: أنا والله ممن قل صبره ثم قال:

أوحشية العينين أين لك الأهل أبا الحزن حلوا أم محلهم السهل
وأية أرض أخرجتك فإنني أراك من الفردوس إن فتش الأصل
قفي خبرينا ما طعمت وما الذي شربت ومن أين استقل بك الرحل
لأن علامات الجنان مبينة عليك وإن الشكل يشبهه الشكل
تناهيت حسناً في النساء فإن يكن لبدر الدجى نسل فأنت له نسل
وقال آخر^(١):

يامنسي المحزون أحزانه لما أتته في المعزينا
استقبلتهن بتمثالها فقممن يضحكن ويبكيننا
حق لهذا الوجه أن يزدهي عن حزنه من كان محزوننا
وقال آخر:

أنيري مكان البدر إن أفل البدر وقومي مقام الشمس ما استأخر الفجر
ففيك من الشمس المنيرة ضوؤها وليس لها منك التبسم والثغر
وقال آخر:

رقادي ياطرفي عليك حرام فخل دموعاً فيضهن سجام
ففي الدمع إطفاء لنار صباية لها بين أحناء الضلوع ضرام

(١) هو أبو نواس ورواية الأغاني:

يامنسي المأتم أحزانه لما أتاهم في المعزينا

ويا كبدي الحري التي قد تصدعت من الوجد ذوبي ما عليك ملام
ويا وجه من ذلت وجوه أعزه له وزهى عزاً فليس يرام
أجر مستجيراً في الهوى بك باسطاً إليك يديه والعيون نيام
وذكر الخرائطي عن بعض العلويين قال : بينا أنا عند الحسن بن هانيء^(١) وهو
ينشد :

ويلي على سود العيون النهد الضمر البطون
الناطقات عن الضمير ر لنا بالسنّة الجفون
فوقف عليه أعرابي ومعه ابن فقال : أعد علي فأعاد عليه فقال : يا ابن أخي
ويلك أنت وحدك من هذا؟ ويلي أنا وأنت، وويل ابني هذا، وويل هذه الجماعة،
وويل جيراننا كلهم . وقال الخرائطي : حدثنا يموت بن المزرع ، حدثنا محمد بن
حميد ، حدثنا محمد بن سلمة قال : حدثني أبي قال : أتيت عبدالعزیز بن المطلب
أسأله عنبيعة الجن للنبي ﷺ بمسجد الأحزاب ما كان بدؤها فوجدته مستلقياً
يتغنى :

فما روضة بالحزن طيبة الثرى يمج الندى جثجاثها وعراها
بأطيب من أردان عزة موهنا وقد أوقدت بالمدل الرطب نارها
من الخفرات البيض لم تلق شقوة وبالحسب المكنون صاف نجارها
فإن برزت كانت لعينيك قرّة وإن غبت عنها لم يغمك عارها

فقلت له : [أتغني] أصلحك الله وأنت في جلالك وشرفك؟ فقال : أما والله
لأحملنها ركباً نجد قال : فوالله ما أكثرت بي وعاد يتغنى :

فما طيبة أدماء خفاقة الحشا تجوب بظلفيها متون الخمائل
بأحسن منها إذ تقول تدللاً وأدمعها تذرین حشوا المكاحل
تمتع بذا اليوم القصير فإنه رهين بأيام الصدود الأطاول

(١) هو أبو نواس

قال : فندمت على قولي وقلت له : أصلحك الله أحدثني في هذا بشيء؟ قال : نعم
حدثني أبي قال : دخلت على سالم بن عبدالله بن عمر رضي الله عنهم وأشعب
يغنيه :

مُغيرية كالبدر سنة وجهها لها حسب زاك وعرض مهذب
وعن كل مكروه من الأمر زاجر من الخفرات البيض لم تلق ريبة
فقال له سالم : زدني فغنائه :

ألمت بنا والليل داج كأنه جناح غراب عنه قد نفص القطرا
فقلت أعطار ثوى في رجالنا وما احتملت ليلى سوى طيبها عطرا
فقال له سالم : والله لولا أن تتداوله الرواة لأجزلت جائزتك فإنك من هذا الأمر
بمكان .

قال الخرائطي : حدثنا العباس بن الفضل ، عن بعض أصحابه قال :
حججت سنة من السنين فإني لبالربذة^(١) إذ وقفت علينا جارية على وجهها برقع
قالت : يامعشر الحجيج نفر من هذيل ، ذهب بنعمهم السيل ، وقعدت بهم
الأيام ، ما بهم نُجعة ، فمن يراقب فيهم الدار الآخرة ويعرف لهم حق الأخوة؟
جزاه الله خيراً قال : فرضخنا لها فقلت لها : هل قلت في ذلك شيئاً؟ فأنشأت
تقول :

كف الزمان توسدتنا عنوة شلت أناملها عن الأعراب
قوم إذا حل العُفاة بياهم ألقوا^(٢) نوافلهم بغير حساب
فقلنا لها : لو أمتعتنا بالنظر إلى وجهك ، فكشفت البرقع عن وجه لا والله
لا تهدي العقول لوصفه ، فلما رأتنا قد بهتنا لحسنها أنشأت تقول :

(١) قال ياقوت : الربذة : قرية من قرى المدينة .

(٢) في ن : الفوا

الدهرُ أبدى صفحةً قد صلنا أبوي قبل تمُرُس الأيام
فتمتعوا بعيونكم في حسنهما وانهوا جوارحكم عن الآثام
ثم انصرفت. وكان محمد بن حميد الطوسي يهوى جاريةً فأرسل إليها مرةً أترجةً
فبكت بكاءً شديداً، فقيل [لها]: يوجّه إليك من تحببته بهدية فتبكين هذا
البكاء؟ فغنت:

أهدى له أحبّاءه أترجةً فبكي وأشفق من عيافة زاجر^(١)
خاف التلّون والفراقُ لأنها لوان باطنها خلافاً الظاهر
فلما جاءه الرسول أخبره عنها بما أغاظه فكتب إليها^(٢):

ضيّعت عهدَ فتى لغيبك حافظٍ في حفظه عجبٌ وفي تضييعك
وصدّدت عنه وما له من حيلةٍ إلا الوقوفُ إلى أوان رجوعك
إن تقتليه وتذهبي بحياته فبحسن وجهك لايحسن صنيعك
فلما وافتها الرقعة بكت حتى رحما من حولها ثم اندفعت تقول:

هل لعيني إلى الرُقّاد شفيعٌ إن قلبي من السقام مروع
لاتراني بخلتُ عنك بدمعٍ لا وحقّ الحبيب مالي دموعٌ
إن قلبي إليك صبّ حزينٌ فاستراحت إلى الأنين الضلوع
ليس في العطف يا حبيبي بدعٌ إنما هجر من يحب بديع
ثم كتبت إليه: أنا مملوكة لا أملك من أمري شيئاً، فإن كان لك في حاجة
فاشترني لأكون طوع يدك، فاشتراها فمكثت عنده وكانت من أحظى إمائه حتى
قتل في وقعة بابك الخرمي، فكانت لتمثل في ريائه بقول أبي تمام:

محمدُ بنُ حميد أخلقت رمه أريق ماء المعالي مذ أريق دمه
رأيتُه ينجاد الشيق محتبياً في النوم بدرًا جلت عن وجهه ظلّمه

(١) عيافة الطير: زجرها وهو أنه تعتبر بأسمائها ومساقطها بأسمائها ومساقطها فتستعد أو تتشأم.

(٢) الشعر لابن أبي عيينة.

فقلت والدمع من حزنٍ ومن كمد
 ألم تمت ياشقيق [النفس] مذ زمن يجري انسكاباً على الخدين منسجمة
 وهذا فصل في ذكر حقيقة الحسن والجمال ماهي^(١). وهذا أمر لا يدرك إلا
 بالوصف وقد قيل: إنه تناسب الخلقة واعتدالها واستواؤها. ورب صورة متناسبة
 الخلقة، وليست في الحسن هناك. وقد قيل: الحسن في الوجه والملاحة في
 العينين. وقيل الحسن أمر مركّب من أشياء: وضاعة وصاححة وحسن تشكيل
 وتخطيط ودموية في البشرة. وقيل: الحسن معنى لاتناله العبارة ولا يحيط به
 الوصف، وإنما للناس منه أوصاف أمكن التعبير عنها. وقد كان رسول الله ﷺ
 في الذروة العليا منه، ونظرت إليه عائشة رضي الله عنها يوماً ثم تبسمت، فسألها
 مم ذاك؟ فقالت: كأن أبا كبير الهذلي إنما عنك بقوله:
 ومُبراً من كل غُبرٍ حيضة وفسادٍ مرضعةٍ وداءٍ مُغِيل

(١) قال ابن حزم في كتابه «مدارة النفوس» ص: ٥٦ الخلاوة رقة المحاسن، ولطف الحركات،
 وخفة الإشارات وقبول النفس لأعراض الصور وإن لم تكن ثم صفات ظاهرة. القوام جمال
 كل صفة على حدتها، ورب جميل الصفات، على انفراد كل صفة منها بارد الطلعة، غير ملبح،
 ولا حسن، ولا رائع، ولا حلول؟ والروعة بهاء الأعضاء الظاهرة، مع جمال فيها، وهي أيضاً
 الفراهة (الملاحة والحسن أو هي النشاط والحذف) والعنق. الحسن هو شيء ليس له في اللغة
 اسم يعبر به عنه، ولكنه محسوس في النفوس باتفاق كل من رآه، وهو بُرد مكسو على الوجه
 وإشراق يستميل القلوب نحوه، فتجتمع الآراء على استحسانه. وإن لم تكن هناك صفات جميلة
 - فكل من رآه راقه واستحسنه وقبله، حتى إذا تأملت الصفات إفراً لم تر طائلاً، وكأنه شيء
 في نفس المرئي يجده نفس الرائي، وهذا أجل مراتب الصباحة، ثم تختلف الأهواء بعد هذا،
 فمن مفضل للروعة ومن مفضل للخلاوة، وما وجدنا أحداً قط يفضل القوام المفرد الملاحظة
 اجتماع شيء فشيء مما ذكرنا. انتهى

(١) غير الحيض: بقاياها وأضاف الفساد إلى المرضعة لأنه أراد الفساد الذي يكون من قبلها والمغيل
 وهو أن تغشى المرأة وهي ترضع فذلك اللبن الغيل ويروى وداء معضل. قاله التبريزي في شرح
 الحماسة. والحديث في الحلية لأبي نعيم.

وإذا نظرت إلى أسيرة وجهه برقت كبرق العارض المتهلل

ولقي بعض الصحابة راهباً فقال: صف لي محمداً كأني أنظر إليه فإني رأيت صفته في التوراة والإنجيل فقال: لم يكن بالطويل البائن ولا بالقصير، فوق الرقبة أبيض اللون مُشرباً بالحمرة جعداً ليس بالقَطِط، جُمَعَتَه إلى شحمة أذنه، صلت الجبين، واضح الخد أدعج العينين، أقنى الأنف، مُفْلَجُ الشَّيَا، كأن عنقه إبريق فضة، ووجه كدارة القمر. فأسلم الراهب^(١) توفي صفة هند بن أبي هالة له عليه السلام: لم يكن بالطويل الممغط، ولا بالقصير المتردد، كان ربعة من الرجال، ولم يكن بالجدد القَطِط ولا بالبسط، ولم يكن بالمطهم ولا بالملكشم وكان في الوجه تدوير، أبيض مُشرب أدعج العينين، أهدب الأشفار، جليل المشاش والكتد، شثن الكفين والقدمين، دقيق المسربة إذا مشى تقلع كأنها ينحط من صلب، وإذا التفت جميعاً. كأن الشمس تجري في وجهه. وكان عليه السلام مع هذا الحسن قد أُلقيت عليه المحبة والمهابة، فمن وقعت عليه عيناه أحبه وهابه^(٢) وكمل الله سبحانه له مراتب الجمال ظاهراً وباطناً. وكان أحسن خلق الله خُلُقاً وخُلُقاً، وأجملهم صورة

(١) البائن المفرط في الطول، والقَطِط: الشديد الجعودة كالزنج بل شعره عليه الصلاة والسلام بين الجعودة والسبوطه كما سيأتي بعد هذا والجملة: الشعر المجموع على الرأس وقيل الشعر مطلقاً. والصلت الواسع: والأدعج: الشديد سواد العين في شدة بياضها. والقنا طول الأنف ودقة أرنبته وحذب في وسطه: والحديث انظره في كتابنا «الرسول عليه السلام كأنك تراه» وهو حديث لا بأس به، شواهد كثيرة ومتعددة

(٢) قال الأصمعي في تفسير غريب هذه الأوصاف ماملخصه: الممغط الذاهب طولاً، والمتردد: الداخل بعضه في بعض، وأما المطهم فالبادن (أي الضخم) الكثير اللحم، والملكشم: المدور الوجه، والمشرب: الذي في بياضه حمرة، والأهدب، الطويل الأشفار، المشاش: يريد رؤوس المناكب، والكتد: مجتمع الكتفين وهو الكاهل، والشثن: الغليظ الأصابع، والمسربة: هو الشعر الدقيق الذي كأنه قضيب من الصدر إلى السرة، والتقلع: أن يمشي بقوة، والصبب: الحذور، وحديث ابن أبي هالة رواه الترمذي في الشمائل. وغيره وانظر تحريجه في كتابنا الرسول عليه السلام كأنك تراه.

ومعنى . وهكذا كان يوسف الصديق ﷺ . ولهذا قالت امرأة العزيز للنسوة لما أرتهنَّ إياه ليعذرنها في محبته ﴿فذلكن الذي لُمتني فيه﴾^(١) . أي هذا هو الذي فتنت به وشغفت بحبه ، فمن يلومني علي محبته وهذا حسن مظهره؟ ثم قالت : ﴿وَلَقَدْ رَاودته عن نفسه فاستعصم﴾^(٢) . أي فمع هذا الجمال ، فباطنه أحسن من ظاهره ، فإنه في غاية العفة والتزاهة والبعد عن الخنا ، والمحَبُّ وإن عيب محبوبه فلا يجري على لسانه إلا محاسنه ومدحه . ويتعلق بهذا قوله تعالى في صفة أهل الجنة : ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةٌ وَسُرُورًا﴾^(٣) . فجَمَلَ ظواهرهم بالنضرة وبواطنهم بالسُرور ومثله قوله : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ . إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾^(٤) . فإنه لاشيء أشهى إليهم وأقر لعيونهم ، وأنعم لبواطنهم من النظر إليه فنضَّر وجوههم بالحسن ، ونعم قلوبهم بالنظر إليه . وقريب منه قوله تعالى : ﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾^(٥) فهذا زينة الظاهر ثم قال : ﴿وسقاهم ربهم شرابًا طهوراً﴾^(٦) . أي مطهر لبواطنهم من كل أذى . فهذا زينة الباطن . ويشبه قوله تعالى : ﴿يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسًا يُؤاري سواتكم وريشاً﴾^(٧) فهذا زينة الظاهر ثم قال : ﴿ولباس التقوى ذلك خير﴾^(٨) فهذا زينة الباطن . وينظر إليه من طرف خفي قوله تعالى : ﴿إِنَّا زَيْنَا السَّاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ . وَحَفَظَّا﴾^(٩) فزَيْنَ ظاهرها بالمصاييح ، وباطنها بحفظها من الشياطين . وقريبٌ منه قوله تعالى : ﴿وتزودوا فَإِنْ خِرَ الزَّادُ التَّقْوَىٰ﴾^(١٠) فذكر الزاد الظاهر والزاد الباطن . وهذا من زينة

(١) سورة يوسف : ٣٢ .

(٢) سورة الدھر : ١١ .

(٣) سورة القيامة : ٣٢ - ٣٣ .

(٤) سورة الدھر : ٢١ .

(٥) سورة الأعراف : ٢٦ .

(٦) سورة الصافات الآيتان ٦ ، ٧ . وكانت في النسختين ولقد زينا الساء الدنيا بمصاييح وحفظًا

وهو جمع من آيتين أخر بين كل منهما من سورة .

(٧) سورة البقرة : ١٩٧ .

القرآن الباطنة المضافة إلى زينة ألفاظه وفصاحته وبلاغته الظاهرة . ومنه قوله تعالى
لآدم : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَا تَجُوع فِيهَا وَلَا تَعْرِى . وَأَنْتَ لَا تَنْظُمُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى ﴾^(١)
فقابل بين الجوع والعُرْي دون الجوع والظمإ ، وبين الظمإ واضحى دون الظمإ
والجوع ، فإن الجوع عري الباطل وذله ، والعري جوع الظاهر وذله . فقابل بين
نفي ذل باطنه وظاهره ، وجوع باطنه وظاهره ، والظمأ حرُّ الباطن ، والضحى حر
الظاهر ، فقابل بينهما . وسئل المتنبى عن قول امرئ القيس :

كأنى لم أركب جواداً للذة ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال
ولم أسب الزق الروي ولم أقل لخلي كري كرة بعد إجفال
ف قيل له : إنه عيب عليه سبي الزق الروي بالكر وكان الأحسن مقابله بتبطن
الكاعب جمعاً بين اللذتين . وكذلك مقابلة ركوب الجواد للكر أحسن من مقابله
لتبطن الكاعب فقال : بل الذي أتى به أحسن فإنه قابل مركوب الشجاعة
بمركوب اللذة واللهو ، فهذا مركب الطرب وهذا مركب الحرب والطلب ، وكذلك
قابل بين السباءين سباء الزق وسباء الرق . قلت : وأيضاً فإن الشارب يفخر
بالشجاعة كما قال حسان :

ونشرها فتركنا ملوكاً وأسداً ماينهننا اللقاء
وهذه جملة اعتراضية من ألطف الاعتراض^(٢) .

وقيل الحسن ماستنطق أفواه الناظرين بالتسبيح والتهليل كما قيل :
ذي طلعة سبحان فالق صبحه ومعاطفٍ جلّت يمين الغارس
وقال علي بن الجهم :

طلعت فقال الناظرون إلى تصويرها ما أعظم الله
ودنت فلما سلّمت خجلت والتف بالتفاح خداها

(١) سورة طه : ١١٨ - ١١٩ .

(٢) قال في هامش [مخطوطة] من : أي جملة مذكرناه من أمثلة التقابل ليست من مقصود الكتاب
لكنها لا تخلو من فائدة يحلوها الخطاب ويستحسن عند أولي الأبواب .

وكان دمع الرمس أسفلها وكان غصن البان أعلاها
حتى إذا ثملت بنشوتها قرأت كتاب الباه عيناه
وقال آخر:

ذو صورة بشرية قمرية تستنطق الأفواه بالتسبيح
وقال آخر:

وإذا بدت في بعض حاجتها تستنطق الأفواه بالتسبيح (كذا)
وقال بشار:

تُلقي بتسبيحة من حسن ما خلقت وتستفز حشا الرائي بإرعاد
ولي من أبيات:

يا صورة البدر ولا الذي صوّر ليس البدر يحكيك
منى على العين ولا تبخلي بنظرة فالعين تفديك
وإن تحرّجت لهذا فكم قد سبّح الرحمن رأيك
قال ابن شبرمة: كفاك من الحسن أنه مشتق من الحسنة. وقال عمر ابن
الخطاب رضي الله عنه: إذا تمّ بياض المرأة في حسن شعرها فقد تمّ حسنّها.
وقالت عائشة رضي الله عنها: البياض شطر الحسن. وقال بعض السلف: جعل
الله البهَاء والهوج مع الطول، والدهاء والدمامة مع القصر، والخير فيما بين ذلك.
ومما يذم في النساء القصيرة الغليظة وهي التي عنها الشاعر بقوله:

وأنت التي حبّبت كل قصيرة إليّ ولم تشعر بذاك القصائر
عنيت قصيرات الحجال ولم أرد قصار الناشر النساء البحائر
والبحائر هنّ النساء القصار الغلاظ. وبعضهم ببالغ في هذا حتى يفضل
المهازيل على السمان.

أنشد الزمخشري:

لا أعشق الأبيض المنفوخ من سمنٍ لكنني أعشق السمر المهازيل

إني امرؤ أركب المهر المضمّر في يوم الرهان فدعني واركب الفيلا
وطائفة تفضل السمان وتقول: السمن نصف الحسن وهو يستر كل عيب في
المرأة ويبيدي محاسنها. وخيار الأمور أوسطها.

ومما يستحسن في المرأة طول أربعة وهنّ: أطرافها، وقامتها، وشعرها،
وعنقها، وقصر أربعة: يدها، ورجلها، ولسانها، وعينها، فلا تبذل ما في بيت
زوجها، ولا تخرج من بيتها، ولا تستطيل بلسانها، ولا تطمع بعينها، وبياض
أربعة: لونها، وفرقها، وثغرها، وبياض عينها. وسواد أربعة: أهدابها،
وحاجبها، وعينها، وشعرها. وحمرة أربعة: لسانها، وخدها، وشفتها مع لعس،
وإشراب بياضها بحمرة. ودقة أربعة: أنفها، وبنانها، وخصرها، وحاجبها.
وغلظ أربعة: ساقها، ومعصمها، وعجيزتها، وذاك منها. وسعة أربعة، جبينها،
ووجهها، وعينها، وصدرها. وضيق أربعة: فمها، ومنخرها، وخرق أذنها، وذاك
منها. فهذه أحقّ النساء بقول كثير:

لو أن عزة خاصمت شمس الضحى في الحسن عند موفق لقضى لها
وقال آخر:

ولو أبصر الوجه منها وهو منهزم ليلاً وأعدّآؤه من خلقه وقفاً
وقال آخر:

يا طيب مرعى مقلّة لم تخف بوجنتيها زجر حُرّاس
حلّت بوجه لم يغض ماؤه ولم تخضه أعين الناس
وقال آخر:

فلم يزل خدّها ركناً الود به والخال في خدّها يغني عن الحجر
وقول الآخر وأنشده المبرد:

وأحسن من ربع ومن وصف دمنية ومن جبلي طي ومن وصفكم سلعا
تلاحظ عيني عاشقين كلاهما له مقلّة في خد معشوقة ترعى

وأنشد ثعلب:

خزاعة الأطراف مرية الحشا فزارية العينين طائية الفم
ومكية في الطيب والعطر دائماً تبدت لنا بين الحطيم وزمزم
ثم قال: وصفها بما يستحسن من كل قبيلة.

وقال صالح بن حسان يوماً لأصحابه: هل تعرفون بيتاً من الغزل في امرأة خفرة؟ قلنا: نعم بيت لحاتم في زوجته ماوية.

يضيء لها البيت الظليل خصاصه إذا هي يوماً حاولت أن تبسماً
قال: ماصنعتم شيئاً قلنا: فبيت الأعشى:

كان مشيتها من بيت جارتها مر السحابة لارث ولاعجل
قال: جعلها تدخل وتخرج قلنا: يا أبا محمد فأبي بيت هو؟ قال: قول أبي قيس بن الأسلت.

ويكرمها جاراتها فيزرنها وتعتل [عن] إتيانهن فتعذر
قلت: وأحسن من هذا كله ما قاله إبراهيم بن محمد الملقب بنفطويه رحمه الله:

وخبرها الواشون أن خيالها إذا نمت يغشى مضجعي ووسادي
فخفوها فرط الحياء فأرسلت تعيرني غصبي بذول رفادي
ومما يستحسن في المرأة رقّة أديمها ونعومة ملمسه كما قال قيس بن ذريح:

تعلق رُوحِي رُوحها قبل خلقنا ومن بعد ما كنا نطاقاً وفي المهد
فزاد كما زدنا فأصبح نامياً فليس وإن متنا بمنفصم العهد
ولكنه باق على كل حادثٍ ومؤنسنا في ظلمة القبر واللحد
يكاد مسيل الماء يחדش جلدها إذا اغتسلت بالماء من رقّة الجلد
ولي من أبيات:

يُدْمِي الحريرُ أديمها من مسّه فأديمها منه أرقّ وأنعم

فصل

فيا أيها العاشق سمعه قبل طرفة فإن الأذن تعشق قبل العين أحياناً، وجيش المحبة قد يدخل المدينة من باب السمع كما يدخلها من باب النصر. والمؤمنون يشتاقون [إلى] الجنة ومارأوها، ولورأوها لكانوا أشد لها شوقاً، والضرورة^(١) يكاد قلبه يذوب شوقاً إلى رؤية البيت الحرام. فإن شأقتك هذه الصفات وأخذت بقلبك هذه المحاسن.

فاسمُ بعينيك إلى نسوة مُهورهنَّ العمل الصالح
وحدت النفس بعشق الألى في عشقهنَّ المتجرُّ الرابح
واعمل على الوصل فقد أمكنت أسبابه ووقتُها رائج

فصل

وقد وصف الله سبحانه [حور] الجنة بأحسن الصفات، وحلاهنَّ بأحسن الحلى، وشوق الخطاب إليهنَّ حتى كأنهم يرونهن رؤية العين. قال الطبراني: حدثنا بكر بن سهل الدمياطي [حدثنا] عمرو بن هشام البيروني، حدثنا سليمان بن أبي كريمة، عن هشام بن حسان، عن الحسن، عن أمه، عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: قلت يارسول الله أخبرني عن قول الله عز وجل: ﴿حُورٌ عِينٌ﴾^(١) قال: حُورٌ بيضٌ، عِينٌ ضِخَامُ العيون شعر الحوراء بمنزلة جناح النسر قلت: أخبرني عن قوله عز وجل: ﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾^(٢) قال: صفاءهنَّ صفاء الدر الذي في الأصداق الذي لم تمسه الأيدي قلت: يارسول الله أخبرني عن

(١) الضرورة: الذي لم يحج.

(٢، ٣) سورة الواقعة: ٢٢ - ٢٣.

قوله: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حَسَنَاتٌ﴾^(١) قال: خيراتُ الأخلاقِ حسانُ الوجوه قلت: أخبرني عن قوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾^(٢) قال: رِقَّتُهُنَّ كِرْقَةُ الْجِلْدِ الَّذِي رَأَيْتَ فِي دَاخِلِ الْبَيْضَةِ مِمَّا يَلِي الْقَشْرَ وَهُوَ الْغَرْقِيُّ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي عَنْ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿عُرْبًا أْتَرَابًا﴾^(٣) قال: هُنَّ اللَّوَاتِي قُبِضْنَ فِي دَارِ الدُّنْيَا عَجَائِزَ رُمُصًا شُمُطًا خَلَقَهُنَّ اللَّهُ بَعْدَ الْكِبَرِ فَجَعَلَهُنَّ عَذَارَى عُرْبًا مَتَعَشِقَاتٍ مَتَحَجَّجَاتٍ أْتَرَابًا عَلَى مِيلَادٍ وَاحِدٍ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ نِسَاءُ الدُّنْيَا أَفْضَلُ أَمْ الْحَوْرُ الْعَيْنُ؟ قَالَ: بَلِ نِسَاءُ الدُّنْيَا أَفْضَلُ مِنَ الْحَوْرِ الْعَيْنِ كَفَضْلِ الظَّهَارَةِ عَلَى الْبَطَانَةِ. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَبِمِ ذَلِكْ؟ قَالَ: بِصَلَاتِهِنَّ وَصِيَامِهِنَّ وَعِبَادَتِهِنَّ اللَّهُ أَلْبَسَ اللَّهُ وَجُوهَهُنَّ النُّورَ، وَأَجْسَادَهُنَّ الْحَرِيرَ، بَيْضُ الْأَلْوَانِ، خَضِرُ الثِّيَابِ، صَفَرُ الْحُلِيِّ مَجَاسِرُهُنَّ الدَّرَّ، وَأَمْشَاطُهُنَّ الذَّهَبَ. يَقُلْنَ: نَحْنُ الْخَالِدَاتُ فَلَا نَمُوتُ، نَحْنُ النَّاعِمَاتُ فَلَا نَبْأَسُ أَبَدًا. نَحْنُ الْمُقِيمَاتُ فَلَا نَضَعْنَ أَبَدًا، أَلَا وَنَحْنُ الرَّاغِبَاتُ فَلَا نَسْخُطُ أَبَدًا، طَوْبَى لِمَنْ كُنَّا لَهُ وَكَانَ لَنَا، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ الْمَرْأَةُ مِمَّا تَتَزَوَّجُ الزَّوْجِينَ وَالثَّلَاثَةَ وَالْأَرْبَعَةَ ثُمَّ تَمُوتُ فَتَدْخُلُ الْجَنَّةَ وَيَدْخُلُونَ مَعَهَا مَنْ يَكُونُ زَوْجَهَا؟ قَالَ: يَا أُمَّ سَلَمَةَ إِنَّهَا تُخَيَّرُ فَتُخْتَارُ أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا فَتَقُولُ: أَيُّ رَبِّ إِنْ هَذَا كَانَ أَحْسَنَهُمْ مَعِيَ خُلُقًا فِي دَارِ الدُّنْيَا فَزَوْجَنِي، يَا أُمَّ سَلَمَةَ ذَهَبَ حَسَنُ الْخُلُقِ بِخَيْرِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ^(٤).

(١) سورة الرحمن: ٧٠.

(٢) سورة الصافات: ٤٩.

(٣) سورة الواقعة: ٥٧.

(٤) ذكره المؤلف رحمه الله تعالى في كتابه حادي الأرواح وعقب عليه بقوله: تفرد به سليمان بن أبي كريمة ضعفه أبو حاتم وقال ابن عدي: عامة أحاديثه مناكير ولم أر للمتقدمين فيه كلاماً ثم ساق هذا الحديث من طريقه وقال: لا يعرف إلا بهذا السند.

فصل

وقد وصفهنَّ الله عز وجل بأنهنَّ كواعب ، وهو جمع كاعب وهي المرأة التي قد تكعَّب ثديها واستدار ولم يتدل إلى أسفل . وهذا من أحسن خلق النساء ، وهو ملازمٌ لسن الشباب . ووصفهنَّ بالخور وهو حسن ألوانهن وبياضه قالت عائشة رضي الله عنها : البياض نصف الحسن وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إذا تمَّ بياضُ المرأة في حسن شعرها تمَّ حسنُها . والعرب تمدح المرأة بالبياض .

قال الشاعر :

بيضٌ أوانس ما هم من بريّة كظباء مكة صيدهن حرام
يحسبن من لين الحديث زوانيا ويصدهن عن الخنا الإسلام
والعين جمع عيّناء وهي المرأة الواسعة العين مع شدة سوادها وصفاء بياضها
وطول أهدابها وسوادها . ووصفهنَّ بأنهنَّ خيراتُ حسان وهو جمع خيرة وأصلها
خيرة بالتشديد كطيبة ثم خَفَّف الحرف ، وهي التي قد جمعت المحاسن ظاهراً
وباطناً فكمُل خلقها وخلقها فهنَّ خيرات الأخلاق حسان الوجوه ، ووصفهنَّ
بالطهارة فقال : ﴿ولهم فيها أزواج مطهرة﴾^(١) طهرن من الحيض والبول والنَّجو
وكل أذى يكون في نساء [الدنيا] ، وطهرت بوطنهن من الغيرة وأذى الأزواج
وتجنَّهنَّ عليهم وإرادة غيرهم . ووصفهنَّ بأنهنَّ مقصورات في الخيام أي ممنوعات
من التبرِّج والتبدُّل لغير أزواجهنَّ ، بل قد قَصِرْنَ عَلَى أزواجهنَّ لا يخرجن من
منازلهم ، وقصرن عليهم فلا يردن سواهم . ووصفهنَّ سبحانه بأنهنَّ قاصرات
الطَّرف ، وهذه الصفة أكمل من الأولى ، ولهذا كنَّ لأهل الجنتين الأوليين^(٢) ،

(١) سورة البقرة الآية : ٢٥ ، وسورة النساء الآية ٥٧ . بغير واو (٢) قال الله تعالى في سورة الرحمن : ﴿ولن خاف مقام ربه جنتان﴾ ، فوصفها وقال : ﴿فيهن قاصرات الطرف﴾ ، ثم قال : ﴿ومن دونها =

فالمرأة منهم قد قصرت طرفها على زوجها من صحبتها له ورضاها به ، فلا يتجاوز طرفها عنه إلى غيره كما قيل :

أذود سوام الطرف عنك وماله على أحدٍ إلا عليك طريق
وكذلك حال المقصورات أيضاً لكن أولئك مقصورات ، وهؤلاء قاصرات .
ووصفهن سبحانه بقوله : ﴿أَبْكَارًا . عُرُبًا أَتْرَابًا﴾^(١) وذلك لفضل وطء البكر وحلاوته ولذاذته على وطء الثيب . قالت عائشة رضي الله عنها : يارسول الله لو مررت بشجرة قد رُعي منها وشجرة لم يُرْع منها ففي أيهما كنت ترتع بعيرك؟ فقال : في التي لم يرع منها تعني أنه لم يتزوج بكراً غيرها^(٢) . وصح أنه قال لجابر لما تزوج امرأة ثيباً : هلاً بكراً تلأعبها وتلأعبك؟ فإن قيل : فهذه الصفة تزول بأول وطء فتعود ثيباً قيل : الجواب من وجهين : أحدهما أن المقصود من وطء البكر أنها لم تذق أحداً قبل وطئها فتزرع محبته في قلبها ، وذلك أكمل لدوام العشرة فهذه بالنسبة إليها ، وأما بالنسبة إلى الواطيء فإنه يرعى روضةً أنفًا لم يرعها أحدٌ قبله ، وقد اشار تعالى إلى هذا المعنى بقوله : ﴿لَمْ يَطْمِئُنْهُنَّ إِنْسَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ﴾^(٣) ثم بعد هذا تستمر له لذة الوطء حال زوال البكارة ، الثاني أنه قد روي أن أهل الجنة كلما وطئ أحدُهم امرأة عادت بكراً كما كانت فكلمها أتاها وجدها بكراً^(٤) . وأما العُرب فجمع عروب وهي التي جمعت إلى حلاوة الصورة حسنَ التاني والتبعل والتحب إلى الزوج بدلها وحديثها وحلاوة منطقها وحسن حركتها ، قال البخاري في صحيحه : وأما الأتراب فجمع ترب يقال : فلانُ تربى إذا كنتما في سنٍّ واحدٍ

= جنتان ﴿فوصفها وقال : ﴿حورٌ مقصورات في الخيام﴾ فهذا دليل المؤلف على أن صفة قاصرات الطرف أكمل من صفة المقصورات في الخيام لأن الله سبحانه جعل القاصرات لأهل الجنة الأوليين والمقصورات لأهل الجنتين اللتين من دونها .

(١) سورة الواقعة الآيتان ٣٦ ، ٣٧ .

(٢) سورة الرحمن الآيتان ٥٦ ، ٧٤ .

(٣) رواه الطبراني في معجمه وسيأتي بعدُ .

فهنَّ مستوياتٌ في سنِّ الشباب لم يقصِّرَ بهنَّ الصغر، ولم يُزهِرهنَّ الكبر، بل سنُّهنَّ سنُّ الشباب . وشبهنَّ تعالى باللؤلؤ صفاء لونه وحسنَ بياضه ونعومةَ مَلَمَسه، وخذ من البيض المكنون وهو المصونُ الذي لم تنله الأيدي اعتدال بياضه وشوبه بما يُحسنه من قليل صُفرة بخلاف الأبيض الأمهق المتجاوزز في البياض، وخذ من الياقوت والمرجان حسن لونه في صفائه وإشراجه بيسيرٍ من الحمرة .

فصل

فاسمع الآن وصفهنَّ عن الصادق المصدوق، فإن مالت النفس وحدثتك بالخطبة وإلا فالإيمان مدخول . فروى مسلم في صحيحه^(١) من حديث أيوب، عن محمد بن سيرين إما تفاخروا وإما تذاكروا الرجال في الجنة أكثر أم النساء؟ فقال أبو هريرة رضي الله عنه : أولم يقل أبو القاسم ﷺ : «إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر والتي تليها على أضوء كوكب دري في السماء إضاءة، لكل امرئٍ منهم زوجتان اثنتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم وما في الجنة عزب» .

وقال الطبراني في معجمه : حدثنا أحمد بن يحيى بن الحلواني والحسن بن علي القسوي قالا : حدثنا سعيد بن سليمان (حدثنا فضل ابن مرزوق رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : «أول زمرة يدخلون الجنة كأن وجوههم صورة القمر ليلة البدر والزمرة الثانية على أحسن كوكب دري في السماء لكل واحد منهم زوجتان من الحور العين على كل زوجة سبعون حلة يرى مخ سوقهما من وراء لحومهما وحللها كما يرى الشراب الأحمر في الزجاج البضاء» . قال الحافظ أبو عبد الله المقدسي : هذا عندي على شرط الصحيح .

وفي الصحيحين^(٢) من حديث همام بن منبه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :

(١) (ج٤/٢١٧٨) رقم (٢٨٣٤)

(٢) أخرجه البخاري (٦/٢٥٠) ومسلم (٢٨٣٤) .

قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر لا يبصقون فيها ولا يمتخطون فيها ولا يتغوطون فيها أنيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة ومجامرهم الألوة^(١) ورشحهم المسك ولكل واحد منهم زوجتان يرى مغ ساقهما من وراء اللحم من الحسن لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب واحد يسبحون الله بكرة وعشية».

وقال الإمام أحمد بن حنبل في مسنده^(٢): حدثنا يونس بن محمد حدثنا الخزرج بن عثمان السعدي، حدثنا أبو أيوب مولى عثمان بن عفان رضي الله عنه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قيد سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا ومثلها معها ولقاب قوس أحدكم من الجنة خير من الدنيا ومثلها معها. ولنصيف امرأة من الجنة خير من الدنيا ومثلها معها قال قالت: يا أبا هريرة وما النصيف؟ قال: الخمار فإذا كان هذا قدر الخمار فما قدر لابسه؟».

وقال ابن وهب: أنبأنا عمرو أن دراجاً أباالسمح حدثه عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل في الجنة لتأتيه امرأة تضرب على منكبه فينظر وجهه في خدها أصفى من المرأة وإن أدنى لؤلؤة عليها لتضيء ما بين المشرق والمغرب فتسلم عليه فيرد عليها السلام ويسألها من أنت فتقول أنا المزد، وإنه ليكون عليها سبعون ثوباً أدناها مثل النعمان من طوى فينفذها بصره حتى يرى مغ ساقها من وراء ذلك وإن عليهم التيجان وإن أدنى لؤلؤة عليها لتضيء ما بين المشرق والمغرب». وبعض هذا الحديث في جامع الترمذي وهو على شرطه^(٣).

(١) الألوة: قال الأصمعي أراها فارسية عربت العود الهندي الذي يتخربه.

(٢) (ج ٢/ ٣١٥ و ٤٨٢ و ٤٨٣).

(٣) رواه أحمد في المسند (٧٦/٣)، والترمذي في جامعه (٢٥٦٥) والبيهقي في شرح السنة، ورواه أحمد (١٤٧/١٣) (٣١٦/٢). ورواية دراج عن أبي السمع فيها مقال.

وفي صحيح البخاري^(١) من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لغدوة في سبيل الله أو روحه خير من الدنيا وما فيها ولقاب قوس أحدكم أو موضع قيده يعني سوطه خير من الدنيا وما فيها ولو طلعت امرأة من نساء الجنة إلى الأرض للمأت ما بينهما ريحاً وأضاءت ما بينهما ولنصفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها».

وفي المسند من حديث محمد بن سيرين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: للرجل من [أهل] الجنة زوجتان من الحور العين على كل واحدة سبعون حله يرى مخ ساقها من وراء الثياب.

وقال ابن وهب: حدثنا عمرو أن درجاً أبا السمع حدثه عن ابن الهيثم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن أدنى أهل الجنة منزلة الذي له ثمانون ألف خادماً واثنتان وسبعون زوجة وينصب له قبة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت كما بين الجابية وصنعاء»^(٣) رواه الترمذي.

وفي معجم الطبراني من حديث أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: «خلق الحور العين من الزعفران»^(٤).

(١) ج ٦/ في الجهاد باب الحور العين وصفتهم ورواه أحمد ١٤٧/٣.

(٢) (٣١٦/٢).

(٣) رواه أحمد في المسند (٧٦/٣) والترمذي في جامعه (٢٥٦٥) والبغوي في شرح السنة.

(٤) ذكره المصنف في حادي الأرواح بمسند الطبراني وقال: قال الطبراني: لا يروي إلا بهذا الإسناد انفرد به علي بن الحسن بن هارون ثم ذكره من طرق أخرى موقوفة وقال: ولا يصح رفع الحديث وحسبه أن يصل إلى ابن عباس.

فصل

فإن أردت سماع غنائهم فاسمع خبره الآن . ففي معجم الطبراني من حديث عمر رضي الله عنها قال : قال رسول الله ﷺ إن أزواج أهل الجنة يغنين أزواجهن بأحسن أصوات ماسمعهما أحد قط إن مما يغنين به : نحن الخيرات الحسان أزواج قوم كرام ، ينظرون بقرة أعيان ، وإن مما يغنين به : نحن الخالدات فلا نتمنه ، نحن الامنات فلا تحفنه ، نحن المقيعات فلا نضعه . وقد قيل في قوله تعالى : ﴿فهم في روضة يعبرون﴾^(١) إنه السماع الطيب ولا ريب أنه من الخبرة .

وقال عبدالله بن محمد البغوي : حدثنا علي ، أنبأنا زهير ، عن أبي إسحاق ، عن عاصم ، عن علي رضي الله عنه قال : ﴿وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً﴾^(٢) حتى إذا انتهوا إلى باب من أبوابها وجدوا عنده شجرة يخرج من تحت ساقها عينان تجريان ، فعمدوا إلى إحداهما فكأنما أمروا به فشربو منها فأذهب الله ما في بطونهم من قذى أو أذى أو بأس ، ثم عمدوا إلى الأخرى فتطهروا منها فجرت عليهم نضرة النعيم ولم تتغير أشعارهم بعدها أبداً ولم تشعث رؤوسهم كأنما أدهنوا بالدهان ، ثم انتهوا إلى الجنة فقالوا : ﴿سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين﴾^(٣) ثم تلقاهم الولدان يطيفون بهم كما يطيف أهل الدنيا بالحميم يقدم عليهم من غيبته فيقولون له : أبشر بما أعد الله تعالى لك من الكرامة ، ثم ينطلق غلام ، من أولئك الولدان إلى بعض أزواجه من الحور العين فيقول : جاء فلان باسمه الذي كان يدعى به في الدنيا قالت ، أنت رأيته ؟ قال : أنا رأيته وهو بأثري فيستخف إحداهن الفرح حتى تقوم على أسكفه بابها ، فإذا انتهى إلى منزله نظر

(١) سورة الروم : ١٥ .

(٢) سورة الزمر : ٧٣ .

(٣) سورة الزمر : ٧٣ .

إلى [أساس] بنيانه فإذا جندل اللؤلؤ فوقه صرح أخضر وأحمر وأصفر من [كل] لون، ثم يرفع رأسه فينظر إلى سقفه فإذا مثل البرق ولولا أن الله عز وجل قدره لألم أن يذهب بصره، ثم طأطأ رأسه فإذا أزوجة وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة ثم اتكأوا فقالوا ﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾^(١) ثم ينادي منادٍ يحيون فلا يموتون أبداً، ويقيمون فلا يظغنون أبداً، ويصحون فلا يمرضون أبداً.

وفي سنن ابن ماجه^(٢) عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا هل مشمر للجنة فإن الجنة لا خطر لها هي ورب الكعبة نور يتلألأ وربحانة تهتز وقصر مشيد ونهر مطرد وثمره نضيجة وزوجة حسناء جميلة وحلل كثيرة ومقام في أبد في دار سليمة وفاكهة وخضرة وحبيرة ونعمة في محلة عالية بهية قالوا: نعم يا رسول الله نحن المشمرون لها قال: قولوا إن شاء الله فقال القوم: إن شاء الله [تعالى]».

فصل

فهذا وصفهن وحسنهن فاسمع الآن لذة وصالحهن وشأنه ففي مسند أبي يعلى الموصلي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ فذكر حديثاً طويلاً وفيه: «فأقول يارب وعدتني الشفاعة فشفعني في أهل الجنة يدخلون الجنة فيقول الله تعالى [قد] شفعتك وأذنت لهم في دخول الجنة» وكان رسول الله ﷺ يقول: «والذي بعثني بالحق ما أنتم في الدنيا بأعرف بأزواجكم ومساكنكم من أهل الجنة بأزواجهم ومساكنهم فيدخل رجل منهم على ثنتين وسبعين زوجة مما ينشئ الله وثنيتين من ولد آدم لهما فضل على من أنشأ الله بعبادتهما الله في الدنيا يدخل على الأولى منهما في غرفة من ياقوتة على سرير من ذهب مكلل باللؤلؤ عليه

(١) سورة الأعراف: ٤٣.

(٢) رقم (٤٣٣٢) وابن حبان (٢٦٢٠) والبيهقي في شرح السنة ولا بأس بإسناده.

سبعون زوجاً من سندس وإستبرق وإنه ليضع يده بين كتفها ثم ينظر إلى يده من صدرها ومن وراء ثيابها وجلدها ولحمها وإنه لينظر إلى مخ ساقها كما ينظر أحدكم إلى السلقي في قسبة الياقوت كبده لها مرآة يعني وكبدها له مرآة فبينما هو عندها لا يملها ولا تمله ولا يأتيتها من مرة إلا وجدها عذراء فبينما هو كذلك إذ نودي إنا قد عرفنا أنك لا تَمَل ولا تُمَل إلا أنه لا مني ولا منية إلا أن يكون لك أزواج غيرها فيخرج فيأتيهن واحدة واحدة كلما جاء واحدة قالت: والله ما في الجنة شيء أحسن منك وما في الجنة شيء أحب إليّ منك». وهذا قطعة من حديث الصور الطويل الذي رواه إسماعيل بن رافع^(١).

وفي صحيح مسلم^(٢) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن للمؤمن في الجنة لحيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها ستون ميلاً للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضاً» رواه البخاري وقال: ثلاثون ميلاً.

وفي جامع الترمذي من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يُعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا من النساء قلت: يارسول الله وبطريق ذلك؟ قال: يعطى قوة مائة» قال: هذا حديث صحيح^(٣) غريب.

(١) قال المؤلف في كتابه حادي الأرواح وذكر هذا الحديث: تفرد به إسماعيل ابن رافع وقد روى له الترمذي وابن ماجة وضعفه أحمد ويحيى وجماعة وقال الدارقطني وغيره: متروك الحديث وقال ابن عدي: عامة أحاديثه فيها نظر وقال الترمذي: ضعفه بعض أهل العلم وسمعت محمداً يعني البخاري يقول: هو ثقة مقارب الحديث وقال لي شيخنا أبو الحجاج الحافظ: هذا الحديث مجموع من عدة أحاديث ساقه إسماعيل أو غيره هذه السياقة وماتضمنه معروف في الأحاديث والله أعلم. وذكر قطعة منه في موضع آخر من الكتاب وعقب عليها بهذا وزاد قوله قلت: ولكن إذا روى مثل هذا ما يخالف الأحاديث الصحيحة لم يلتفت إلى روايته، وأيضاً فالرجل الذي روى عنه القرظي لا يدري من هو.

(٢) (٢١٨٢/٤) (٢٨٣٨) والبخاري ٨، ١٣ في التوحيد والتفسير وأحمد في المسند (٤/٤٠٠).

(٣) وهو كما قال رحمه الله ورزقنا علمه ورواه أيضاً ابن حبان

وفي معجم الطبراني من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله هل نصل إلى نساءنا في الجنة؟ فقال: «إن الرجل ليصل في اليوم إلى مائة عذراء» وفي لفظ: قلنا يا رسول الله نفضي إلى نساءنا في الجنة؟ فقال: «إي والذي نفسي بيده إن الرجل [ليفضي] في الغداة الواحدة إلى مائة عذراء». قال الحافظ أبو عبد الله المقدسي: ورجال هذا الحديث عندي على شرط الصحيح.

وفي حديث لقيط العقبلي الطويل [الذي] رواه الطبراني وعبد الله بن أحمد في السنة^(١) وغيرهما أنه قال: [قلت] يا رسول الله أولنا فيها أزواج مصلحات قال: «الصالحات للمصالحين تلذوهن مثل لذاتكم في الدنيا ويلذذنكم غير أن لا توالد».

وذكر ابن وهب عن عمرو بن الحارث، عن [دارج]، عن عبد الرحمن بن حجية، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: أنطأ في الجنة؟ فقال رسول الله ﷺ: نعم والذي نفسي بيده دحماً، فإذا قام عنها رجعت مطهرة بكرة^(٢) قال الحافظ أبو عبد الله: [دارج] اسمه عبد الرحمن بن سمعان المصري، وثقه يحيى ابن معين: وأخرج عنه أبو حاتم بن حبان في صحيحه وكان بعض ينكر بعض حديثه والله أعلم.

وفي معجم الطبراني من حديث أبي المتوكل، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الجنة إذا جامعوا نساءهم عدن أبكاراً وفيه أيضاً عنه أن رسول الله ﷺ سئل أيجامع أهل الجنة؟ قال: دحماً دحماً ولكن لا مني ولا منية».

(١) ج ٤٨٨/٢ وهو جزء من حديث طويل في صفحتين ورواه أحمد (١٣/٤) وفيه ضعف.

(٢) رواية دراج عن أبي السمع فيها ضعف.

قصيدة^(١)

ياخاطب الحور الحسان وطالبًا
لو كنت تدري من خطبت ومن طلب
أو كنت تعرف أين مسكنها جعل
أسرع وحث السير جهدك إنما
فاعشق وحدث بالوصال النفس واب
واجعل صيامك دون لقيائها ويو
واجعل نعوت جمالها الحادي وسر
واسمع إذن أوصافها ووصالها
يامن يطوف بكعبة الحسن التي
ويظل يسعى دائماً حول الصفا
ويروم قربان الوصال على منى
فلذا تراه محرماً أبداً ومو
يبغي التمتع مفرداً عن حبه
ويظل بالجمرات يرمي قلبه
والناس قد قضوا مناسكهم وقد
وخذت بهم همهم لهم وعزائم
رفعت لهم في السير أعلام الوصا
ورأوا على بعد خياماً مشرفا
فتميموا تلك الخيام فأنسوا
من قاصرات الطرف لا تبغي سوى

لوصالهن بجنة الحيوان
ت بذلت ما تحوي من الأثمان
ت السعي منك لها على الأجفان
مسراك هذا ساعة لزمان
ذل مهرها مادم ذا إمكان
م الوصل يوم الفطر من رمضان
نحو الحبيب ولست بالمتواني
واجعل حديثك ربة الإحسان
حفت بذاك الحجر والأركان
ومحسر مسعاه كل أوان
والخيف يحجبه عن القربان
ضع حلة منه فليس بدان
متجرداً يبغي شفيع قران
هذي مناسكه بكل زمان
حثوا ركائبهم إلى الأوطان
نحو المنازل ربة الإحسان
ل فشمروا ياخيبة الكسلان
ت مشرقات النور والبرهان
فيهن أقماراً بلا نقصان
محبوها من سائر الشبان

(١) هي قطعة من قصيدة للمؤلف في السنة سهاها الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية.

قصرت عليه طرفها من حسنه
ويحار منه الطرف في الحسن الذي
ويقول لما أن يشاهد حسنها
والطرف يشرب من كؤوس جمالها
كملت خلائقها وأكمل حسنها
والشمس تجري في محاسن وجهها
فيظل يعجب وهو موضع ذاك من
ويقول سبحان الذي ذا صنعه
لا الليل يدرك شمسها فتغيب عند
والشمس لا تأتي بطرد الليل بل
وكلاهما مرآة صاحبه إذا
فيري محاسن وجهه في وجهها
حمر الخدود تغورهن لآليء
والبرق يبدو حين يسم ثغرها
ريانة الأعطاف من ماء الشبا
لما جرى ماء النعيم بغصنها
فالورد والتفاح والرمان في
والقد منها كالقضب اللذن في
في مغرس كالعاج تحسب أنه
لا الظهر يلحقه وليس ثديها
لكنهن كواعب ونواهد
والجيد ذو طول وحسن في بياض
يشك الحلي بعباده فله مدى الـ

والطرف منه مطلق بأمان
قد أعطيت فالطرف كالخيران
سبحان معطي الحسن والإحسان
فتراه مثل الشارب النشوان
كالبدل ليل الست بعد ثمان
والليل تحت ذوائب الأغصان
ليل وشمس كيف يجتمعان
سبحان متقن صنعة الإنسان
مد مجيئه حتى الصباح الثاني
يتصاحبان كلاهما أخوان
ماشاء يبصر وجهه يريان
وترى محاسنها به بعيان
سود العيون فواتر الأجفان
فيضيء سقف القصر بالجدران
ب فغصنها بالماء ذو جريان
حمل الثمار كثيرة الألوان
غصن تعالي نهارس البستان
حسن القوام كأوسط القضبان
عالي النقا أو واحد الكثمان
بلواحق للبطن أو بدوان
فثديهن كأحسن الرمان
واعتدال ليس ذا نكران
أيام وسواس من الهجران

والمعصمان فإن تشأ شبهها
كالزبد ليناً في نعومة ملمس
والصدر متسع على بطن لها
وعليه أحسن سرّة هي زينة
حُق من العاج استدار وحشوه
وإذا نزلت رأيت أمراً هائلاً
لا الحينس يغشاه ولا بول ولا
فخذان قد حُفا به حرّسا له
قاما بخدمته هو السلطان بيد
وهو المطاع إذا هو استدعى الحية
وجاعها فهو الشفاء لصبها
وإذا أتاه عادت الحسناء بك
وهو الشهي الذّ شيء هكذا
يارب غفراً قد طغت أقلامنا
أقدامها من فضة قد رُكبت
والساق مثل العاج ملموم به
والريخ مسك والجسوم نواعم
وكلامها يسي العقول بنغمة
وهي العُروب بشكلها وبدلها
أتراب سنّ واحد متماثل
بكر فلم يأخذ بكارتها سوى ال
يُعطي المجمع قوة المائة التي اج
ولقد أتانا أنه يغشى بيوم

بسبكتين عليهما كفان
أصداف در دورت بوزان
والخضر منها مغرم بثمان
للبطن قد غارت من الأعكان
حبّات مسك جلّ ذو الإتقان
ما للصفات عليه من سلطان
شيء من الآفات في النسوان
فجنابه في عزّة وصيان
نهما وحق طاعة السلطان
ب أتاه طوعاً وهو غير جبان
فألصبّ منه ليس بالضجران
رأ مثل ما كانت مدى الأزمان
قال الرسول لمن له أذنان
يارب معذرة من الطغيان
من فوقها ساقان ملتقّان
مُخ العظام تناله العينان
واللون كالياقوت والمرجان
زادت على الأوتار والعيدان
وتحبب للزوج كلّ أوان
سنّ الشباب لأجمل الشبان
محبوب من إنس ولا من جان
تمتعت لأقوى واحد الإنسان
م واحد مائة من النسوان

ورجاله شرط الصحيح رروالهم
وبذاك فُسر شغلهم في سورة
هذا دليل أن قدر نسائهم
وبه يزول توهم الإشكال عن
في بعضها مائة أتى وأتى بها
فتفاوتت الزوجات مثل تفاوت الـ
وبنقوة المائة التي حصلت له
وأعفهم في هذه الدنيا هو الـ
فاجمع قواك لما هناك وغُضَّ منـ
ما هاهنا والله مايسوى قُلا
ونصيفها خيرٌ من الدنيا وما
لا تُؤثر الأدنى على الأعلى فإن
وإذا بدت في حُلَّةٍ من لبسها
تهتز كالغصن الرطيب وحمله
وتبخترت في مشيها وبحق ذا
ووصائفٌ من خلفها وأمامها
كالبدري ليلة تمه قد حُفَّ في
فلسانه وفؤاده والطرف في
تستنطق الأفواه بالتسبيح إذ
والقلب قبل زفافها في عرسه

فيه وذا في معجم الطبراني
من بعد فاطر^(١) يأخا العرفان
متفاوت بتفاوت الإيمان
تلك النصوص بمنة الرحمن
سبعون أيضاً ثم جا تنان
درجات فالأمران مختلفان
أفضى إلى مائة بلا خوران
أقوى هناك لزهده في الفاني
ك الطرف واصبر ساعة لزمان
مة ظفر واحدة من النسوان
فيها إذا كانت من الأثمان
تفعل رجعت بذلة وهوان
وتمايلت كتمايل النشوان
وردٌ وتفاح على رمان
ك لملها في جنة الرضوان
وعلى شمائلها وعن أيان
غسقى الدجى بكواكب الميزان
دهش وإعجاب وفي سبحان
تبدو فسبحان العظيم الشان
والعرس إثر العرس متصلان

(١) إشارة إلى قوله تعالى في سورة يس: ﴿إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون﴾ فقد فسر كثير من السلف [الشغل في هذه الآية بافتضاض الأبكاء].

حتى إذا ما واجهته تقابلا
فسل المتيم هل يحل الصبر عن
وسل المتيم أين خلف صبره
وسل المتيم كيف حالته وقد
من منطقي رقت حواشيه ووج
وسل المتيم كيف عيشته إذا
يتساقطان لآلئاً منشورة
وسئل المتيم كيف مجلسه مع الـ
وتدور كاسات الرحيق عليهما
يتنازعان الكأس هذا مرة
فيضمهما وتضمه أرايت معـ
غاب الرقيب وغاب كل منكـ
أتراهما ضجرين من ذا العيش لا
يا عاشقاً هانت عليه نفسه
أترى يليق بعاقلي بيع الذي

أرايت إذ يتقابل القمران
ضمّ وتقبيل وعن فلتان
في أيّ وادٍ أم بأي مكان
ملئت له الأذنان والعينان
كم به للشمس من جريان
وهما على فرشيهما خلوان
من بين منظوم كنظم جمان
محبوب في روح وفي ربحان
بأكف أقمار من الولدان
والخود أخرى ثم يتكئان
شوقين بعد البعد يلتقain
وهما بثوب الوصل مشتملان
وحياة ربك ماهما ضجران
إذ باعها غنبا بكل هوان
يبقى - وهذا وصفه - بالفاني(*)

(*) لقد أنكر بعض الناس أن يكون نعيم الجنة مادياً يباشره الخلق بأجسامهم ويرونه بأبصارهم وهم يدعون أن النعيم في الآخرة رُوحى محض ليس للأجسام علاقة به . ولا يخفى ما في هذا الرأي من الزيغ والضلالة، وأي زيغ أشد من رد ماجاءت به الآيات البينات والأحاديث الصحيحة الثابتة؟

إن أحوال البرزخ والقيامة وما بعدهما من الأمور المغيبة التي لا يمكن أن يكون المرجع فيها إلى الرأي والاجتهاد، بل لابد من المصير فيها إلى مجاء عن الله ورسوله ﷺ . إذن ليس لنا من حميد على أن نعتقد اعتقاداً جازماً لا تردد فيه أن الحال في الآخرة على ما وصف في الكتاب الكريم والسنة المطهرة، وهو ما عليه عامة السلف والخلف .

على أن الجنة ليست كما يفهمها آخرون مقصورة على التمتع بالشهوات من النساء والطعام والشراب ونحوها وإنما هنالك أمور هي أسمى من ذلك وأعلى، منها اجتماع أهل الجنة بعضهم

= ببعض وتذاكرهم ماكان بينهم في الدنيا ومنها وهو أفضلها وأعظمها على الإطلاق رؤية الله سبحانه وتعالى عياناً بغير حجاب وسماع كلامه بلا وسطة ومحاضرته العباد وتذكيره عز وجل بإيهم بها أتوا في الدنيا من غدرات وغير ذلك مما هو ثابت لا يمتري فيه إلا من هم في ريبهم يترددون .
وبعد فلا أدري ماهو السبب الحامل على إنكار كون نعيم الجنة مما يشترك في الإحساس به الأجسام والأرواح ، مع أن الناس جميعاً إنما يسعون في الدنيا لتحصيل اللذة والنعيم ، وهما لدهم الغاية القصوى من الحياة المضوية بالآلام والأسقام والفقر وخوف الانقطاع ، ومامننا من أحد إلا وهو يتوخى بعمله أي عمل كان مايتوخاه العامل من الأجر ، حتى أولئك الذين يدعون أنهم إنما يعملون مايعملون قياساً بالواجب وإجابةً لداعي الضمير فإن قصاراهم منه الذة وموضعها النفوس والأجسام .

وإن تعجب فعجب شأن أولئك الذين يستنكرون عيش الآخرة لما فيه من الإقبال على النعيم الخالص ، ويعتدون القلب في آفائه وامتناع النفس بلذاته من الأمور التي يحسن بالعاقل أن يربأ بنفسه عن الرضا بها والركون إليها ، وإنما هي شيمة العاطلين أولى النفوس الشهوانية والهمم الدنية ، يقولون ذلك وهم يركبون رؤوسهم في اتباع الشهوات الموبقة بين سمع الخلق وبصرهم ، وينعون على أهل الصلاح أنهم عن صراطهم ناكبون ، وأنهم عن صفو هذا العيش ونعمته غافلون . ولقد قال قائلهم وكان في تيه غيه وهواه سادرا :

ومن أجل كرهى للمخانيث

أنكرت يدي أن تحلى في الجنان أساورا

ألا فليعلم هؤلاء أن للمتقين مفازاً وأن لهم في الجنة ماتشتهي أنفسهم ولهم فيها مايدعون نزلاً من غفور رحيم وفيها ماتشتهي الأنفس وتلذ الأعين وهم فيها خالدون .
تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار .

المراجع

- * القرآن الكريم - تنزيل من رب العالمين
- * كتب اللغة.
- * لسان العرب لابن منظور. دار صادر.
- * مختار الصحاح للفخر الرازي - المكتبة الأموية - بيروت.
- كتب الحديث:
- * فتح الباري بشرح صحيح البخاري - ابن حجر - الطبعة السلفية.
- * صحيح مسلم بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي . توزيع دار الافتاء.
- * سنن الترمذي تحقيق أحمد شاكر.
- * سنن أبو داود - دار الحديث - محمد على السيد.
- * سنن ابن ماجه بتحقيق الأعظمي - الرياض.
- * سنن النسائي - دار القلم.
- * رياض الصالحين للنووي . دار المأمون للتراث.
- * شرح السنة للإمام البغوي - المكتب الإسلامي .
- * مشكاة المصابيح - للتبريزي - بتحقيق الألباني - المكتب الإسلامي .
- * جامع الأصول لابن الأثير - تحقيق الأرناؤوط .
- * صحيح الجامع الصغير - للألباني - المكتب الإسلامي .
- * ضعيف الجامع الصغير - للألباني .
- * السلسلة الصحيحة - للألباني - المكتب الإسلامي .
- * السلسلة الضعيفة - للألباني - المكتب الإسلامي .
- * مسند أحمد بن حنبل - المكتب الإسلامي - ط . البابي .
- * مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر - دار المعارف - مصر.

- * مصنف ابن أبي شيبة - الهند .
- * تهذيب التهذيب - ابن حجر - الهند .
- * ماهية الجمال والفن - عبدالله عووضة - الهيئة المصرية للكتاب ، ١٩٨٨ م .
- * دراسات نفسية - التذاوق الفني - شاعر سليمان - القاهرة .
- * الظاهرة الجمالية في الإسلام - صالح الشامي - المكتب الإسلامي .
- * سطوع البدر بفضائل ليلة القدر - إبراهيم الحازمي - توزيع الجريسي - الرياض .
- * فصول في علم الجمال - عبدالرؤف برجواوي - بيروت .
- * الطبيعة في الفن الغربي والإسلامي - عماد الدين خليل - مؤسسة الرسالة -
- فلسفة الجمال في الفكر المعاصر - محمد زكي - بيروت .
- * فلسفة الجمال في الفكر المعاصر - محمد زكي - بيروت .
- * مشارق أنوار القلوب وصفائي أسرار الغيوب - ابن الدباغ - دار صادر .
- * مشارق أنوار القلوب وصفائي أسرار الغيوب - ابن الدباغ - دار صادر
- بيروت .
- * الأسس الجالية في النقد العربي - عز الدين إسماعيل - دار الفكر
- * الدوريات والحوليات .
- * فلسفة الجمال - مجلة المقتطف - مصر - عام ١٣٩٩ هـ .
- * لماذا يعشق الإنسان الجمال - نبيل راغب - مجلة الفيصل - عام ١٤٠٣ .
- * الفرق بين جمال الطبيعة وجمال الفن - المجلة العربية - عام ١٤٠٣ هـ .
- * مدارس الجمال عند العربيين - منير العجلاني - المجلة العربية - ١٤٠٦ هـ .
- * الإحساس بالجمال - راضي حكيم - المنهل - ١٤٠٤ هـ .
- * هكذا علمتني الحياة - مصطفى السباعي - المكتب الإسلامي .
- * الأخلاق والسير في مداواة النفوس - ابن حزم - دار الآفاق .

- * البداية والنهاية لابن كثير - دار المعارف .
- * تفسير ابن كثير.
- * فتح القدير - للشوكاني .
- * أضواء البيان - الشنقيطي - توزيع دار الإفتاء السعودية .
- * عمل اليوم والليل - النسائي - تحقيق فاروق حمادة - المغرب .

الفهرس

٥	المقدمة
٦	تعريف الجمال والحسن
٦ - ٧	الفرق بين الحسن والجمال
٨	الألفاظ الجمالية
٩	تأملات
١٠	ما ورد في حسنه الباهر ﷺ
١٣	أمور تزيد من الجمال الظاهري والباطني
١٥	الجمال المعنوي
١٦	التذوق الجمالي
١٩	الجمال جزاء العمل الصالح
٢٤	من الآثار الجمالية في الحضارة الإسلامية
٢٥	من كان يضرب به المثل من الصحابة في الجمال
٢٧	الجمال عنصر مقصود
٢٩	الجمال في الكون
٣٣	الجمال في الإنسان
٣٨	وسائل جمالية
٤٠	«الظاهر والباطن» والجمال
٤٢	المنهج و«خاصية الظاهر والباطن»
٤٣	الإحساس بالجمال وأثره في النفس
٤٧	مكانة الجمال
٥٠	ما قيل من الشعر والنثر في الجمال وحسن الوجه

٥٣	أمثال العرب في الجمال
٥٦	ما قيل من الخاطر العاطر في الجمال
٥٦	مسابقات ملكات الجمال
٥٧	قصة ظريفة غلب فيها الدهاء (الذكاء) الجمال
٥٨	حقيقة الجمال
٦٣	الجمال والقيم
٦٤	ميادين جمالية أتى بها الإسلام
٦٩	ترجمة ابن تيمية
٧٤	ترجمة ابن القيم
٨٣	القسم الثاني المحقق

فهرس كتاب الجمال لابن تيمية

٨٥	فصل في محبة الجمال
٨٦	الله بحب الجمال والجميل
٨٦	استحباب التجميل في الجمع والأعياد
٨٦	حسن الثياب
٨٧	كل مصنوع الرب جميل
٨٨	التدين يحب الصور الجميلة
٨٨	الاتحاد والحلول المطلق في الصورة الجميلة وغيرها
٨٨	الجمال الظاهر لا ينفع عند الله
٨٩	لماذا حرم الله لباس الحرير والذهب
٨٩	تحريم اللباس الذي فيه فخر وخيلاء وإسبال الثياب
٩٠	كراهية لبس الأحمر المشبع حمرة
٩١	الأمر بغض البصر
٩٢	الحب والبغض هما أصل الأمر والنهي
٩٢	هل يجتمع في الشخص الثواب والعقاب
	هل الإرادة والمحبة والرضا واحدة، أم متلازمة هل كل ماأراد الله
٩٣	أحبه نفسه
٩٤	أنواع الإرادة
٩٥	العدل بالتسوية بين المتماثلين
٩٦	أنواع الحق المقصود
٩٧	معنى حديث: إن الله جميل يحب الجمال
٩٨	الله سبحانه يحب صفات الكمال
١٠٠	كون الشيء جميلاً يقتضى محبة الله له

- الجمال الخاص ١٠٠
- لباس التقوى واللباس الظاهر ١٠١
- أحب خلقه إليه المؤمنون ١٠٢
- الله سبحانه يبغيض الفواحش ولا يحبها ١٠٢
- إذا كان الجمال متضمناً لعدم ماهو أحب إليه ١٠٢
- الله لا يحب كل مختال فخور ١٠٢
- لم ينفع المنافقين حسن الصورة والصورة ١٠٣
- إذا كان المرأة والصبي جميلاً مع الفجور الداخلي فما الحكم؟ ١٠٤
- الله يحب الحسنات وأهلها ١٠٤
- حبة الإنسان للشيء الجميل إذا خلا من المفسدة ١٠٥
- حكم حبة النساء والمردان الأجانب ١٠٥
- لم يأمر الله ولا رسوله بعشق الصور الجميلة ١٠٦
- مشاهدة الله في الصورة الجميلة؟ ١٠٦
- تأويل حديث: إن الله جميل على غير تأويله ١٠٦
- سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا
- آباءنا﴾ ١٠٦
- من أسباب دخول النار ١٠٧ - ١٠٨
- الزنا وقذف المحصنات من الكبائر ١٠٩
- الخوض في الدين بالبدع والضلالات ١١٠
- ضلال من عشق الصور الجميلة ١١١
- المعاصي المندرجة بين اللحيين والرجلين ١٠٨ - ١١١ ، ١١٢
- اقتران الكبائر بالمحبة ١١٣
- العشق ضرره أعظم من منفعته ١١٤
- كلام أبو القاسم القشيري في رسالته ١١٤

- محبة المردان والأحداث ١١٤ ، ١١٥
- الأمور المذمومة في الشريعة ما ترجح فساده على ضلاله ١١٥
- الحسنات كلما كانت أعظم كان صاحبها أفضل ١١٥
- التوبة هي جماع الرجوع من السيئات إلى الحسنات ١١٦
- تفاوت السيئات ١١٦
- العدل وضع الشيء في موضعه ١١٧
- النفاق والتدرج فيه ١١٧
- ضلال الاتحادية الذين يقولون : إن الله يحل في الصور الجميلة ١١٨
- الصدق مفتاح كل خير ١١٩ ، ١٢٠
- ترتيب الكبائر ١٢١
- الظلم ثلاث مراتب ١٢١
- فصل الصوت الحسن ومحبة الناس له ١٢٢
- الالتذاذ بالصوت الحسن عملاً على طاعة الله ١٢٢
- لا يستدل بالصوت الحسن على جواز أو استحباب في الدين ١٢٢
- الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل ١٢٣
- فضل كلام الله ١٢٣ ، ١٢٤
- الشعر قرآن إبليس ١٢٥
- الاستدلال بكون الصوت الحسن على جواز استعمال الغناء وبطلانه ١٢٥
- الاستدلال بكون الجمال نعمة على جواز امتناع النفس به وبطلانه ١٢٦
- محبة النفوس الصورة والصوت قد تكون ندًا لله ١٢٧
- ليس في دين الله محبة أحد لحسنه قط ١٢٨
- الجمع بين المعصية والطاعة ١٢٨
- من كان ذا صوت حسن وترك الغناء لله ١٢٨

- ١٢٩ من كان ذا صورة حسنة فغف عما حرم الله .
- ١٢٩ أهل الفجور تعلوهم ظلمة المعصية .
- وصف أهل السعادة بنهاية الحسن والجمال وصف أهل الشقاء بنهاية السوء
- ١٣١ والقبح
- ١٣٢ يوصف الكذاب بسواد الوجه
- ١٣٢ تعزير شاهد الزور بأن يسود وجهه
- ١٣٣ صاحب الصورة الحسنة إذا لم يكن عفيفاً فهو قبيح مذموم
- ١٣٤ مجرد الجمال الظاهر لا ينظر الله إليه
- ١٣٤ أهل جمال الصورة يتلون بالفاحشة كثيراً
- ١٣٥ نفى المخنثين سنة النبي ﷺ
- ١٣٦ من سنة النبي ﷺ التمييز بين الرجال والنساء المتأهلين والعزاب
- ١٣٦ عدم اختلاط الرجال بالنساء عند الخروج من المسجد
- ١٣٧ عدم مشي النساء في وسط الطريق
- ١٣٧ عدم نزول العزاب بين المتأهلين
- ١٣٨ التفريق بين بعض الذكران وبعض النساء
- ١٣٨ النهي عن مباشرة الرجل الرجل والمرأة المرأة في ثوب واحد
- ١٣٨ نفى من شَبَّ بالنساء
- ١٣٩ استعمال أسماء الجمال والحسن في الأعمال الصالحة
- ١٤٠ الحسن يسري إلى الوجه
- ١٤٠ وجوه أهل السنة كلما كبروا ازدادوا حسناً
- ١٤١ الرافضي كلما كبر شأن وجهه حتى أصبح كالخنزير أو مسخ قرداً
- ١٤١ ما ليس محبوباً عند الله تزين عند أصحابها فيرونها جميلة
- ١٤٣ العاصي لا يزين له عمله بل يستحسنه؟

- ١٤٣ تزيين الله الإيمان في قلب المؤمن
- ١٤٣ لعن من فعل به اللواط من وجهين
- ١٤٥ ، ١٤٤ المختشين وأنواعهم
- الحسن والصورة والصوت إذا اتقى الله كان أفضل ممن لم يؤت مالم
- ١٤٦ يمتحن فيه ؟
- ١٤٦ التحرك والاهتزاز بالصوت الحسن ؟
- ١٤٧ أدلة تحسين الصوت .
- الاستدلال بتحسين الصوت بالغناء أفسد من قياس الربا على
- ١٤٧ - ١٤٨ البيع .
- ١٤٩ اجتماع بعض الصوفية في الحمام والسبب في ذلك
- ١٤٩ أنواع السماع
- ١٥٠ الصوت الحسن قد يكون سبباً لموت الآخرين .
- ١٥٠ تحريك الصوت الحسن للنفوس تحريكاً خارجاً عن العادة

الفهرس الموضوعي لكتاب ابن القيم

- في ذكر فضيلة الجمال وميل النفوس إليه على كل حال . ١٥٥
- الجمال الظاهر زينة خصا الله بها بعض الصور عن بعض ١٥٥
- الجمال الباطن من أعظم نعم الله تعالى على العبد . ١٥٦
- فصل : فيا أيها العاشق سمعه قبل طرفه . ١٧١
- فصل : وقد وصف الله سبحانه حور الجنة بأحسن الصفات . ١٧١
- فصل : وقد وصفهن الله عز وجل بأنهن كواعب . ١٧٣
- فصل : فاسمع الآن وصفهن عن الصادق المصدوق . ١٧٥
- فصل : فإن أردت سماع غنائهن فاسمع خبره الآن . ١٧٨
- فصل : فاسمع الآن لذة وصاهن وشأنه . ١٧٩
- قصيدة لابن القيم . . ١٨٢

فهرس الفوائد والمطالب

١٥٥ صلاة الليل تنور الوجه وتحسنه
١٥٥ تأويل الزيادة في الخلق
١٥٦ سبب ورود حديث: «إن الله جميل يحب الجمال»
١٥٦ جرير بن عبدالله يوسف هذه الأمة وهو أجمل صحابي
١٥٧ ما بعث الله نبياً إلا جميل الصورة
١٥٧ كان النبي ﷺ أجمل الخلق
١٥٧ أعطي يوسف الصديق شطر الحسن
١٥٨ غيرة مصعب بن الزبير من كل جميل
١٥٨ جمال الحسن البصري
١٥٨ قصة مصعب بن الزبير مع أحد أصحاب المختار
١٥٩ نصيحة أبي حازم للتاة التي فتنت الناس ودعاؤه لها
١٥٩ فتوى الحسن البصري في التزوج على الحسناء
١٥٩ حكاية الأصمعي على جارية أرسلت برقعها
١٦١ أبو نواس والأعرابي
١٦٢ ، ١٦١ سماع السلف
١٦٢ استجداء الجارية الهذلية وشعرها
١٦٣ قصة محمد بن حميد مع جاريته التي كان يهواها
١٦٥ ، ١٦٤ صفة رسول الله ﷺ
١٦٦ زينة الظاهر وزينة الباطن وأمثلة من المقابلة في القرآن والشعر
١٦٨ ما يذم في النساء وما يستحسن

- ١٧٠ أحسن ما قيل في امرأة خفرة
- ١٧٢ نساء الدنيا أفضل من الحور العين
- ١٧٢ المرأة في الجنة لأحسن أزواجها خلقاً في الدنيا
- ١٧٣ الدليل على أن صفة قاصرات الطرف أكمل من صفة المقصورات في الخيام
- ١٧٤ فضل البكر على الثيب وفيه حديث عائشة
- ١٧٤ تعريف العرب والأبكار
- ١٩٣ فهرس الموضوعات